بوسلهام الكَط

من وحي التراث الغرياوي

الجزء الثالث والرابع



إهـــــــــداء ٢٠٠٩
الأستاذ / بوسلهام الكط
المملكة المغربية

بوسلهام الكــط

من وحي التراث الغرباوي... !؟!

الجزء الثالث والرابع

المؤلف : بوسلهام الكْط
الموقع الالكتروني : http : // bousalhamalgat.stesled.com
البريد الالكتروني : BLGATT@hotmail.com
الغلاف : الصورة بعدسة عبد الإله شكْور
الطبعة : الأولى 2007
رقم الإيداع القانوني : 2071 /2006 و 2072 / 2006
حقوق الطبع محفوظة للمؤلف
تم السحب : بالمطبعة السريعة
شارع محمد الخامس، الزنقة 22 رقم 2 – 14000 – القنيطرة / المغرب

تقديم عام للجزء الثالث : من وحي التراث الغرباوي...!؟!..

اهتمامنا في هذا الجزء الثالث من وحي التراث الغرباوي.. سيتمحور في الأساس حول إشكالية الحالة الاقتصادية والاجتماعية إلخ.. بمدينة مشرع ابن القصيري وضواحيها.. وبما أن مفهوم الاقتصاد / الحالة الاقتصادية، هو مفهوم مركب من مجموعة من العناصر والميادين.. المتنوعة، مثل: الفلاحة والصناعة والتجارة.. ومن الإنسان ورأس المال والأرض والعمل والوعي ..إلخ، فإن هذا المفهوم يخضع مثله مثل باقي الأشياء الأخرى للتطور والتغير مما يضفي عليه صبغة مهمة وأساسية على جميع المستويات، نظرا للدور الذي يلعبه في حياة كل المجتمعات على اختلافها وتنوعها وتشكيلها وتشكلها...!؟!

وبالنسبة إلى منطقة الغرب على العموم ومدينة مشرع ابن القصيري على الخصوص، إن المحاور الأساسية للاقتصاد في هذه المدينة - ابن القصيري- وضواحيها كانت تقليدية وأصبحت عصرية- نسبيا - بالرغم من معاناتها من الاستعمار وكل أنواع التسلط.. هكذا سيشهد المجتمع البدوي الغرباوي ولا سيما في مشرع ابن القصيري وضواحيه مجموعة من المشاكل في المجال الاقتصادي بالرغم من التطورات والتحولات والتغيرات.. التي عرفها هذا الواقع الغرباوي !؟

ويمكن آن نشير في هذا التقديم، أن هدفنا ليس هو إيجاد الحلول النهائية لإشكالية الاقتصاد.. في الواقع الغرباوي المتشعب، بل هو طرح مجموعة من الأسئلة والتساؤلات حول هذا الواقع.. ومحاولة توثيق وإبراز بعض التغيرات والتحولات.. التي لحقت بهذا الواقع وساهمت بشكل أو

بآخر، في تطور وتغير.. واقع المجتمع البدوي الغرباوي الذي لا يخلو من مشاكل مختلفة ومتنوعة.. على جميع المستويات.

ولقد جاء بصدد الحالة الاقتصادية المرتبطة بمدينة مشرع ابن القصيري وضواحيها ما يلي في كتيب[1] "مسيرة النماء في مشرع بلقصيري" ص 13 و 14 الذي أصدره المجلس البلدي الذي كان يترأسه الحاج محمد فكري. مطبعة المعارف الجديدة – الرباط " الحالة الاقتصادية"

يتميز النشاط الاقتصادي بسيطرة القطاعات التالية:

الفلاحة، الصناعة، التجارة وعدد من الحرف المتنوعة بالإضافة إلى قطاع الخدمات العامة.

الفلاحة الصناعية :

تعتبر ذات أهمية إقتصادية خاصة بالنسبة للمركز نظرا لتنوع المزروعات الصناعية، وتنفيذا لقرار صاحب الجلالة الحسن الثاني الهادف إلى سقي مليون هكتار ثم إنشاء بهضبة وادي سبو زراعات الشمندر وقصب السكر والقطن، وقد تم تشييد معملين للسكر هما: معمل السكر الوطني للغرب (الشمندر) الذي يبلغ عدد عماله 207 من الرسميين وينتج إثنان وثلاثون ألف وثمانية وتسعون طن ومأتي كليوغرام (32.098،200 طن). والمعمل الوطني لقصب السكر بوادي سبو الذي يشغل 132 رسمي وينتج إثنان وعشرون ألف وتسع ومائة وستة وسبعين طن من السكر الخام (22.976 طن) وأثناء كل موسم فلاحي يشغلان هذان المعملان عددا من المؤقتين.

مرافق أخرى

إن موقع مشرع بلقصيري جعل منه مركزا هاما لتجمع عدة مصالح ذات صبغة فلاحية مثل شركة التنمية الفلاحية (S.O.D.E.A) شركة إدارة الأراضي الفلاحية (S.O.G.E.T.A) الشركة الفلاحية للخدمات بالغرب (S.A.S.M.A.) مختبر تربية الناموس لمحاربة أمراض أشجار البرتقال، مخزنين هامين للحبوب. مجمع الحليب، كما يضم مفتشية تابعة لوزارة الفلاحة.

ويعتبر مشرع بلقصيري كذلك من المراكز المنتجة للحوامض، إذ توجد به وحدتان لتلفيف الحوامض (باك وأكرياك) تلففان قدرا هاما من الحوامض قصد التصدير، وتشغل وحدة (باك) أثناء موسم الحوامض

320 عاملا، أما وحدة (أكرياك) فتشغل أثناء نفس الموسم 200 عاملا من بينهم 118 عاملة.

وتوجد بالمركز أيضا بعض الوحدات التي تساهم في النشاط الاقتصادي كوحدات مختصة في بيع وتركيب وإصلاح القطع المفصلة والآلات الفلاحية والمواد الكيماوية، والبذور والأسمدة. بالإضافة إلى وجود وحدتين عصريتين لصناعة الآجور لتوفير الحاجيات الضرورية.

وختاما فإن مركز مشرع بلقصيري، بحكم موقعه في وسط الدائرة التي أنشأت يوم 26 يناير 1980 وبحكم عدد سكانه، وبعد إحداث عمالة سيدي قاسم وبفضل العناية التي يوليها السيد العامل لهذا المركز، فهذه كلها مؤشرات وعوامل ستعطيه نفسا جديدا وستكون بمثابة دفعة جديدة تبشر بالمستقبل الزاهر الذي يعد بحق عاصمة الفلاحة الصناعية».

قد يكون من بين أهم التغيرات والتطورات والتحولات.. التي عرفتها منطقة الغرب على العموم ومشرع ابن القصيري وضواحيه على الخصوص مع الاستعمار وبعد الاستقلال.. هو التغير الاقتصادي بالرغم من وجود مجموعة من المشاكل المتنوعة البارزة في الوضع الاجتماعي والفكري والثقافي..إلخ، وهكذا وإن بقي العامل الاقتصادي ذا أهمية قصوى في حياة الشعوب، فإنه ليس وحده المحدد الرئيسي والقاعدة الجوهرية في تغيير وتطوير.. حياة الناس وثقافتهم وفكرهم.. وهكذا يمكن القول إن هناك مرحلتين تاريخيتين أساسيتين كانت لهما آثار بعيدة المدى على التحولات.. التي شهدتها منطقة الغرب على العموم ومشرع ابن القصيري على الخصوص.. لقد أغلقت مجموعة من المعامل والوحدات..

أبوابها، وسرحت مجموعة من العمال وانتشرت البطالة كما ظهرت بعض الوحدات الصناعية والتجارية، وإن لم تكن في مستوى سابقاتها حتى (الآن).. هنا في مشرع ابن القصيري..!؟!.. كما أنه وبالرغم من وجود هذه المصالح المذكورة في الأقوال السابقة.. فإن الضيعات بالأساس قد عرفت بدورها انتكاسات وأزمات ومشاكل كثيرة لم تعرفها لا مع الاستعمار ولا مع بداية الاستقلال.. إنها أصبحت – أغلبها – عرضة للإهمال والضياع والفناء.. وهذا أمر مؤسف للغاية.. فلمن ترجع هذه المسؤوليات..!؟! كما كانت هناك حركات اقتصادية نشيطة ومهمة.. تتجلى في الإنتاج المحلي على مستوى الحوامض والبرتقال والنسيج والطين والبذور.. والتي تقلصت أو ضاعت.. في وقت وجيز، بشكل خطير.. فلمن ترجع هذه العوامل والأسباب ...!؟!.. كما كانت الرياضة من جهة أخرى، تحظى بأهمية قصوى من طرف المسؤولين والمواطنين على حد سواء، في جميع أنواع الألعاب تقريبا.. لكن كل ذلك قد ذاب واختفى ولم تبق إلا بعض أنواع الرياضة مثل كرة القدم والكرة الحديدية وبعض الرياضات الحرة، مثل بناء الأجسام.. هذه الرياضات القليلة لم تنج هي الأخرى من المشاكل الكثيرة التي أصبحت تطوقها من كل جانب..!؟

وإذن من يتحمل مسؤولية الوضع المتردي والمتأزم الذي أصبحت تعاني منه هذه المدينة الغرباوية - عاصمة الفلاحة الصناعية – في هذه الآونة، التي عرفت فيها كثير من المجتمعات الإنسانية تقدما ملحوظا..!؟!

الفصل الاول :

إشكالية الأسواق المكشوفة

بمنطقة الغرب

مقدمة عامة :

لا أحد يشك في الأدوار المتنوعة والمتعددة التي لعبتها الأسواق في الحياة البشرية، قديما وحديثا.. في الماضي والحاضر وكذلك في المستقبل، وهكذا ونحن بصدد الاهتمام بتوثيق.. بعض الظواهر للثقافة الشعبية البدوية الغرباوية.. وذلك لمحاولة جمع ما أمكن من الوثائق التي تفتقر إليها هذه المنطقة الغرباوية وعلى الخصوص مدينة مشرع ابن القصيري الحديثة العهد والنشأة في «التحديث» والقديمة في الوجود.

وهكذا، ورغم الأداور المهمة التي تلعبها الأسواق في كل الأزمنة وفي كل الأمكنة.. في المجالات الإنسانية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية والثقافية والسياسية..إلخ. فإن الاهتمام بها، في هذه المنطقة قبل الاستعمار وبعده، لا زال شبه غائب باستثناء بعض الأبحاث والدراسات التي قام بها الاستعمار وبعض مفكريه، استجابة لمجموعة من الأهداف والأبعاد.. المتنوعة والمتعددة، التي كان الاستعمار في حاجة ماسة إليها. وهكذا، لا زالت هذه المنطقة البدوية الغرباوية في مجال البحوث والدراسات العلمية والموضوعية.. المتعلقة بأسواقها تفتقر إلى توثيق وقراءات دقيقة ومضبوطة وهادفة.. لكثير من المعطيات والظواهر والمظاهر.. التي يتشكل منها الواقع الموضوعي الغرباوي المتحرك من جهة، وعقليته من جهة أخرى. بحيث لا زال مفهوم السوق ووظيفته.. سجينا النظرة القديمة والنظرة الاستعمارية – في الغالب – ومن هنا نتساءل : كيف يمكن أن ننظر إلى السوق في مشرع ابن القصيري وضواحيه، في هذا الوقت بالذات..!؟!

في الحقيقة ليست هناك نظرة واحدة وأحادية بإمكانها أن تحيط بكل ما يتعلق بالسوق على العموم وبالأسواق البدوية الغرباوية على الخصوص، ومن أجل ذلك سنجد أنفسنا ونحن نستقرئ ونقرأ واقع الأسواق هنا، في مشرع ابن القصيري وضواحيه، أمام وجهات نظر مختلفة وقراءات متعددة ومتنوعة لملامسة مجموعة من الحقائق والأهداف والأبعاد.. لتكوين صورة تقربنا قدر الإمكان من المعرفة الشمولية/النسبية.. لهذه الظاهرة الأساسية التي هي في حاجة إلى الاهتمام أكثر من غيرها، ومن أجل ذلك، ينبغي النظر إليها والاهتمام بها بوعي عميق وبجدية كبيرة، نظرا للأهمية الكبيرة التي تكتسيها في الواقع الإنساني والاقتصادي والاجتماعي والثقافي..إلخ.

وهكذا يكون هدفنا - مرة أخرى - من دراسة هذه الظاهرة هو العمل على توثيقها ومحاولة تقريبها إلى الأذهان على مستوى الفهم والمعرفة والنشأة والوظيفة.. إلخ. مبرزين من خلال ذلك، وغيره مجموعة من رواسب التخلف العقلي والتبعية العمياء والاستغلال الفاحش والتهميش المقصود.. التي تعاني منه هذه المنطقة الغرباوية التي نالت اهتمامنا : قراءة وتحليلا ومناقشة ونقدا وبحثا ودراسة. وهذا لا يمنعنا من جهة أخرى إبراز الجوانب الإيجابية والمكانة الأساسية التي تحظى بها هذه المنطقة البدوية الغرباوية في كل المجالات. وهذا كذلك، سيضعنا بدوره أمام مجموعة من التساؤلات حول المتغيرات والتحولات.. المتنوعة التي عرفتها ظاهرة الأسواق البدوية الغرباوية سلبا وإيجابا على مستوى الشكل أكثر من المضمون، بحيث أن عددها بقي كما كان عليه - في

الغالب – مع الاستعمار.. ومن أجل ذلك، ينبغي أن تكون نظرتنا إلى السوق نظرة واعية وهادفة.. مفتوحة ومتفتحة على جميع المستويات، من أجل المزيد من التطوير والإنماء والبناء الهادف.. لهذا المكان الهام والأساسي في حياة الناس والشعوب.

.. لا نهدف من هذه المحاولة المتواضعة، كذلك، أن تكون نظرتنا إلى هذه الظاهرة، نظرة ضيقة أي سجينة الماضي والانغلاق والمحافظة.. ولا ضحية التبعية العمياء والحرية المتهورة والفوضاوية.. التي لا تحترم شعور الإنسان ولا تعمل على تحقيق المصلحة العامة، وهذا يدفعنا إلى حوار جاد وهادف.. حوار واع كل الوعي بالأهمية الأساسية التي يلعبها السوق في الحياة العامة على العموم، وفي الحياة البدوية الغرباوية على الخصوص، التي لا زالت تعاني – كما قلنا أكثر من مرة – من رواسب الاستعمار والتخلف.. على جميع المستويات.

وهكذا تقتضي الضرورة – مرة أخرى – النظر إلى الأسواق البدوية الغرباوية التي أعاد تكوينها الاستعمار.. بنظرة عميقة ومعمقة.. واعية ونقدية..إلخ. الهدف منها ملامسة الجوانب السلبية والمتخلفة التي ظلت عالقة بظاهرة الأسواق وغيرها، والعمل على إعادة بنائها وتكوينها وتجديدها وتطويرها بما يتناسب وحاجة المواطنين والوطن، في عصر أصبحت فيه الحياة معقدة وصعبة.

وحتى نكون موضوعيين – نسبيا – في نظرتنا إلى ظاهرة الأسواق في منطقة الغرب، وفي مشرع ابن القصيري وضواحيه على الخصوص، فإن هذه الأسواق قد عرفت تطويرا مع الاستعمار ومع الاستقلال.. لكن الرجوع إلى مرحلة الاستعمار، قراءة وتحليلا ومناقشة

ونقدا.. ما بإمكانه استحضار مجموعة من المعطيات والحقائق.. التي أفرزها الصراع العنيف بين المواطنين والمستعمر الذي كان يهدف إلى خلخلة الهوية والثقافة والتراث..الخ، الاستعمار الذي يهدف إلى تزوير التاريخ وذلك بمحاولة تذويب الشخصية المغربية وتصهير الهوية والثقافة والتراث.. في هويته وثقافته وسياسته واقتصاده.. الخ كما جاء في مشروعه الاستعماري الخطير.

وهكذا، ومن المجالات المهمة والأساسية التي نالت اهتمام المستعمر وأثارت انتباهه هو مجال الأسواق، الذي وجد فيه مرتعا ومكانا صالحا وملائما لزرع سياسته وانتعاشها بكل الطرق الممكنة، كما تجلى ذلك بوضوح، على سبيل المثال لا الحصر، في هجوم الإنتاج الغربي على الإنتاج المغربي الوطني والمحلي ومحاربته بشراسة. ولعل السوق هو المجال الملائم أكثر فأكثر لتحقيق هذا الهدف وغيره من الأهداف بالرغم من الاحتجاجات والمواجهات التي قام بها المواطنون الأحرار والغيورون على مكتسباتهم ومقدساتهم الوطنية.

وفي إطار هذه النزاعات والصراعات والمواجهات.. بين منظومتين متناقضتين وبين إنتاجين مختلفين.. كان السوق كمجال واسع وهام وهادف.. حاضرا بقوة في السياسة الاستعمارية من جهة، ومن جهة أخرى، كذلك، كان حاضرا في وعي المناضلين المغاربة الشرفاء الحقيقيين كحقيقة وكواقع قد لعب أدوارا متعددة في مجال الاتصالات والثورة والمقاومة..الخ، فكان السوق في نظرنا، مجالا استغله الاستعمار لتنفيذ

مشروعه الإستعماري، لأنه المكان المؤهل من خلال مجموعة من القنوات إلى تحقيق ذلك. ومن جهة أخرى، كان موقعا للدفاع عن الهوية والتراث وعن الوطن والتاريخ..الخ، ومن هنا تنكشف بوضوح المكانة المهمة والأساسية، التي تحتلها الأسواق في المجتمعات الإنسانية وفي التاريخ..

ونحن نتحدث عن أهمية السوق/الأسواق ودورها في حياة المجتمعات وفي حياة الناس والشعوب، لا بد من الرجوع إلى المجتمعات العربية –باختصار– قبل الإسلام وبعده.. ذلك بأن الأسواق كانت دوما تلعب وظائف مختلفة على جميع المستويات وفي جميع المجالات : الفكرية والثقافية والدينية والسياسية والاجتماعية والتجارية والصناعية..إلخ، وأول ما يستحق الذكر في هذا الرجوع وفي هذا المجال بالضبط ، هو سوق عكاظ – من غير نسيان الأسواق العربية الأخرى- ذلك هو أنه في تلك المراحل من التاريخ، كان وجود الأسواق له نفوذ وأهمية، في كل الأنشطة الداخلية والخارجية. فكان مثلا، قبل الإسلام التباهي والتفاخر..بالآلهة وبالقبائل والأعراق والبطولات.. كما جسدتها القصائد الشعرية وغيرها.. بالإضافة إلى اللقاءات والاتصالات.. بين القبائل والناس والشيوخ.. كما كانت هناك حركة تجارية واجتماعية وسياسية وثقافية.. داخلية، وأخرى خارجية تتجسد في الاحتكاك وفي العلاقات التي كانت قائمة بين المجتمع العربي والمجتمعات الأخرى.وهكذا، وفي موازاة التقدم الذي عرفه المجتمع العربي الإسلامي من خلال مسيرته التاريخية.. كانت هناك حركة تجارية.. وأنشطة فكرية وثقافية وعلاقات إنسانية..إلخ، برزت بشكل كبير في قوة المجتمع وفي وجوده وفي أدواره ووظائفه التي لعبها في الداخل والخارج. وهكذا ظهرت المجتمعات العربية الإسلامية في

ذلك الوقت، كقوة دينية واقتصادية واجتماعية وتجارية وسياسية..الخ، يحسب لها حسابها في كل الدول والمجتمعات الأخرى.

ومن جهة أخرى، إذا رجعنا إلى القرآن الكريم، الذي جاء معبرا عما كان يتمخض في جوف المجتمع العربي.. وجدناه لم يخل من الإشارة الى أهمية السوق ودوره في كل المجالات، وفي مقدمتها مجال التجارة التي لعبت دورا أساسيا في الحياة العامة للمجتمع العربي الإسلامي، باعتبار أن التجارة كانت المحور الرئيسي في حركية المجتمع العربي وأنشطته المتنوعة، وفي ربط العلاقات مع المجتمعات الأخرى. وهذه الحقيقة الضرورية فرضت على العرب في ذلك الوقت، وكذلك على المسلمين بعد نزول القرآن.. الاهتمام بالأسواق وفتح أبوابها لتحريك وتنشيط الحركة الاقتصادية.. في الداخل والخارج.. ومما يدل على أهمية التجارة في المجتمعات العربية الإسلامية، التي تتخذ الأسواق موضعا منذ القديم، هو ممارستها من طرف الرسول صلى الله عليه وسلم، كما هو معروف.. وذكر التجارة كذلك، في مجموعة من الآيات القرآنية. وإن دل هذا عن شيء، إنما يدل على أهمية السوق ومكانته في الحياة الإنسانية والإجتماعية والمجتمعية.. على العموم، وفي حياة المجتمعات العربية الإسلامية على الخصوص، لأنها لم تكن ظاهرة غريبة عنهم، بل كانت الظاهرة البارزة والأساسية في حياة هذه المجتمعات العربية الإسلامية. ومن هنا كذلك، لا نستغرب من وجود ظاهرة الأسواق في المجتمع المغربي الذي يعتبر جزءا لا يتجزأ من جسم المجتمع العربي الإسلامي.. والإفريقي واالإنساني..

وإذن، المهم في بحثنا المتواضع هذا، ليس هو ربط ظهور أو وجود الأسواق في المجتمع المغربي وفي منطقة الغرب على الخصوص، بدخول الاستعمار وإنما هو الاهتمام بالاستعمار كقوة اقتصادية في ذلك الوقت، في مقابل ضعف الاقتصاد العربي الإسلامي.. مما أهله لغزو المجتمعات "الضعيفة" وإقامة أسواق كثيرة، فيها، لترويج إنتاجه وسلعه.. وضرب الإنتاج الوطني المحلي وشل حركته الاقتصادية.. على جميع المستويات.

فما هو مفهوم السوق!؟! وما هي وظيفته/وظائفه المتعددة والمتنوعة كما تبدو واضحة من خلال بعض المواقف الفكرية والثقافية والدراسات والأبحاث الغربية والمغربية..!؟! وكيف تقدمه لنا بعض المعاجم اللغوية؟!

هذا الاهتمام بالأسواق وبتعاريفها، هو أمر مألوف ومعروف.. عند الخاصة والعامة، وفي كل الأزمنة والأمكنة. ومن هنا ينبغي أن ننبه – مرة أخرى – إن اهتمامنا بهذا الموضوع، ليس الهدف منه البحث الايتمولوجي.. للسوق، وإنما هدفنا هو محاولة ملامسة بعض الحقائق والأشياء الإيجابية والسلبية، التي يمكن استخلاصها من ظاهرة الأسواق أي من أدوارها ووظائفها المختلفة والمتنوعة.. التي أدت دورها في مرحلة من مراحل تاريخ البشرية. حيث يقول ابن منظور في (لسان العرب)[2]. الجزء الثالث، ص 2154 : "والسوق: مَوضِعُ البياعات. ابْنُ سيدَهُ : السوق التي يُتَعامل، تُذَكَّر وتُؤَنَّثُ، قال الشاعرُ في التذكير :

أَلَمْ يَعظِ الفِتْيانَ ما صَارَ لِمَّتِي
بسوقٍ كثيرٍ رِيحُهُ وأعاصِرُهْ

(...)"والجمع أسواق، وفي التنزيل : "إلا أنهم ليَأْكلُون الطعامَ ويمشون في الأسواق" وفي حديث الجمعة : إذا جاءت سُوَيْقَةٌ أي تجارةٌ، وهي تصغير السوق، سميت بها لأن التجارة تُجلَبُ إليها، وتُسَاقُ المبيعات نحوها.

وسوق القتال والحرب وسُوقَتُهُ : حَوْمتُه، وقد قيل : إن ذلك من سوق الناس إليها" وجاء في المعجم العربي الحديث (لاروس)[3] – المكتبة الوطنية- ص 686 : " السوق : الساق و- : موضع تباع فيه الحاجات والسلع وغيرها [مؤنثة وقد تذكر] ج : أسواق "سوق الحرب" : حومة القتال، "السوق السوداء" : بيع البضائع والحاجات بأثمان استغلالية تفوق أثمانها العادية في ظروف خاصة كالحرب . "السوق الرسمية" : البورصة. " السوق الحرة" : التعامل خارج نطاق البورصة."

وجاء في كتاب محمد صلاح الدين : "المغرب : قبائل، مخزن ومعمر"[4] "أهمية الأسواق كانت قد سطرت في الفصول السابقة. نعرف ذلك، الأسواق لعبت دورا رئيسيا في تكوين المجتمع المغربي على المستوى الاقتصادي، الاجتماعي والسياسي. مراقبتها وإعادة تنظيمها كانت موضوع انتباه خاص من طرف الإدراة الاستعمارية طيلة هذه المرحلة الاستعمارية"

ونجد في مجلة "الاجتهاد"[5] ع 34 و 35 ص 429 و430 "السوق وعالمه : "هل هو المفتاح لفهم العالم الإسلامي"؟ (كليفورد غيرتس). قراءة أبو بكر قادر والسوق أو البازار تمييزا له كمؤسسة رائدة ليس مجرد مكان يذهب الناس إليه لشراء ما يحتاجونه أو لبيع ما يفيض عن

حاجاتهم، إنما هو شكل ثقافي ومؤسسة اجتماعية ونظام اقتصادي يتميز بالعلاقات الاجتماعية التي تدور حول إنتاج واستهلاك البضائع والخدمات. ودراسة عالم البازار المركبة – كما سيتضح لاحقا – ستبرز لنا أنه عالم يعتمد على المعلومات المتوفرة للمرتادين واتساق الاتصال والتواصل المستخدمة بينهم. ولما كانت المعلومات في البازار ليست متاحة بقدر متساو، فقد كان من أبرز خصائص نظام البازار اعتماده على نقص المعلومات، والمشاركون في نشاطاته يعرفون أن لعبة توفر أو نقص المعلومات هي اللعبة الرئيسية الأبرز، إذ يلعب رأس المال والمهارة والنشاط والهمة، إضافة إلى الحظ والامتيازات، دورا هاما فيه، كما هو الحال في أي نسق اقتصادي آخر، لكنها لا تفعل ذلك، عن طريق تأمين مكان يضمن امتيازات لمن يملك شبكة معلومات معقدة في جو من الاتصالات صاخب"

لقد اختلفت التصورات والمواقف والرؤى – كما رأينا – لتحديد مفهوم السوق، وهي على اختلافها وتنوعها شديدة التداخل وإن كانت غير متطابقة تطابقا تاما، وهذا راجع في وجهة نظرنا إلى المنظومة المرجعية : الفكرية والثقافية والدينية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية والتاريخية والإيديولوجية..الخ. التي تحكمت بشكل أو بآخر في هذه التصورات والمواقف والرؤى والتوجهات. فابن منظور، مثلا، اعتمد في تعريفه على ما هو ديني ولغوي وتجاري.. نابع من واقع المجتمع العربي الإسلامي ومن منظومته العامة التي تتحكم في هذا الواقع الموضوعي المعاش.

أما محمد صلاح الدين، ومن خلال أقواله السابقة لتحديد مفهوم السوق، فقد اعتمد على المفهوم الاجتماعي والإقتصادي بما في ذلك

المفهوم التاريخي.. لمرحلة مهمة من مراحل المغرب وهي مرحلة الاستعمار.. منبها إلى أهمية الأدوار التي لعبتها الأسواق في تكوين المجتمع المغربي على المستوى الاقتصادي والاجتماعي والسياسي. هذه الأسواق لم تنج بدورها من الاحتلال الاستعماري، الذي جعلها أماكن رئيسية لتنفيذ سياسته الاستعمارية ولتحقيق أهدافه وأغراضه.. التي كانت مرسومة ومضبوطة وواضحة.. منذ البداية. وهكذا حوَّل الاستعمار الأسواق من وظيفتها التقليدية إلى الوظيفة الحديثة، التي تتمشى وفق أهداف الإدارة الاستعمارية، والتي نجحت في مخططها الاستعماري والاستغلالي.. هذا (كليفورد غيرتس) فقد اعتمد بالإضافة إلى أهمية الجانب التجاري (بيع وشراء) على ما هو أكثر وزنا ومكانة في حياة الناس والمجتمعات.. إنه الجانب الثقافي والجانب الاجتماعي والجانب الاقتصادي.. والسوق هو الإطار العام الذي يحتوي هذه الجوانب كلها وغيرها.. باعتباره كذلك عالم التواصل والاتصال أكثر من غيره.. عالم المعلومات واللقاءات. هذا لا يخلو من تشابك العلاقات ومن تعقد المعاملات.. في شكلها الحياتي الموضوعي المعاش والمتحرك.. في فضاء السوق الشاسع الأطراف والمتعدد الأهداف.

وهكذا، ومن خلال هذه المواقف والتصورات والرؤى والتحديدات وعلى ضوئها ومن خلال الواقع المعاش.. يبدو بوضوح أن الأسواق في المغرب بصفة عامة وفي منطقة الغرب بصفة خاصة.. لم تنج هي الأخرى من الهيمنة الاستعمارية ومن التسلط الإمبريالي ومن سياسة الاستغلال والاستنزاف والاحتكار. وهذه السياسة التي عرفت أوجها في حقبة الاستعمار أي استعمار دول "العالم الثالث" التي كانت مرتعا خصبا

– ولا زالت– لدول "العالم المتقدم" أو العالم "القوي". وبذلك لم تكن أسواق دول "العالم الثالث" أسواق تتنافس مع أسواق "الدول المتقدمة" بقدر ما كانت – وما زالت – حقولا للتجارب وللترويج والاستغلال والتبعية.. الخ. في مجالات متعددة ومتنوعة.

وقد أدت هذه الوضعية الاستعمارية والاستغلالية والاحتكارية.. حتى (الآن) لا إلى تطوير الأسواق بطريقة إيجابية إلى ما فيه الصالح العام بما في ذلك دول "العالم الثالث" وإنما إلى تكريس وضعية أسواق "العالم الثالث" إلى ما هو أعقد وأخطر.. فالاتفاقيات والنتائج.. المستخلصة على سبيل المثال لا الحصر، في مؤتمر "الكاط" بمدينة الدار البيضاء بالمغرب.. قد ازدادت من اتساع الهوة بين أسواق الدول المتخلفة وأسواق الدول المتقدمة.. لأن ميزان القوى غير متكافئ بين واقع هذه الدول وتلك. ذلك أن السؤال الجوهري الذي يمكن أن يطرح بشأن هذه العلاقات اللامتكافئة بين أسواق دول "العالم الثالث" وأسواق الدول "المتقدمة" لا بد وأن ينطلق من الواقع الموضوعي المعاش لموازين القوى على جميع المستويات.. واقع الأوضاع الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والعلمية والتكنولوجية والتقنية.. الخ، التي أصبحت المعايير الأساسية والرئيسية في إصدار الأحكام وفي مواجهة الواقع وفي استخلاص النتائج..الخ. وفي إطار وعينا بهذه الإشكالية المتشعبة، لا بد من النظر إلى أهمية التنافس الاقتصادي والعلمي.. وبالتالي إلى تنافس الأسواق والإنتاج والتجارة.. بنظرة واقعية وموضوعية.. نظرة هادفة إلى الاستقلال الفعلي والحقيقي من سيطرة الهيمنة التي تمارسها الدول المتقدمة والمتجسدة أساسا في طبيعة أسواقها وتجارتها وعلاقاتها مع الآخر

ذلك لأن التخلف ليس ظاهرة حتمية، غير قابلة للزوال وللمحاربة كما قد يتوهم البعض...!؟!

الفصل الأول :

ظاهرة الأسواق المكشوفة الغرباوية
-سوق ابن القصيري ونواحيه كنموذج -
في عهد الاستعمار.

تمثل بداية القرن العشرين – كما نعرف – فترة استعمارية حقيقية.. في المغرب. هذه السياسة الاستعمارية القائمة قد ارتكزت في عمقها على الجانب الاقتصادي بالأساس، حيث برز الجانب التجاري بشكل قوي تجسد في كل المجالات الحيوية، وفي مقدمتها الأسواق، نظرا للأهمية التي اكتستها ظاهرة الأسواق في المجتمع المغربي. وقد رأينا بأن هذا الاهتمام قد قادته السياسة الاستعمارية الاستغلالية والهيمنة الامبريالية. هكذا حرص الفرنسيون على الخصوص، منذ احتلالهم للمغرب على الاهتمام بالفلاحة في منطقة الغرب بصفة خاصة، وفي كثير من المناطق الفلاحية المغربية الأخرى بصفة عامة. كما عملوا على الاهتمام كذلك، بالتجارة، فسطوا على الأراضي الصالحة والجيدة.. كما أنشأوا المحلات التجارية والصناعية.. في المدن وفي القرى.. التي نالت اهتمام سياستهم الاستعمارية والاستغلالية بالإضافة إلى أنهم أنشأوا الطرق والسكك الحديدية وبعض المحطات.. التي كانت تخدم مصالحهم بالدرجة الأولى.

وباعتبار منطقة الغرب على العموم ومشرع ابن القصيري وضواحيه على الخصوص، كانت مراكز فلاحية وتجارية.. فإن الاستعمار الفرنسي (هنا) قد اهتم بهذه المنطقة، فقد عمل على الاهتمام بالأسواق البدوية الغرباوية وعلى إعادة تنظيمها وفق سياسته ورغبة إرادته.. داخل المدن والقرى والبوادي.. فبنى معامل للبرتقال ومخازن للزرع.. وذلك لحماية أهدافه الاقتصادية والتجارية.. كما هو الأمر، هنا، في مشرع ابن القصيري التي لا تزال شاهدة على ما قلناه. ولعل موقع مشرع ابن القصيري كمركز فلاحي هام ما دفع بالاستعمار إلى إنشاء وإعادة تنظيم أسواق تجارية مثل : سوق الاثنين بمشرع ابن القصيري وسوق السبت بسوق الجمعة الحوافات

وسوق الخميس بدار الكداري وسوق الخميس بسيدي قاسم حروش..الخ. وهي أسواق مشهورة يأتي إليها الناس من منطقة الغرب ومن المناطق المغربية الأخرى.

ولعل المكانة التي تحتلها منطقة الغرب على العموم ومشرع ابن القصيري على الخصوص، في الخريطة المغربية، باعتبارها نقطة أساسية تربط بين كل المناطق المغربية الأخرى.. وهذا ما أهلها أن تلعب كذلك أدوارا هامة في مجال الاقتصاد والتجارة وكذلك السياسة. وبما أن اهتمامنا مركز في العمق وكما هو واضح، على مدينة مشرع ابن القصيري وضواحيها. فيمكننا القول بأن هذه المدينة كانت ولا زالت تعتبر مركزا لضواحيها وللأسواق التجارية التي ذكرناها في السابق – وهذا منذ عهد الاستعمار إلى الآن – وحديثنا عن الأسواق البدوية الغرباوية، هنا، في مشرع ابن القصيري وضواحيه، يدفعنا إلى التمييز بين الأسواق الداخلية والتي تكون في الغالب مغطاة على شكل مجموعة من الدكاكين. والأسواق الخارجية التي تكون خارج المدينة وفي مساحات شاسعة غير مسيجة أو مسورة في الغالب.. كما كان الأمر في عهد الاستعمار وحتى عهد الاستقلال.. بحيث إنها لا زالت مكشوفة إلا بعض الأجزاء أو المرافق منها، مثل، محل بيع اللحم مثلا، وتجدر الإشارة، كذلك، إلى أن أغلبها اليوم أصبح مسيجا أو مسورا للتحكم في المداخيل والمخارج وكذلك، في الضرائب المفروضة على البضع والسلع..الخ. ومن هنا فإن حديثنا في هذا الفصل الأول سينكب بالأساس على الأسواق البدوية الغرباوية المكشوفة والخارجة عن المركز، كما كانت عليه في عهد الاستعمار الفرنسي.. هنا، حيث يقول جان لوكوز في الجزء الثاني

من بحثه : "الغرب فلاحون ومعمرون"[6] ص 827 : "لا شيء يسجل أحسن قوة نشاط البنيات التقليدية إلا المكانة التي يحتلها السوق في حياة البلاد. مشي الرجال والحيوانات المحملة بالبضائع في الطريق قد تضاعفت بفضل الطاكسيات والحافلات. في البيع والشراء صفيحة/قرية بنزين قد حلت محل الشمعة، والمعطف الأوروبي حل محل الجلباب، وحل الدلو من الزنك أو البلاستيك محل الجرة، الأهمية المعطاة للفائض قد ازدادت (...).. ولكن في التفاصيل، فإن التغيرات المتعددة في العمق قد جعلت من المؤسسة أن تشتغل مثلما كانت عليه منذ خمسين سنة. نصيب وافر للتبادلات أخذت شكل المقايضة في زمنيين، في نفس الوقت، ثمن (العبرة من الزرع) يؤدي ثمن شراء : السكر والشاي والزيت. هناك إذن تحول في أثمنة البيع والشراء، وتحول في البضائع المحلية للصناعة التقليدية، التي حلت محلها البضائع التجارية الأجنبية.

(...) ومنذ الآن أخذ السوق صفة المركز السياسي والإداري. بحيث أصبحت مجموعة الضرائب التي تؤدى في السوق، تكون ميزانية الجماعة. إن التقسيم الإداري الجديد (الاستعماري) أنشأ ما يعرف ب "حيسوبي الجماعات" الذين حلوا محل الأمناء".

لا أحد ينكر وجود أو تواجد الاستعمار الفرنسي – في الماضي – في منطقة الغرب، حيث كانت الأغلبية من المستعمرين تمارس الفلاحة المتنوعة. وبما أن الاهتمام بالفلاحة كان جزء لا يتجزأ من أهداف السياسة الاستعمارية على الخصوص، والسياسة الرأسمالية المهيمنة على العموم.. فقد جعل منها مجالا شاسعا لتنمية التجارة الاستعمارية وتشجيعها، وذلك بإنشاء أو إعادة تنظيم مجموعة من الأسواق في هذه المنطقة الغرباوية وغيرها

– كما قلنا – والأقوال السابقة الذكر، لجان لوكوز تصب في هذا.. ولا تخلو بدورها من موقف سياسي وإيديولوجي مصلحي.. يشجع بشكل مفضوح الإنتاج الاستعماري وموارده.. على الإنتاج الوطني وموارده. وهكذا ومن منظور موضوعي، فإن الأقوال السابقة لجان لوكوز لا تخلو من أهمية في تطوير وتنظيم الأسواق البدوية الغرباوية، ولكنها لا تخلو كذلك، من خطورة ومصلحة.. تتجسدان – كما قلنا – في الهجوم على الإنتاج الوطني وعلى التراث والثقافة..الخ، وحل محلها كل ما هو غربي.

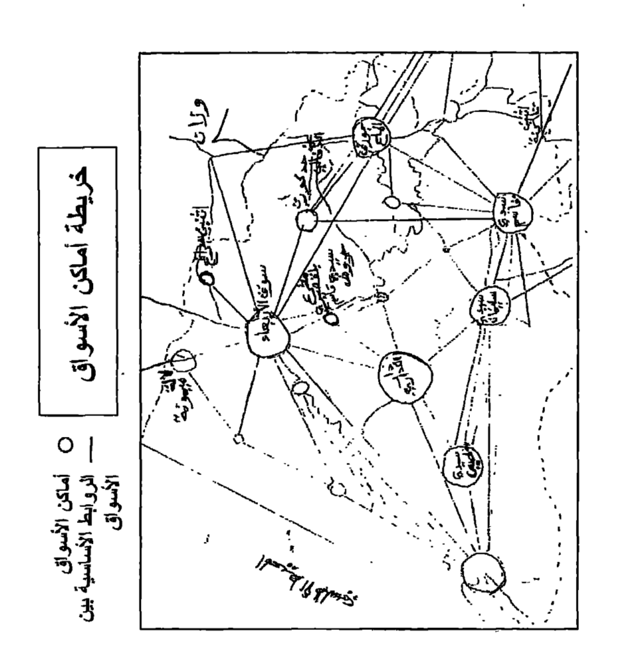
وهكذا وبالنظر إلى التحولات المذكورة في الحياة البدوية الغرباوية وبالأساس في أسواقها ومنتوجاتها وموادها وسلعها.. يلاحظ أن الأهداف الاستعمارية لم تكن بريئة.. أي لم تكن تهدف، فقط، إلى تطوير الحياة البدوية وتنظيم وتشجيع أسواقها.. بقدر ما اهتمت بأنشطتها الاقتصادية والسياسية والتجارية.. الأساسية، حيث وظفت كل طاقاتها وأفرادها وعقلياتها الاستعمارية البارعة والواعية كل الوعي بتنفيذ هذه الأهداف الاستعمارية، التي أثارت ردود أفعال متعددة من طرف المواطنين/الأحرار.. على العموم، ومن طرف الفلاحين والتجار المغاربة.. الذين كانوا ضحايا هذه السياسة الاستعمارية على الخصوص. ومن هنا نتساءل بدورنا، وانطلاقا كذلك، من الأقوال السالفة الذكر لجان لوكوز : هل استطاعت نشاطات أو أنشطة البنيات الحديثة التي حلت محل نشاط البنيات التقليدية أن تستجيب لمطالب ومطامح ورغبات.. الشعب المغربي !؟! هل الإنتاج الاستعماري بصناعته وتجارته وثقافته.. استطاع أن يخدم مصلحة المغرب أكثر من مصلحة الاستعمار..!؟! لماذا حل حيسوبيو الجماعات محل الأمناء؟

لقد تميز العهد الاستعماري في كل الأحوال، بالهيمنة والتسلط واستغلال واستنزاف خيرات المجتمع المغربي.. كما عمل على استغلال وعبودية واستعمار وسجن وتعذيب.. أبنائه المخلصين المناضلين. وهكذا كان تعايش المغاربة مع الاستعمار على العموم والفرنسي على الخصوص هو تعايش قد تميز بحدة الصراع والمواجهة.. من أجل الحرية والتحرر. ومما يدل على ذلك، هو وجود المقاومة والمقاومين ورجال التحرير الحقيقيين في كل أنحاء المغرب. وتعتبر الأسواق من بين المجالات الهامة والأساسية التي بدت فيها بوضوح هذه الصراعات والمواجهات.. لأنها كانت تعكس الوجه الحقيقي للسياسة الاستعمارية على مستوى الإنتاج والتجارة والمعاملة..الخ.

هذه السياسة الاستعمارية – كما هو معروف عنها – لم تصمد أمام الإرادة الشعبية القوية والهادفة إلى التحرر والتحرير، فكان رهانها هو الكفاح المستمر حتى يتحرر المغرب ويعود ملك البلاد محمد الخامس.

ومن غير شك، فإن رجال التحرير والمقاومة.. الحقيقيين، قد ساهموا إلى حد كبير في تشكيل وعي وطني.. ناهض بكل الطرق والوسائل.. المستعمر وسياسته الاستعمارية.. وقد وجدوا تجاوبا مع الشعب المغربي الذي وقف ضد الاستعمار في جميع المجالات وفي مقدمتها مجال مناهضة ومقاطعة الإنتاج الإستعماري الذي كانت الأسواق فضاء أساسيا يستجيب لأهدافه. وعلى ذكر الأسواق – مرة أخرى – يمكننا أن نتساءل عن ما هي الأسواق التي نالت اهتمام المستعمر، هنا، لتنفيذ سياسته الاستعمارية بالدرجة الأولى..!؟! وماهي أماكنها في مشرع ابن القصيري وضواحيه..!؟!

يحدد جان لوكوز أيام الأسواق البدوية الغرباوية في الجزء الثاني من بحثه المذكور، ص 828 حيث يقول : « محيطات أسواق التجار بالمغرب».



الاستعمارية بالدرجة الأولى..!؟! وما هي أماكنها في مشرع ابن القصيري وضواحيه..!؟! وما هي أبعادها ووظائفها..!؟

يحدد جان لوكوز أيام الأسواق البدوية الغرباوية في الجزء الثاني من بحثه المذكور، ص 828، حيث يقول : "محيطات أسواق التجار بالغرب.

JOUR	SUD – OUEST جنوب - غرب	NORD – OUEST شمال - غرب	SUD – EST جنوب - شرق
Dimanche (Had)....	Ouled Jellooul (حد أولاد جلول)	Had Kourt (حد كورت)	Tekna ou Chebanat (تكنة أو شبانات)
Lundi (Tnine)...	Kénitra (القنيطرة)	Méchra Bel Ksiri ou Serafa ou Aine Felfel (مشرع بلقصيري – سرالح أو عين فلفل)	Zégotta ou Jorf – el – Melha (زكوطة أو جورف الملحة)
Mardi (Tleta)....	Sidi Yahia (سيدي يحيى)	Souk – et – Tleta سوق الثلاثاء	Msaada (مساعدة)
Mercredi (Arba)...	Sidi Slimane (سيدي سليمان)	Souk – el – Arba (سوق الأربعاء)	Sidi Slimane (سيدي سليمان)
Jeudi (Khemis)	Dar Gueddari (دار الكداري)	Dar Gueddari (دار الكداري)	Sidi Kacem (سيدي قاسم)
Vendredi (Jmâa)... الجمعة	Mghrane (مكرن)	Lalla Mimouna (لالة ميمونة)	
Samedi (Sebt) السبت			Khénichet ou Houafat (الخنيشات أو الحوافات)

تجدر الإشارة في هذا الرسم التحديدي لمحيطات الأسواق الغرباوية، إلى أنه وقع تبديل وتغيير لأيام بعض الأسواق، نظرا لاعتبارات دينية بالأساس، وذلك أن يوم الجمعة يعد يوما مقدسا في المنظور الإسلامي، وذلك لقوله تعالى في سورة الجمعة. الآية 9 " يأيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلك خير لكم إن كنتم تعلمون". وباعتبار المغرب دولة إسلامية، فقد صدرت

مذكرة وزارية في هذا الشأن، وبدل أو غير : يوم سوق الجمعة بالمكرن، وبلالة ميمونة وكذلك بالخنيشات.. بيوم السبت والخميس بالنسبة للمكرن مثلا وحافظت الأسواق الأخرى على نفس الأيام حتى (الآن).

وإذا ما رجعنا إلى الرسم التحديدي لأيام الأسواق بالغرب، السابق، نجده يبدأ بيوم الأحد وهو يوم "مقدس" في الديانة المسيحية. ومن هنا يبدو مدى تداخل الثقافة والدين والسياسة..الخ.

ومن جهة أخرى، ومن المنظور الرياضي أو الحسابي/العددي.. نلاحظ بأن يوم الأحد يعني في لغة الحساب : واحد أي يساوي واحد : والاثنين : اثنان والثلاثاء : ثلاثة والأربعاء : أربعة والخميس : خمسة. وتتوقف العملية هنا، عند يوم الجمعة، نظرا للعامل الديني.. فالجمعة مذكورة في القرآن، كما رأينا في سورة الجمعة. وكذلك يوم السبت، حيث جاء في سورة البقرة، الآية 64 : "ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت" أي عرفت ما فعلنا بمن عصى أمرنا حين خالفوا واصطادوا يوم السبت – صفوة التفاسير – وكذلك، نجد في سورة الأعراف، الآية 163 "ويوم لا يسبتون لا تأتيهم" وفي غير يوم السبت وهي سائر الأيام لا تأتيهم بل تغيب عنهم وتختفي – صفوة التفاسير.

كما جاء كذلك، في سورة النحل. الآية 124 : " إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه" أي لم يكن تعظيم يوم السبت وترك العمل فيه من شريعة إبراهيم ولا من شعائر دينه، وإنما جعل تغليظا على اليهود لاختلافهم في الدين وعصيانهم أمر الله، حيث نهاهم عن الاصطياد فيه فاصطادوا فمسخهم قردة وخنازير. صفوة التفاسير.

أما بالنسبة لتحديد أماكن الأسواق الغرباوية، فهي كما جاءت مرسومة على الخريطة في الجزء الثاني من بحث جان لوكوز، ص 842. وهكذا ومن خلال معرفة أماكن هذه الأسواق الغرباوية، ومن خلال ما قال عنها – كما سنرى – جان لوكوز، بإمكاننا فهم ومعرفة أهم الأهداف التي شغلت اهتمام السياسة الاستعمارية بالأسواق وبتنظيمها ومراقبتها.. في منطقة الغرب.

(أنظر الخريطة السابقة في هذا البحث).

وإذن ما هي هذه الأسواق وما هي مكانتها!؟!؟ وما هي منتوجاتها..!؟!

نجد في بحث جان لوكوز المذكور، ص 843 – ترجمة : ذ. ابراهيم لخلال

"دار الكداري : سوق قروي

تمثل المرتبة الأولى التي يحتلها دار الكداري بين جميع أسواق الغرب قيمة رمزية، بسبب موقعها المركزي بعيدا عن المحاور الطرقية الكبرى، وبسبب ضعف التأثير الأوروبي على محيطها المباشر، وكذلك بسبب الإهمال شبه التام الذي تركت فيه السلطات العمومية (...) حيث لم تشمل أشغال الصيانة هذا المركز القروي إلا بشكل طفيف. ورغم التحولات العميقة الناتجة عن الحماية، بقيت دار الكداري العاصمة الحقيقية ل"بني احسن"

فموقعه على أطراف القبيلة (والجماعة القروية) يساهم في هذا الإشعاع. ولا يمتد نفوذه على المخاطرة (باستثناء المناطق المجاورة لمشرع بلقصيري وسوق سبت الحوافات) فحسب، بل أيضا على عمور السلفية

الشمالية إلى أبواب المكرن وسيدي يحيى وعلى السفافعة الذين لم تكن لهم سوق قبل سنة 1959. وقد ساهم النفوذ الذي ظلت تمارسه عائلة الكداري على المنطقة إلى عهد الاستقلال في دعم الجاذبية التي يحظى بها هذا السوق.

ويمتاز توزيع الأنشطة التي يعرفها بطابعه المتوازن. فيمكن أن تقدر مبالغ المعاملات الخاصة الماشية والحبوب والتموين الخارجي ب 500 و400 و 300 مليون على التوالي. وفيما يخص الماشية تجدر الإشارة إلى الدور المنظم الذي تلعبه دار الكداري بتواجدها بين قطاعين لتربية الماشية : "المرجة" شمالا و"الرمل" جنوبا إلا أن تجفيف "المرجات" وإسكانها أو تجزيئها واتساع أو تقدم الزراعة سيؤدي إلى النقص عند مختار.

وإذا كانت الموارد المحلية بالنسبة للحبوب تمثل النصيب الأوفر بما يناهز 5/4 من المجموع، فإن الموارد المجلوبة من خارج المنطقة خلال الفترة ما بين حصادين لا يستهان بها (000 15 قنطار). تلبي هذه الموارد حاجيات عدد من الزيناء الذين لا يستطيعون تموين أنفسهم: وهم جموع العمال الفلاحين الذين يشتغلون بضيعات المعمرين الواقعة عند منعطف سبو وجموع صغار الفلاحين الدواوير الذين يستغلون أراضي "الجموع"

ونجد في ص 845 من نفس المرجع لجان لوكوز السابق الذكر، عن سوق الثلاثاء ما يلي، لنفس المترجم : "ويختلف توزيع أنشطة سوق الثلاثاء اختلافا بينا (؟؟) فيتوا جده بـ dhess = الدهس، يعتبر هذا السوق سوقا للحبوب أكثر من سوق للماشية. إلا أن تموضعه وسط منطقة استعمارية تموينية بالنسبة للفلاحين والعمال الفلاحين لضفتي سبو وسهل "سفراجة".

ويمجموع مبيعات أقل من (200 مليون فرنك تقريبا) يلعب سوق سبت الحوافات والخنيشات أدوارا مماثلة، عند مدخل انعطاف سبو وعلى طريق سيدي قاسم – سوق الأربعاء بالنسبة للأول، وعند مصب ورغة بالسهل باعتراض المحور حدكورت – سيدي سليمان أو حد كورت – سيدي قاسم بالنسبة للثاني."

ونجد في ص 846 حول سوق خميس سيدي قاسم حروش، في نفس المرجع "إن قرب سوق خميس سيدي قاسم حروش من مشرع بلقصيري (عشر كيلومترات) ومن "حد كورت" (عشرون كيلومترا) يحد من عدد الأشخاص الذين يرتادون هذا السوق، والذي لا يتعدى بعض مئات (من الأشخاص). ومن مجموع مبيعات يناهز 20 مليون فرنك، تمثل 10 منتوجات تجلب من المدينة. ويتجلى ما يزود به الفلاحون السوق خصوصا في الحبوب (2000 قنطار) أكثر منه في الماشية (500 رأس غنم وبضع عشرات رؤوس بقر).

وتفوق المنتوجات المحلية لسوق جمعة المكرن ذلك بكثير، بقيمة إجمالية تناهز 20 مليون فرنك، إلا أن هذا المبلغ لا يمثل سوى ربع قيمة المبيعات الإجمالية. وبالإضافة إلى ذلك، فإن مبيعات رؤوس البقر جد محددة. ونتجت هذه الوضعية عن قرب سوق البقر لـ "أولاد جلول" وسوق القنيطرة على الخصوص. ويبقى سوق المكرن سوقا مرتبطا بهذا الأخير، وهو ما يتضح من خلال الجدول الآتي الذي يقدم بعض التفاصيل عن أصل بعض "السواقة".

ويضيف قائلا عن سوق الاثنين بمشرع بلقصيري في ص 847 :

"يعاني سوق اثنين مشرع بلقصيري من موقع هذه المدينة البعيد عن مركز

الدائرة التابعة لإدارته : فهو يوجد على حدود "مختار" الذين كان سوق دار الكداري يشكل – تقليديا – أكبر سوق بالنسبة لهم، وعلى حدود "بني مالك" غربا والذين يجذبهم سوق الأربعاء الذي لا يبعد عنهم إلا بخمس عشر كيلومترا. وهكذا فإن إشعاعه لا يتعدى ما يقارب اثنتي عشر كيلومترا. ويرتاده بالإضافة إلى فلاحي المنطقة عمال الضيعات الأوروبية وورشات المدينة، كما يرتاده الأوروبيون أنفسهم.

وتشكل المنتوجات التي يتم جلبها من المدن الكبرى (القنيطرة، سلا، فاس، طنجة، الدار البيضاء إلخ) ما قيمته 000 000 75 فرنكا من مجموع مبيعات يصل إلى 000 000 180 فرنكا. وهي كالتالي :(...)".
ونجد كذلك في ص 836 عن سوق الأربعاء الغرب : "سوق نموذجي للغرب : سوق الأربعاء.

لنحلل بتفصيل سوق أربعاء الغرب الذي يحتل المرتبة الثانية من حيث مجموع مبيعاته والذي قد يكون أكثر أسواق هذه المنطقة تعبيرا : فهو سوق إقليمي يمتد نفوذه إلى الربع الشمالي – غربي للبلاد وهو سوق مجاور للرمل والتيرس أي أنه موجود بين أراضي زراعية وأراض رعوية وكذا بين السهل والتلال المتاخمة للريف، وهو كذلك سوق للمعاملات التجارية الكبيرة – فهو في نفس الوقت سوق للحبوب والماشية وسوق تموينية بالنسبة لسكان شمال – غرب منطقة "الغرب" وحتى بالنسبة لسكان الوسط الـ 000 15 ، كما هو سوق رئيسية ترتبط بها الأسواق الذيلية لاثنين مشرع بلقصيري وعين فلفل وسرافحة وسوق الثلاثاء لجماعة لالة ميمونة وكذا سوق السبت الحوافات وحد جبل كورت."

وفي الخلاصة لهذه النصوص المستنبطة من بحث جان لوكوز الجزء الثاني – كما قلنا – سنستشهد بهذه الأقوال التي يمكن أن نستخلص منها هي الأخرى كثيرا من الأشياء والقضايا، حيث نجد في ص 837: (نفس المرجع ونفس المترجم) "تجارة المنتوجات الفلاحية ذات الأصل المحلي أساسا.

تمثل تجارة الماشية (البهائم) لوحدها ما يناهز خمسي (5/2) مجموع المبيعات الإجمالي ب 450 مليون فرنك. وتهم 360 مليونا من هذا المجموع، أي ما يفوق ثلاثة أرباع، تجارة رؤوس البقر. ويعتبر سوق هذه الأخيرة منتظما مقارنة بسوق الغنم، مع بعض التذبذبات. وتقام أكبر الأسواق في بداية السنة، من فبراير إلى ماي بجلب ما بين 400 و500 رأس (تباع ثلثاها)، من بينها بقرات حلوب يضطر الفلاح لبيعها لدفع ضريبة "الترتيب" أو لتسديد ديون مختلفة. ومن ماي إلى غشت – وهي فترة الأسواق الصغرى – يتم أسبوعيا جلب ما بين 200 إلى 300 رأس فقط. وتبدأ الأمور في التحسن خلال شهر سبتمبر باقتناء حيوانات الجر لاستعمالها في الحرث، ومن أكتوبر إلى دجنبر يتم أسبوعيا جلب ما بين 300 إلى 400 رأس. وهكذا يصل الإجمالي السنوي للمعاملات ما يناهز 000 12 بهيمة.

وتمثل البهائم التي يتم جلبها من المناطق المجاورة (قبائل سفيان وبني مالك) ثلثي هذا العدد، في حين يأتي الثلث المتبقى من خارج المنطقة (مختار)، شراردة، زمور، وأحيانا من مناطق أبعد. وتفسر طبيعة السوق ونوعية البهائم هذه التنقلات البعيدة. ويقوم بشراء نصف المبيعات أفراد ينتمون إلى المنطقة من فلاحين وجزاري سوق الأربعاء، (نحو عشرة جزارين) أما النصف الثاني فيتم اقتناؤه من طرف تجار أو جزارين من

خارج المنطقة. ويتم ذبح ألف رأس بالسوق سنويا. ويصنف المشترون غير الفلاحين حسب أصلهم كالتالي :

سوق الاربعاء.........10	مشرع بلقصيري........6	الرباط – سلا...........7
سفيان................5	سيدي قاسم............3	الدار البيضاء..........3.
بني مالك.............4	القنيطرة..............10	العرائش، القصر الكبير...7
		طنجة..................6

من خلال هذه الأقوال "المترجمة" حول الأماكن وأنشطة وحركية... الأسواق الغرباوية.. يمكننا استخلاص مجموعة من الحقائق التي كانت من ورائها السياسة الاستعمارية المهتمة بإعادة النظر في تنظيم الأسواق ومراقبتها وهي كالتالي :

- الاستفادة من إنتاجات ومنتوجات هذه المنطقة الغنية بأراضيها الفلاحية وبأهمية ماشيتها وباليد العاملة الرخيصة لسكانها.
- التعريف بالإنتاج أو المنتوج.. الغربي، أي باقتصاده وتجارته وصناعته وتراثه.. ليحل محل ما هو وطني ومحلي. وهو ما بدا واضحا من خلال السياسة الاستعمارية الفعلية..
- فرض الضرائب على المواطنين وعلى الفلاحين والتجار والعمال على الخصوص للمحافظة على وضعهم المتردي.. ولمنعهم من تحسين وضعياتهم الاجتماعية والمادية..الخ.
- فرض ضرائب مالية وتجارية وقضايا اقتصادية.. على ضوء ما سيتجيب للسياسة الاستعمارية ولأهدافها بالدرجة الأولى.
- بناء بعض المصالح والمؤسسات.. ذات الطابع الاستعماري المحض.. وذلك من أجل تحقيق الأهداف الاستعمارية التي كان يخطط لها خبراء متخصصون..

- تبديل الأمناء المغاربة بحيسوبي الجماعات المستعمرين.

- الهدف على إيجاد حلول اجتماعية واقتصادية ومالية وتجارية.. للمستعمرين ولأسواقهم وتجارتهم..الخ. مع خلق مشاكل مستعصية ومعقدة.. متعددة ومتنوعة للوطن وللمواطنين وللمنتوجات والإنتاجات والأسواق.. الوطنية.

وهكذا، وإذا كانت الكتابات الاستعمارية بالرغم ما فيها من بعض الجوانب الإيجابية.. تعمل على تقريبنا – في غياب وثائق محلية ووطنية متعلقة بمدينة مشرع ابن القصيري وضواحيها – من السياسة الاستعمارية.. وما حققته من نتائج في عهد الاستعمار قابلة للتحليل والقراءة والمناقشة والنقد..الخ. فإن الكتابات والأبحاث والدراسات.. الحديثة والمعاصرة والمستقبلية – في رأينا- لا يمكنها أن تحقق أهدافها العلمية..الخ. بغض النظر عن هذه الكتابات الاستعمارية التي تعتبر إحدى الوثائق الشاهدة على المرحلة الاستعمارية.. لكن بتبني الوعي المعمق والعميق والأهداف العامة والخاصة، التي كانت من ورائها السياسة الاستعمارية.. حتى تكون الرؤية واضحة.. لاستخلاص أهم النتائج والتجارب التي حققها كل من النظام القديم للأسواق الغرباوية والنظام الاستعماري الجديد.. مع إبراز وتوضيح ومناقشة ونقد.. أهداف ومكتسبات ونتائج كل نظام من هذين النظامين على جميع المستويات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والتجارية والفكرية والثقافية..الخ.

وهكذا نصبح – أثناء البحث والدراسة.. كما قلنا – في حاجة ماسة إلى الوثائق والتوثيق وذلك لمواكبة التحولات والتطورات والتغيرات التي طرأت على الأسواق الغرباوية وما آلت إليه في عصرنا المعاصر.

وبالتالي هل استطاعت أن تتجاوز وتبلور وتطور وتجدد.. بدورها ما جاءت به السياسة الاستعمارية.. أم أن واقع الأسواق الغرباوية ظل على ما هو عليه، أو ازدادت وضعيته تأزما..!؟!.. ومن هنا فنحن في حاجة بدورنا إلى إعادة تنظيم أسواقنا وتجديدها ومراقبتها.. بالطرق التي تلائم واقعنا وحضارتنا الإنسانية.. حتى نستطيع مواكبة الركب الحضاري والثقافي والاقتصادي.. المتطور والمتجدد.. باستمرار..!؟!

وإذا كان واقع الأسواق الغرباوية هو الآخر، لا يخلو من مشاكل متنوعة ومتعددة ومتشعبة.. ناتجة عن مشاكل المجتمع وعن أزمته وأزمة الإنسان المغربي.. فما هي نوعية هذه المشاكل!؟! وما هي خصوصيتها ..!؟! وما هي الوسائل الممكنة.. للالتحاق بالركب الحضاري المتجدد باستمرار..!؟!

لقد أصبح المجتمع الغرباوي الذي لامسناه عن قرب، في حاجة ماسة إلى دراسات وأبحاث وقراءات.. جادة وهادفة.. تهدف إلى إعادة تنظيم الحياة.. بطرق واعية وعلمية تستجيب لأمر الواقع الإنساني الموضوعي المعاش والمتحرك.. لا في مجال الأسواق الذي نحن بصدده، فقط، وإنما في كل المجالات التي نالت كثير منها اهتمامنا في الدراسات السابقة المتواضعة. وهذا لا يمكن أن يحقق الأهداف المتوخاة تحقيقها إلا في ظل تعاون وتضامن.. على جميع المستويات النظرية والتطبيقية العملية.

وفي هذا الصدد يمكن الارتكاز إلى الواقع الموضوعي والانطلاق منه، في الأبحاث والدراسات والقراءات..الخ. وذلك للإحاطة بأهم الجوانب التي ترتبط بواقع الأسواق الغرباوية ولمعرفتها وفهمها

والنظر إليها بنظرة علمية وموضوعية.. تعلاج القضايا الإنسانية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والمالية والتجارية والفكرية والثقافية.

وهكذا ولو تأملنا واقع مجموعة من الأسواق الغرباوية (الآن) لوجدنا نسبة كبيرة منها تتخبط في مجموعة من المشاكل ولم تستطع أن تتجاوز الواقع الذي كانت عليه إلا في بعض الأشياء القليلة جدا، ولربما ازدادت مشاكلها أكثر من ذي قبل.. لأجل ذلك، فإن هدف الرؤية العقلية وتطوير الوعي وتغييره. إلى ما هو إيجابي وناضج.. وذلك للقدرة على النفاذ إلى الواقع الموضوعي المعيش على جميع المستويات : المعرفية والحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والتجارية..الخ.

إن تنوع الأبحاث والدراسات العلمية، في رأينا، هي إحدى الطرق التي بإمكانها أن تجعل من واقع الأسواق الغرباوية، واقعا قابلا للتطور والتغير والتجديد.. واقعا يستجيب للأهداف العامة والأهداف الخاصة.. واقعا يستجيب في نهاية الأمر إلى المصلحة العامة، مصلحة الوطن بأكمله.

الأسواق الغرباوية الراهنة في مشرع ابن القصيري وضواحيه.

إن الحديث عن الأسواق البدوية الغرباوية في مشرع ابن القصيري وضواحيه على الخصوص، الآن، ينبغي أن ينطلق من فهم هذا الواقع الموضوعي وفهم التحولات التي طرأت عليه.. حتى نتمكن من استيعاب ومعالجة.. مشاكله قدر الإمكان؛ وذلك من خلال القيام بمقارنة بين المرحلة التقليدية والمرحلة الاستعمارية والمرحلة الحالية.. في إطار تصور شمولي نسبي.

وهكذا وإن كان واقع الأسواق له جذوره التاريخية والاقتصادية والتجارية والتراثية والدينية.. في ثقافتنا العربية الإسلامية.. فإن الحديث في عصرنا هذا لا يقلل بدوره من أهمية هذه العوامل ومن غيرها. وما نهدف إليه، كذلك في هذه الدراسة المتواضعة للأسواق البدوية الغرباوية هو العمل على توثيق هذه الظاهرة – كما قلنا – التي لا تخلو بدورها من أهمية من جهة، ومن جهة أخرى محاولة تقريبها إلى كل المهتمين بمدى أهميتها على جميع المستويات.

وبهذا الحديث في اعتقادنا، يمكننا التقرب إلى وظيفة الأسواق البدوية الغرباوية وإلى أهدافها المتنوعة وإلى معرفة : هل استطاعت أن تتطور وتتجدد.. أم أنها بقيت – في الغالب – على ما كانت عليه في المرحلة الاستعمارية على الخصوص.. وبذلك تكون في حاجة ماسة إلى توجيهات وانتقادات.. وإلى تغيرات وتحولات وتجديدات..الخ. بفضل الوعي المنفتح والمتفتح على ما طرأ على الأسواق العالمية من تحولات.. مهمة وأساسية.

وهكذا تصبح الأسواق البدوية الغرباوية بدورها قادرة على مواكبة التحولات والتطورات على عدة مستويات وفي عدة مجالات. فهل استطاعت هذه الأسواق الغرباوية أن تستوعب هذا المنطق وبالتالي أن تعمل به.. حتى تتمكن من تحقيق أهدافها الخاصة والعامة..!؟!

إن الواقع الموضوعي.. القديم/الحديث للأسواق البدوية الغرباوية على أهميته بقي يعاني بشكل أو بآخر، من عدم مواكبة التحولات والتطورات.. التي طرأت على الأسواق العالمية المتقدمة، وذلك بغياب وعي علمي.. بذلك. فوجود مشاكل قديمة وأخرى جديدة.. من بين العوامل الحقيقية التي أدت إلى هذه الإشكالية في واقع الأسواق البدوية الغرباوية.

وهكذا فإن الحديث عن فضاء السوق/الأسواق البدوية الغرباوية ليس بالسهل، بحيث قد حافظ على عدة أشياء من القديم وأخرى من الاستعمار كما أخذ أشياء أخرى من فضاء السوق الجديد/الحديث.. ولكنه مع ذلك ظل يعاني نتيجة معاناة المجتمع البدوي الغرباوي، الذي لا يخلو من مشاكل متنوعة ومتشعبة.

وإذن، لقد لعب السوق في حياة المجتمعات على العموم والمجتمع البدوي الغرباوي على الخصوص، في كل الأوقات أدوارا ووظائف مختلفة ومتنوعة على جميع المستويات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والتجارية والفكرية والثقافية – كما قلنا أكثر من مرة – فكان يقوم بعملية التواصل بمفهومها العام. والواقع أنه قد عرف تطورات وتحولات.. لا يمكن نكرانها، ولا سيما تلك التي عرفتها الحياة الإنسانية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية والعلمية..الخ. ومنذ تلك الفترة عرف السوق الغرباوي، هو الآخر، حقبة جديدة بلور فيها تنظيمه وأنشطته المتنوعة،

ولكنه مع ذلك، ظل تابعا وخاضعا للعوامل والشروط.. الخارجية، أكثر من الداخلية. ومن هنا أخذ السوق الغرباوي يكتسي أهميته ووظيفته.. من الآخر، حيث أصبح خاضعا للسياسة المتحكمة فيه، أي لسيطرة التجار الكبار ذوي النفوذ سواء كانوا من المستعمرين، كما كان الأمر في عهد الاستعمار، أو ومن المواطنين الغير غرباويين أو الغرباويين، كما هو الحال منذ عهد الاستقلال إلى الآن.

وانطلاقا مما سبق ذكره، فإن الحديث عن أهمية الأسواق في منطقة الغرب، ينبغي أن تتخذ ثنائية النظرة : القديمة والحديثة للسوق – نسبيا- . في إطار اهتمام مزدوج لدى المفكرين والباحثين والدارسين المهتمين.. إذا ما أردنا دراسة تاريخ وتوثيق الأسواق الغرباوية والتي هي في حاجة ماسة إلى ذلك. ولا سبيل لنا إلا التمكن من معرفة هذه الثنائية إذا أردنا تحقيق تلك الأهداف وغيرها.

إن الوقوف عند هذه العوامل وغيرها، وكذلك عند الواقع الموضوعي للأسواق الغرباوية وعند بعض الخصائص والميزات التي تتميز بها، يسهل علينا معرفة مجموعة من الأشياء ويجعلنا على وعي بما يجري في فضاء هذه الأسواق. وهذا يدفعنا كذلك إلى البحث عن صيغة جديدة في مجال البحث والدراسة.. لواقع هذه الأسواق الغرباوية وعلى الخصوص الأسواق المكشوفة.. في مشرع ابن القصيري وضواحيه – كما قلنا أكثر من مرة – .

فبالرغم من بعض التحولات والتطورات التي عرفتها الأسواق البدوية الغرباوية المكشوفة هنا في مشرع ابن القصيري وضواحيه، فإنها لا زالت تحافظ على الخصوصيات القديمة العربية الإسلامية وكذلك

الوطنية من غير نسيان بعض الخصوصيات التي تركها الاستعمار أو التي أفرزها عصرنا المعاصر. هكذا يبدو لنا واقع الأسواق البدوية الغرباوية المكشوفة في صورته القديمة/الحديثة.. وكذلك في تجربته الاستعمارية والوطنية والمحلية.

إن مفهوم السوق هنا في مشرع ابن القصيري وضواحيه هو فضاء جديد.. يتمسك – كما قلنا – ببعض خصوصيات الأصالة العربية الإسلامية كهوية حضارية وثقافية وتاريخية..الخ. وبعض خصوصيات المعاصرة كواقع موضوعي حضاري وثقافي وتاريخي متطور..الخ. وهكذا نجد هذه الأسواق تتسم في عمقها ببعض الصفات والمميزات والخصائص الإنسانية والاجتماعية والثقافية والفكرية والعلائقية والسلوكية.. حيث إن سكان منطقة الغرب وبمقتضى الفضاء الواسع الذي يعيشون فيه، فإنهم يتكلمون ولو عن قرب بصوت مرتفع للتواصل فيما بينهم. وهذا ناتج في اعتقادنا عن الفضاء الواسع لواقع البادية وإلى واقع فضاء السوق كذلك، الذي يصعب فيه التواصل بواسطة الكلام المنخفض...!

كما أن يوم السوق، هنا، يسمو بالطبيعة الإنسانية ويعطيها أهمية خاصة ومتميزة، باعتباره اليوم الذي يؤكد فرحة واحتفال كل أفراد الأسرة كبارا وصغارا، فالآباء الذين يذهبون – تقريبا – كل نهاية الأسبوع إلى السوق يغتسلون ويلبسون أجمل ما عندهم من ملابس ويعقدون اللقاءات والمواعيد ويتعرفون على مجموعة من الأشياء.. في السوق. أما الأطفال فتكون فرحتهم عارمة بيوم السوق، لأنه اليوم الذي يشتري فيه الآباء لأبنائهم : الفواكه والخضر واللحم وكذلك الملابس والأحذية.. كما يمنح فيه الآباء بعض المال لأبنائهم، لأنهم يتقاضون فيه كذلك

وبدورهم أجور أعمالهم من طرف أرباب العمل. وهنا تكمن أهمية وظيفة السوق في الواقع البدوي الغرباوي والتي تكشف لنا آن للسوق عدة أبعاد وأهداف ووظائف.. فهو مجال للدعاية الاقتصادية والتجارية والثقافية والسياسية..الخ. كما يشمل عدة مظاهر وظواهر اجتماعية وإنسانية وثقافية..الخ. ففيه كنا نجد مسرح الحلقة والمحدثين والسحرة والشوافات والفرق الموسيقية الشعبية (فرق اعبيدات الرما..) التي تغني أغاني شعبية وطنية ومحلية. كما نجد مكبرات الأصوات التي تقدم بدورها أغاني شعبية وطنية وعربية.. مستغلة في نفس الوقت في دعايتها للبضائع التي يبيعها أصحاب هذه المكبرات، بعض أسماء أبطال المسلسلات العربية والعالمية والمغربية.. التي نالت اهتمام الناس وانشغالهم، من خلال الوسائل السمعية – البصرية مثل (الراديو، التلفاز..الخ) ذلك أن التلفاز مثلا يعمل على إرسال أنواع مختلفة ومتنوعة من البرامج والمعلومات والأفلام والمسلسلات والمسرحيات.. الوطنية والدولية. وهكذا يصبح إحدى القنوات التي تحقق مجموعة من الأهداف والمصالح.. وهكذا، كذلك، يصبح السوق مجالا واسعا لترويج كثير من الأشياء وفي مقدمتها البضائع التجارية. وهذا التطور أدى بالأسواق الغرباوية هنا في مشرع ابن القصيري وضواحيه.. إلى الخروج من النطاق الضيق لتصبح مجالا واسعا لتحقيق أهداف إنسانية عالمية بجانب الأهداف المحلية والوطنية، ونتج عن ذلك تنافس – وإن لم يكن متكافئا – بين البضائع المحلية والوطنية والعالمية.. أدى بدوره إلى غلبة الأقوى في الإنتاج والجودة..الخ.

ومن جهة أخرى، فإن اتساع فضاء أسواق مشرع ابن القصيري وضواحيه تتجلى في شكلها الطبيعي والعفوي.. فليست هناك مباني

مغطاة، باستثناء البعض منها -كما قلنا - ، كما أنها توجد بعيدة عن الكثافة السكانية، ببعض الكيلومترات، وذلك لتفادي بعض الأحداث، ولكن وعلى الرغم من ذلك، فوجودها على الطرق الرئيسية الكبيرة، كما هو الأمر بالنسبة لسوق مشرع ابن القصيري ودار الكداري وسوق الثلاثاء الغرب..الخ. يعرضها إلى مجموعة من الحوادث المتنوعة في كثير من الأحيان. كما أنها تعاني من التجهيزات على جميع المستويات بالرغم من المداخل الهامة والأهداف والوظائف الأساسية التي تقوم بها على جميع المستويات : الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والتجارية..الخ. وفي هذا الصدد تظهر السمسرة والوساطة بشكل فظيع.. حيث تعمل كل واحدة منهما على ترسيخ سلوك النهب والغش والاحتكار والاستفادة والربح في أسرع وقت وبأقل جهد. فعلى سبيل المثال لا الحصر، في السوق الواحد، يمكن لشيء من الأشياء أو بضاعة من البضائع أن تباع عدة مرات وبأثمنة مختلفة.. يترتب ذلك عن تقلبات السوق وعن السياسة المتحكمة فيه، اقتصاديا وتجاريا وماليا وبضائعيا..الخ.

وفي المجال السياسي والاجتماعي والضرائبي.. كانت السلطة في عهد الاستعمار، وكذلك في بداية عهد الاستقلال وحتى هذه السنين الأخيرة.. هي التي تتحكم في الحفاظ على السير العادي للأسواق وذلك بمراقبتها وفرضها للضرائب على البضائع.. ولكن هذه السياسة ونظرا لعدم قيامها على دعائم ديمقراطية لم تخل هي الأخرى من سياسة الاحتكار والغش والسرقة من طرف المسؤولين عن السوق.. مما أدى في النهاية إلى أن تدخل الأسواق الغرباوية عالم الكراء والسمسرة والخوصصة. وهكذا تقلصت حالة الاحتكار من طرف الدولة، ولكنها

ازدادت أكثر فأكثر من طرف أصحاب رؤوس الأموال.. وقد أدى هذا الوضع الجديد للتحكم في الأسواق إلى رفع الضرائب، مما ترتب عنه حتما ارتفاع الأسعار، فكان الضحية الأولى والأخيرة، هو المستهلك بالرغم من أن البضائع التي تدخل الأسواق الغرباوية البدوية.. تنقصها الجودة بالمقارنة إلى ما يصدر إلى المدن أو إلى الخارج، وتكون أثمانها مرتفعة – في الغالب – إذا ما قورنت بأثمان المدن. وهذا إن دل على شيء، فإنما يدل على مدى صعوبة وتعقد الحياة في البادية أكثر من المدينة. فعلى سبيل المثال، إن مشرع ابن القصيري وضواحيه التي تشتهر بضيعات البرتقال والتفاح والبنان/الموز..الخ. فإن هذه المنطقة لا تستفيد أولا، من الانتاج الجيد والمتنوع لهذه الضيعات، لأنه يصدر.. وثانيا، فإن ما يباع من هذه المنتوجات وغيرها يكون أقل جودة وأغلى ثمنا بالمقارنة إلى ما يصدر وبأثمنة المدن...!

والملاحظ، أن وضعية الأسواق البدوية الغرباوية المكشوفة والمتأزمة هنا، قد ترتبت عنها حالة غلاء تكاليف العيش.. لم تعد تزود الإنسان الغرباوي المهمش والمحتاج، هنا، بما يحتاج إليه من وسائل العيش سواء كان عاطلا أو موظفا متوسطا. فالاستهلاك العادي أو الجيد – بلغة علماء الاقتصاد – يحتاج إلى وسائل متنوعة لتوفيره. أما في حالة عدم التوفر يغيب الشراء وبالتالي الاستهلاك والرواج الاقتصادي والتجاري.. فتتعقد وسائل العيش وتصبح الحياة لا تطاق إلا بالنسبة للمحظوظين في هذا الواقع الموضوعي المعيش.

وفي إطار هذا الواقع المهزوز للأسواق البدوية الغرباوية.. برزت ظاهرة خطيرة، أكثر من السابق، نتيجة مخلفات هذا الواقع المتردي

والمتأزم.. إنها ظاهرة اللصوصية المتكونة من فرد أو من عدة أفراد في شكل عصابة تتحدى القانون وحقوق الإنسان. هكذا يتحول السوق من مجال الأمن والأمان والبيع والشراء بحرية وبثقة.. إلى مجال للرعب والعنف والخوف والضغوط والتوترات النفسية. وتكثر ظاهرة اللصوصية في الأسواق البدوية الغرباوية المحلية بالخصوص في أيام المواسيم والأعياد، حيث يتوسع مجال النشاطات الاجتماعية والتجارية.. ويبدو بوضوح منطق البيع والشراء من خلال رؤوس الأموال والسلع والخدمات..الخ. مما يشجع اللصوص على نهب المواطنين وإن أدى الأمر إلى سلوك العنف ضربا أو قتلا...!

ومن الملاحظ كذلك، فإن ما تشتهر به الأسواق البدوية الغرباوية المكشوفة، ظاهرة نشر الأخبار والإعلانات ومواعيد مواسيم الأولياء الموجودين في المنطقة، لأنها هي الأخرى تشكل فضاء واسعا للبيع والشراء، كما هو الأمر بالنسبة للأسواق، لأن الاحتفال بمواسيم الأولياء يعرف إقبالا شعبيا محليا ووطنيا.. كبيرا، وهذا ما يعطي أهمية قصوى لهذا الاحتفال بمواسيم الأولياء. وعادة ما يقوم بهذه الأخبار عن مواعيد المواسيم ناع وهو ما يعرف باللغة الدارجة المحلية بـ"الْبَرَّاحْ". ذلك لأن فضاء الأسواق – كما قلنا – تكثر فيه اللقاءات بين الناس.. فيصبح قناة سهلة وأساسية لنشر الأخبار والإعلانات.. للموجودين في السوق أو الغير موجودين.

إن مفهوم السوق – كما رأينا – ليس بالمفهوم السهل للإحاطة ومعرفة كل مايجري في عمقه، بحيث تختلف الأسواق من عصر إلى عصر ومن حضارة إلى حضارة ومن ثقافة إلى ثقافة ومن مجال إلى آخر.

لذلك، نرى أن الاهتمام بالواقع الموضوعي المعيش والمتحرك.. للسوق هو الذي يمكن أن يساعدنا أكثر فأكثر في عمليات البحث والدراسة والقراءة.. بالإضافة إلى عوامل ومصادر أخرى، مثل الوثائق والتأريخ والناس الذين عايشوا هذا الواقع أو ذاك، على اعتبار أن النظر إلى الواقع الموضوعي المتحرك.. للسوق أو غيره، لا يمكن أن يكون من بعد واحد فقط، بل هناك أبعاد وجوانب وعوامل.. أخرى توجد بجانب واقع السوق كفضاء واسع. هذه النظرة الشاملة تحقق معرفة أشمل وأكمل – نسبيا – لفضاء السوق الواسع.. وإذن كيف تحقق هذه النظرة، في واقع الأسواق البدوية الغرباوية هنا!؟!

بالرغم من وجود بعض الأسواق المغطاة الدائمة في المدن الغرباوية مثل مدينة مشرع ابن القصيري وسيدي سليمان وسوق الأربعاء والقنيطرة..الخ. فإن أغلبية الأسواق المشهورة والتي تحتوي تجمعات بشرية كثيرة ومتنوعة.. تتشكل من الأسواق الأسبوعية المكشوفة، من غير نسيان الأسواق الشبه دائمة داخل المدن.. في الأحياء الشعبية والتي تكون في أماكن عمومية على شكل خيام بسيطة مصنوعة من أكياس البلاستيك أو من القصدير.. وأخرى مغطاة/في الهواء الطلق. ولكن الشيء الذي يثير الاندهاش والتساؤل، هو أنه حتى هذه الأسواق الداخلية/داخل المدن الغرباوية.. تستفيد من الأسواق الأسبوعية وذلك بشراء كثير من البضائع من الأسواق البدوية المكشوفة بأثمنة رخيصة بالمقارنة مع الأثمان التي تفرضها على زبنائها في الأسواق الداخلية/المغطاة وما تشتهر به أسواق الغرب في الغالب : المواد الغذائية وفي مقدمتها الخضر والفواكه

والدجاج..الخ. وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن الإنسان الغرباوي – في الغالب – يهتم ببطنه أكثر من أي شيء آخر.

ومن جهة أخرى تمتاز الأسواق الأسبوعية البدوية الغرباوية بالبيع والشراء مثل : الغنم والبقر والخيول والحمير.. وكذلك ببعض السلع ذات الانتاج المحلي مثل : الحبوب والصوف والأعواد.. والخضر والدجاج والبيض..الخ.

وسواء تعلق الأمر بالنسبة للأسواق الغرباوية المكشوفة أو الأسواق الغرباوية المغطاة.. تلعب الوساطة أو السمسرة دورا أساسيا وخطيرا في واقع هذه الأسواق على جميع المستويات. وهكذا تصبح سياسة الصفقات والمضاربات وتحديد الأثمنة – مسبقا – هي التي تتحكم في سير الأسواق الغرباوية، أكثر من العرض والطلب، وكذلك أكثر من قيمة البضائع ونوعية السلع.. حيث أن الأغلبية من سكان منطقة الغرب لا زالوا يقبلون على السلع المنخفضة الثمن – نسبيا – أكثر من الإقبال على السلع ذات الجودة والغالية الثمن.

أما إذا تحدثنا عن العلاقات القائمة بين التجار والحرفيين .. فإننا نجدها في الغالب لا ترقى إلى مستوى التعاون والتنافس الحر.. بقدر ما تتجسد في صور النزاعات ومحاولة الانتصار على الغير بكل الطرق.. وهذا يتجلى بوضوح للزبون الواعي.. حيث إذا توجه نحو تاجر معين لشراء شيء من الأشياء بدأت عيون كل البائعين في ذلك السوق والموجودين بقرب ذلك التاجر، تتجه نحو الزبون وتترصد خطواته وحركاته.. بل يمكنك أن تسمع كلمات تهجو سلعة البائع / التاجر الذي توجه الزبون نحوه. وهكذا نرى أصحاب المعروضات يحاولون بكل الطرق جلب ما أمكن من الزبناء

وذلك بمجاملتهم والإشادة ببضائعهم : "وشوفْ ها الْغَادِي وْجَايْ، مـول لْمِلِيحْ بَاعْ وَرَاحْ" و "عَنْدَاكْ يْضَحْكُوا عْلِيكْ وِيْغَشُّوكْ الغشاشة.. يا الْوَجْهْ الزِّينْ.. يَا مسكِينْ" و "وَعَنْدَاكْ مَنْ اوْلاَدْ الْحَرَامْ..رَاهُمْ مَا اخْطَاوْ ابْلاَدْ".

ومثل هذا السلوك الموجود في الأسواق الغرباوية وغيرها، ما يعمل على فقدان منطق التضامن والتماسك الإنساني والاجتماعي عند كثير من التجار والبائعين والحرفيين. وهذا الواقع يؤدي إلى حضور "السلطة" باستمرار في هذه الأسواق البدوية الغرباوية في شخص : رجال الدرك والمخازنية والشيخ والمقدم..الخ. بالإضافة إلى وجود "أمين" لكل حرفة ولكل نوع من أنواع السلع أو البضائع التي تباع في السوق – تقريبا – وذلك للحسم في بعض المشاكل والنزاعات التي يمكن أن تقوم بين البائعين والمشترين أو بين التجار وأصحاب السلع.. كما هو معروف في كل الأسواق المغربية.

ومن جهة أخرى، تلعب العلاقات الإنسانية والروابط الدموية والنزعات القبلية والقرابة.. الخ، دورا مهما وأساسيا في عملية البيع والشراء. وهنا تتعقد الظواهر وتتشابك الحقائق وتتداخل العلاقات والتنظيمات.. ويصبح التعامل مع منطق الأسواق البدوية الغرباوية وهو التكيف مع أجوائها والخضوع لنظامها، الذي لا يخلو، في الغالب، من الفوضى والازدحام والدفع.. حيث تتعالى فيه الأصوات وتكثر فيه الحركات والإشارات. فيضيع الإنسان في غبارها الصاعد، في فصلي الخريف والصيف، ويغرق في أوحالها في فصل الشتاء. ومع هذا وذاك، يبقى السوق عند الإنسان الغرباوي شيئا "مقدسا" لا يمكن التخلي عنه وإن أدى به الأمر ألا يشتري شيئا منه.. فقط يقوم بزيارته ثم يعود إلى

منـزله لكي يحس بالنشوة والفرحة والسعادة..لأن الناس شاهدوه في السوق. وهكذا يصبح السوق يجسد أبعادا متنوعة ومتعددة.. تتلاقى فيه أصناف وأنواع من كل الشرائح الاجتماعية. حيث جاء في موضوع "السوق وعالمه" [1] السابق الذكر، ص 439، وإن كان هناك اختلاف بين "البازار" الذي يتحدث عنه الباحث (كليوفورد غيرتس) والسوق بمفهومه البدوي الغرباوي، ما يلي : "ويعمل البازار وفق أنظمة اتصال وتبادل معقدة، فهو وإن بدا للعين العابرة تجميعا لمئات من البشر يتفاوتون في شكلهم الخارجي من صاحب الأسمال إلى من يرتدي أفخر الملابس الحريرية ومن يرتدون كافة أنواع وأشكال الملابس ولهم سحن وأشكال مختلفة يزدحمون في أزقة ضيقة ويصدرون أصواتا عالية وإشارات وحركات ويتداخل فيها من يسير على قدميه ومن يركب بغلا أو عليه أي يفسح الطريق أمام حمير أو بغال أو عربات محملة ببضائع وتتكدس على جنباته أنواع غير متجانسة من السلع بحيث يظهر البازار كما لو كان المكان الأمثل للفوضى والمجسد لها. إلا أننا في خضم كل هذا بإمكاننا التعرف على نظام اتصالي ينظم عمليات التبادل فيه على المستويين الاجتماعي – الثقافي والاقتصادي".

إن فضاء السوق البدوي الغرباوي الشاسع الأطراف والذي كان في الغالب غير مسور/ بدون سور.. قد نتج عنه واقع شخصية ملائمة مع هذا الفضاء. وهكذا يصبح الاختلاط قائما بين النساء والرجال والشيوخ والأطفال والماشية ووسائل النقل.. كما يصبح ارتفاع الأصوات – كما قلنا – لغة التواصل السائدة بالإضافة إلى بعض الإشارات والحركات.. كما يترتب كذلك عن هذا الواقع – كما قلنا كذلك – علاقات الاختلاس

والسرقة والابتزاز والمطاردة والعنف من طرف عصابات منظمة ومختصة في أساليب السرقة يساعدها في ذلك، الاختلاط والاكتظاظ وارتفاع الأصوات.

ومن جهة أخرى، ونحن نتحدث – مرة أخرى – عن العلاقات القائمة بين البائعين والمشترين، لا بد من الإشارة كذلك، إلى منطق الخداع والنفاق والتمويه والتزييف.. حيث يعمل كثير من البائعين على خداع المشترين من أجل الربح السريع واللامشروع. وهكذا ففي ميدان المواد الغذائية وكذلك الفواكه والخضر.. ما تلتجئ أغلبية البائعين إلى تخليط المعروضات وذلك بجعل البعض من هذه "الجيد" من فوق لإخفاء المعروضات دون المستوى من تحت. كما يعمل سماسرة الماشية، مثلا، على تناول الأبقار والأغنام..الخ. بعض المواد لكي تنتفخ.. وتصبح سمينة/ أي جيدة في عين المشتري.

وهكذا يصبح التعامل القائم داخل فضاء السوق البدوي الغرباوي فضاء يشوبه الخداع والنفاق والابتزاز.. والربح السريع واللامشروع بكل الطرق. ومن هنا كذلك، تنتفي قيم الثقة والصدق والصراحة.. بين البائع والمشتري...!

ونجد في المصدر السابق الذكر "السوق وعالمه" ص 442، هذه الأقوال، التي لا تخلو بدورها من أهمية ودلالات ونحن نستقرئ واقع الأسواق البدوية الغرباوية : "لكن وجود هذا النظام الاتصالي الدلالي لا يعني أن من يذهبون إلى السوق على قدر واحد من المعرفة به، وإنما هم يتفاوتون في تلك المعرفة ومدى خبرتهم في التعامل مع ظروف وأجواء البازار.". ويضيف قائلا في ص 443 : "وهكذا نجد أن دراسة اقتصاديات

البازار وما يدور في عالمه، لا تكشف عن طبيعة النشاط الاقتصادي وإنما يتغلغل ويسير العوالم الثقافية والاجتماعية والساسية لبلداننا وهو أمر – كما ذكرنا – يستحق الدراسة العميقة".

خلاصة استنتاجية وتساؤلية...!؟!

لم يعد موضوع السوق في حاجة إلى الإهمال في الآونة الأخيرة.. بل لا معنى أن نتحدث عن مجتمع من المجتمعات الإنسانية من غير الحديث عن أهمية أسواقها.

وهكذا أصبح من المفروض الاهتمام بالسوق لا على مستوى البحث والدراسة فقط، بل كذلك، على مستوى بنيات التجهيز والتنظيم والتنشيط والمراقبة..الخ. فبقدر ما تتطور وتتغير الأشياء داخل السوق.. بقدر ما تتغير وتتطور عقلية الناس ومستوى حياتهم المعيشي والعلاقات القائمة بينهم..الخ.

وكل ما يتعلق بالسوق، ينبغي، في رأينا، أن ينطلق من الواقع الموضوعي المعيش.. الذي يحدد واقع الناس المعاش وعلاقاتهم الاجتماعية والاقتصادية والتجارية والفكرية..الخ. وليس غريبا أن يكون فضاء السوق في أي مجتمع من المجتمعات هو الذي يعطينا حقيقة واقع الناس على جميع المستويات. ففي السوق يكون الباحث أو الدارس.. رؤية معينة ومنهجا محددا لما يجري في الواقع الموضوعي المعيش. وهكذا فإن التعمق في فضاء السوق يمنح المهتم به القدرة على استيعاب مجموعة من الأشياء والحقائق.. المرتبطة بالسوق وبواقع الناس الذين يأتون إليه.

وإذن الهدف أو الغاية من هذه القراءة للأسواق البدوية الغرباوية المكشوفة بالأساس – في مشرع ابن القصيري وضواحيه – ليس هو إقصاء النظام القديم للسوق بصورة مطلقة، وليس الدعوة إلى إعادة نظامه إلى ما

هو عصري وتقني وتكنولوجي.. كليا وبصورة مفاجئة.. بل الغاية من ذلك هو الوعي الناضج والمعمق بأهمية وقيمة الأسواق ودورها ووظيفتها في الحياة العامة.. الغاية هي محاولة الأخذ من النظامين ما هو إيجابي ومتطابق وهادف وضروري.. لحياة الناس. فلا غرابة أن يكون منطق التجديد والتطور والتغير.. حاضرا في وعي الإنسان في كل زمان وفي كل مكان.. يهدف تحقيق المصلحة العامة. فالاهتمام بالسوق هو اهتمام بالذات، والسوق مجال فسيح وخلاق.. أكثر منه جمودا وتبعية. هذا ما نهدف إليه من قراءتنا المتواضعة لواقع الأسواق البدوية الغرباوية المكشوفة، التي تستفيد منها مجموعة من سكان منطقة الغرب على الخصوص، وسكان المغرب على العموم.

إن السوق، كما نراه، ليس فضاءا ومجالا ينال اهتمام الخاصة أو المسؤولين، دون العامة أو كافة الناس، بل هو مجال واسع الأطراف ومتعدد الأهداف والوظائف.. هو فضاء لربط العلاقات وصقل المواهب.. هو مجال للبحث والعمل المستمر.. هو الحياة الإنسانية في صورتها النسبية. ومن هنا ضرورة قيام الأبحاث والدراسات حول شروط وجوده ووسائل أنشطته وحركيته. هذا يعني الاهتمام بالسوق وبدوره في الحياة.. هو اهتمام بالإنسان وبوسائل وشروط عيشه. فشروط ضرورة العيش ووسائله بالإضافة إلى العلاقات الإنسانية والاجتماعية والحضارية والثقافية والفكرية..الخ، وجميع أنظمة الأسواق القديمة والحديثة.. كلها أشياء تدل على أن الاهتمام بالسوق أصبح ضروريا وأساسيا في حياتنا الإنسانية أكثر من ذي قبل، لأنه ظاهرة إنسانية واجتماعية وثقافية وحضارية وفكرية.. الخ. ومن هنا أهمية الاهتمام به أكثر فأكثر.

ليست هذه القراءة المتواضعة هي الأخرى محاولة للإجابة القاطعة والنهائية عن كل ما يتمخض في جوف الأسواق البدوية الغرباوية المكشوفة والموجودة في مشرع ابن القصيري وضواحيه على الخصوص.. من أسئلة وتساؤلات متداخلة ومن مشاكل متشابكة ومتشعبة.. وإنما هناك بعض الملاحظات التساؤلية والنقدية.. التي حاولت بشكل أو بآخر، أن ترتبط بالواقع الموضوعي المتحول والمتغير.. للسوق، هنا، في مشرع ابن القصيري وضواحيه. وهكذا فإن التحولات والتغيرات.. التي طرأت على واقع الأسواق الغرباوية، هنا، من واقعها القديم إلى واقعها الحالي.. تجد ما يبررها ويؤكدها على مستوى الواقع الموضوعي المعاش، حيث نتج عن ذلك صراع قائم بين نظامين مختلفين، لمجتمع مستعمر ومجتمع مستعمر.. لثقافة وطنية وثقافة أجنبية..لإنتاج محلي ووطني ولإنتاج غربي استعماري واحتكاري...الخ.

وعلى ضوء ما تقدم لهذه القراءة المتواضعة.. نستطيع أن نستنتج مجموعة من الحقائق والأشياء المرتبطة بواقع الأسواق البدوية الغرباوية المكشوفة في مشرع ابن القصيري وضواحيه.. والتي لا زالت في حاجة ماسة إلى الدراسات والأبحاث المتعمقة والمتخصصة، نظرا للأدوار التي تلعبها في الحياة العامة لهذه المنطقة وللأهداف التي تحققها بطريقة أو بأخرى. فواقعها الموضوعي العام، في الحقيقة، يزداد تعقدا وتشعبا وتأزما.. وهكذا فإن الأبحاث والدراسات العلمية الجادة والملتزمة.. تساعدنا على فهم هذا الواقع واستيعابه، وبالتالي تضعنا – على الأقل – أمام أمر الواقع للبحث عن الإجابة وعن الحلول النسبية للمشاكل المطروحة. بحيث أنه لا

يمكن الحديث عن الحلول الجذرية والهادفة.. في غياب معرفة الواقع الموضوعي المتحرك والمعاش.. وفي غياب الدراسات والأبحاث العلمية، التي تهتم بهذا الواقع الموضوعي.. إذ بدون هذه الأشياء وغيرها لا يمكن فهم مشاكل الأسواق.. كما لا يمكن الحديث عن إيجاد حلول لها.. لأن الأسواق تأخذ في الحياة العامة أبعادا متنوعة ومختلفة وواضحة الدلالات والأهداف.

ومن هنا فإن قيمة الأسواق وأهمية الاهتمام بها.. لا تكمن فقط في الأبحاث والدراسات والقراءات.. التنظيرية، بل كذلك، في العمل على إيجاد الحلول الإيجابية والواقعية والفعلية...الخ.

وعلى هذا الأساس تصبح الأسواق تؤدي مهمتها الإيجابية ووظائفها المتنوعة والمتعددة.. محققة بذلك الوعي الحضاري والثقافي والتاريخي والاقتصادي والتجاري..الخ. فتتسع مجالاتها وتزداد أدوارها أكثر، للقدرة على تحقيق أهداف المصلحة العامة أكثر من المصلحة الخاصة. حيث جاء، مثلا، في كتاب الأمة [7] ص 54 : "السوق : كما حدد صلى الله عليه وسلم موضع السوق، لعلمه أن الاستقرار لا يقوم إلا به، فهو مصدر التكسب والتجارة والحرف، روى الطبراني من طريق الحسن بن علي بن الحسن بن أبي الحسن أن رجلا جاء إلى النبي صلى الله وسلم فقال: إني نظرت موضعا للسوق أفلا تنظرون إليه؟ قال: "بلى" فقام معه حتى موضع السوق، فلما رآه أعجبه وركض برجله، وقال : "نعم سوقكم هذا، فلا ينقصن ولا يضربن عليكم خراج". كما أقر الإسلام الأسواق التي تبايع الناس بها في الجاهلية، فعن ابن عباس قال : كانت عكاظ ومجنّة وذو المجاز أسواقا في الجاهلية، فلما كان الاسلام تأثموا من

التجارة فيها، فأنزل الله تعالى: ﴿ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم﴾ — البقرة: 198).

المراجع:

1 - كتيب : مسيرة النماء في مشرع بلقصيري – المجلس البلدي لمشرع ابن القصيري – مطبعة المعارف الجديدة – الرباط

2 - ابن منظور : لسان العرب. الجزء الثالث.

3 - المعجم العربي الحديث (لاروس) المكتبة الوطنية – مكتبة لاروس 17 شارع مونيارناس – باريس – 6. (1987).

4 - محمد صلاح الدين : المغرب : قبائل، مخزن ومعمر (رسالة التاريخ الاقتصادي والاجتماعي. دار النشر لهرمتان – باريس – (وهو بالفرنسية كالتالي) :

Maroc :
Tribus, Mkhzan et colon.
Essai d'histoire économique et sociale.
Edition l'harmattan 7, rue de l'école polytechnique
75005. Paris

5 - السوق وعالمه : "هل هو المفتاح لفهم العالم الإسلامي" (كليفورد غيرتس) قراءة أبو بكر قادر

ص. 429. مجلة "الاجتهاد" العددان الرابع والثلاثون والخامس والثلاثون السنة التاسعة. شتاء وربيع العام 1417هـ - 1997م. دار الاجتهاد – بيروت – لبنان.

6 - جان لوكوز : "الغرب فلاحون ومعمرون" دراسة جغرافية جهوية. الجزء الثاني 1964. (وزارة التربية الوطنية للمركز الجامعي للبحث العلمي..المغرب. وزارة التربية الوطنية والمركز الوطني العلمي لفرنسا.

7 - كتاب الأمة – دولة قطر – الرقم : 58 ربيع الأول 1418 هـ. السنة السابعة عشرة. (تخطيط وعمارة المدن الإسلامية) خالد محمد مصطفى عزب. (الفصل الأول : عمارة المدينة المنورة في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم. ص 47).

الفصل الثاني :

تأملات في إشكالية الفلاحة الغرباوية!؟!

قراءة : تأملات في إشكالية الفلاحة الغرباوية...!

لا شك إطلاقا في أهمية الفلاحة ووظائفها وأدوارها وأبعادها وأهدافها ومكانتها.. في منطقة الغرب على الخصوص، وفي المغرب على العموم. ولكن السؤال الجوهري الذي نرى ضرورة طرحه في هذه القراءة الباحثة والهادفة.. هو كالتالي : هل تقف إشكالية الفلاحة عند ما قلناه، فقط..!؟! أم هناك أشياء أخرى قد فرضها التطور الإنساني والاجتماعي والسياسي والاقتصادي والتاريخي وكذلك، العلمي والتكنولوجي والتقني.. هذا التطور أو التحول إما سلبا أو إيجابا..!؟!

هل نقف عند الجانب التقني والتكنولوجي الآلي.. والتنوع والتعدد أو الكثرة في الإنتاج.. سواء تعلق الأمر بالأراضي المسقية أو الأراضي البورية.. فنكتفي بالوصف الإيجابي "المسيج" وبـ "النفخ" المزيف والمموه.. لما حققته الفلاحة في هذه المنطقة من تطورات وتحولات ونتائج "إيجابية" عادت بالخير العميم على سكان هذه المنطقة.. كما تفعل بعض الأبحاث والدراسات، وكما نسمع في كثير من المناسبات.. أم لا بد من الانطلاق من حقائق وخلفيات هذه التطورات والتحولات والنتائج..لإدراك حقيقة إشكالية الفلاحة الحقة. وما خلفته من سلبيات، كذلك، على الواقع الموضوعي المعيش الذي أصبح يعاني منه الإنسان الفلاح ولا سيما الفلاح الصغير والمهمش المغبون..!؟! وهل بإمكاننا الوقوف عند الخطاب السائد. الذي في الغالب، ما يعمل على تحريف وتزييف وتمويه الحقيقة الحقة والصادقة.. للواقع الفلاحي الغرباوي ..!؟! ما هي المخلفات الخطيرة التي تركها الاستعمار في منطقة الغرب، فكان لها انعكاس سلبي

وخطير.. حتى عصرنا المعاصر..!؟! وما هي إشكالية السياسة الفلاحية المنهجة والمطبقة.. على منطقة الغرب الفلاحية!؟!

يقول الأستاذ بنسالم حميش في كتابه "في الغُمَّةِ المغربية"[1] ص 50 و 51 : " وهكذا، بالرغم من تقليد سواد الفلاحين المضادة للدولة، فإنهم، كما أتى بهم التاريخ إلى المغرب الحديث، يشكلون في سياسة تنمية البلاد جرحا كبيرالاتساع، من حيث إنهم يمثلون نصف الساكنة الإجمالية تقريبا وما يزالون ذوي قابلية للتأثر بالسياسات المحافظة والعقائد الرجعية. ولعل ما زاد في طين عجزهم بلة وقائع وإجراءات من صنف :

أ – تفكك القبيلة وتوزعها المكاني اللذان أتلفا إجرائية أهم المراجع الإنسانية، كما هي في منظومة التصنيف الخلدوني.

ب – الاغتصاب الاستعماري للأراضي بتسجيلها ابتداء من 1913 واحتلال المعمرين للأراضي الجماعية (بمقتضى قانون 27 ماي 1919).

ج – تصفية نضالية الفلاحين والاستحواذ على أراضيهم، بعد الاستقلال، من طرف كبار الملاكين والبرجوازية الوطنية المدعمين من قبل الدولة.

د – الهجرة القروية نحو المدن وإلى الخارج، وتمس على الأخص قوى العالم القروي الأكثر حيوية وشبابا."

إن إشكالية الفلاحية والفلاحين.. التي شغلت تفكير المفكر والباحث.. المغربي بنسالم حميش ونالت اهتمامه في هذا الكتاب القيم.. هي إشكالية متشعبة الجوانب ومتعددة الأهداف والأبعاد.. يتداخل فيها ويتشابك ما هو تاريخي بما هو سياسي.. وما هو استعماري

واقتصادي.. بما هو استغلالي وتسلطي.. وما هو إنساني بما هو لاإنساني وإيديولوجي..الخ.

ولسنا بصدد تحليل ومناقشة.. كل الدراسات والأبحاث.. التي قام بها المهتمون والدارسون قبلنا، نظرا لمجموعة من الظروف والشروط الموضوعية.. الغير المتاحة والمتوفرة لدينا، قصد القيام بها (الآن) ولكن مهمتنا تنحصر وتنطلق من الواقع الموضوعي المعاش.. بالأساس في محاولة تتبع التحولات والتطورات.. التي طرأت على هذا الواقع المعاش.. واقع المجتمع البدوي الغرباوي، والمراحل التاريخية التي مر منها، ومن مدى إمكانية تحديد السمات الإنسانية والاجتماعية والفكرية والثقافية.. التي تعمل على تحديد ملامح المجتمع البدوي الغرباوي وتمييزه من خلال ظواهره ومظاهره.. – كما قلنا – في إطار النسق العام للمجتمع المغربي، الذي يعتبر الواقع الغرباوي جزءا لا ينجزأ منه على جميع المستويات الوحدوية الجوهرية والضرورية..

وهكذا وانطلاقا من الواقع البدوي الغرباوي ومن أقوال الاستاذ الباحث.. بنسالم حميش السابقة الذكر، التي استشهدنا بها، وجدنا أن تلك الأقوال لا تتناقض شكلا ومضمونا مع الواقع الغرباوي المعيش.. إنها أقوال تنسجم كل الانسجام مع هذا الواقع، بحيث يؤكد الواقع الموضوعي المعاش الغرباوي.. بأن أغلبية سكانه تتشكل من سكان البادية التي لم تستطع حتى الآن التحرر من مجموعة من الرواسب والسلبيات التي خلفتها السياسات المهيمنة والمتلسطة الاستعمارية وكذلك المحافظة والعقائد الرجعية – كما قال الاستاذ حميش – ، والتي مارست

بدون شك تأثيرا كبيرا وخطيرا على المجتمع البدوي الغرباوي بصفة عامة. وقد تجلى ذلك، في سياسة التفكك التي أصبح يعاني منها هذا المجتمع البدوي والتي ترجع إلى عدة عوامل سياسية وثقافية وفكرية ودينية واقتصادية.. وهذا أصبح بارزا بوضوح في وقت الانتخابات على سبيل المثال لا الحصر، بالرغم من أننا نؤمن بالاختلاف ولكن الاختلاف الإيجابي والهادف والواعي بأدواره المتنوعة. كما أن ربط الاستاذ حميش واقع الفلاحة والفلاحين بالمغرب بإشكالية تفكك القبيلة وبالاغتصاب الاستعماري للأراضي.. وبتصفية نضالية الفلاحين والاستحواذ على أراضيهم.. والهجرة القروية.. له ما يؤكده على المستوى الواقعي والحقيقي.. في منطقة الغرب، التي لا زالت تعاني هي الأخرى، من كل ما قاله الأستاذ حميش. وهكذا نرى أن الطريقة التي اعتمدها الباحث حميش في حديثه عن الفلاحين هي طريقة واقعية وموضوعية.. تعبر بصدق عن واقع المجتمع البدوي الغرباوي كذلك، كما يتجلى ذلك في الواقع المعيش من خلال الممارسات والمعتقدات والسلوكيات.. التي لا زالت تسيطر على الواقع الغرباوي. وهكذا ومن خلال الواقع ومن هذه الأقوال، كما قلنا، يتضح أن الاهتمام بالواقع الموضوعي المعاش.. في الدراسات والأبحاث الجادة والهادفة.. يعكس تطورا ملحوظا في طبيعة البحث وفي أهدافه. لأنه يجعلنا نعيش في حضن الحقيقة الحقة والموضوعية.

ومع ذلك، فإن هذه القراءة المتأملة المتواضعة لا تدعي، منذ البداية، الإجابة المتعمقة والدقيقة.. لكل ما يتعلق بهذه الإشكالية المتشعبة ولما ينجم عنها من نتائج سلبية وخطيرة.. تبدو بوضوح في المجالات الإنسانية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية.. حيث تعد الفلاحة في

المجتمع البدوي الغرباوي بالأساس، المظهر أو العنصر الرئيسي في تنشيط الحياة العامة. ومن هنا نجد أنفسنا مضطرين على طرح مجموعة من الأسئلة والتساؤلات، حول الواقع الموضوعي المتحرك.. معتمدين في ذلك على رصد هذا الواقع وتحليله ونقده ومناقشته.. بواسطة القراءة المتسائلة والواعية والحوار الهادف..

وإذن : كيف نعمل على فهم إشكالية الفلاحة البدوية الغرباوية؟! وما هي طبيعتها وأنواعها..!؟! كيف نعمل كذلك، على قراءتها وتفسير الأسباب والعوامل.. التي أدت إلى هذه الإشكالية؟! وما هي علاقة هذه الإشكالية الفلاحية الغرباوية بالإشكالية العامة التي أصبحت تواجه المجتمع المغربي في عصرنا المعاصر!؟! وهل بإمكان القراءة الجادة والهادفة والحوار العميق والواعي والتساؤل الناقد والباحث.. أن يساعدنا كل ذلك على محاولة التمكن من فهم ومعرفة.. هذه الإشكالية.. لمحاولة الخروج منها ومن أزماتها المختلفة والمتنوعة..!؟!

وهكذا نرى أن البحث بواسطة القراءة المتمحصة والحوار الجاد والهادف.. يقتضي منا بلوغ فهم ومعرفة هذا الواقع المعرفة العلمية الموضوعية العميقة والدقيقة. وهذه الطريقة في اعتقادنا تبعدنا عن الأحكام الذاتية الجاهزة وعن منطق القطيعة المفتعل وعن التعالي والتهميش الذي يعاني منه الواقع البدوي الغرباوي المعاش. هذا البحث قد أتى نتيجة مجموعة من المشاكل المتراكمة والمتشعبة التي أصبحت تعرقل مسيرة المجتمع البدوي الغرباوي وتفككه. هذا المجتمع الذي أصبح يعيش ويعاني من نتائج واختيارات.. سياسية واقتصادية واجتماعية.. طالما تنازعت حول ما هو أصلي وما هو غربي عصري!؟! ما هو استعماري

وما هو تحرري..!؟! ما هو ثالثي وما هو امبريالي!؟! ما هو برجوازي وما هو اشتراكي!؟! ما هو إقطاعي وما هو رأسمالي..!؟! وما هو مصلحي شخصي وما هو مصلحي جماعي..!؟!

وإذن، إن طرح إشكالية الفلاحة البدوية الغرباوية المنبثقة من واقع العلاقة بين الكولونيالية الاستعمارية والإقطاعية المهيمنة والرأسمالية الاستغلالية.. هو محاولة تقريبية للإجابة النسبية عن هذه الإشكالية التساؤلية والنقدية.. وذلك بفضل ضوء بعض المعطيات والمعلومات والمعارف والحقائق.. التي تتمخض في جوف هذا الواقع الموضوعي المعيش.

إن ضرورة الحوار الهادف إلى معرفة وفهم الواقع الموضوعي البدوي الغرباوي من جهة، ومحاولة تغييره وتطويره وتحويله.. إلى ما هو إيجابي وعام.. أصبح كل ذلك يقتضي الاهتمام بهذا الواقع بحثا ودراسة وتحليلا ونقدا.. على جميع المستويات، وذلك بنشر الوعي العلمي الصحيح الهادف إلى تغيير العقلية الغرباوية التي تعاني من رواسب التفكير السحري الأسطوري من جهة، ومن سياسة القوى المتسلطة والمستعمرة والمستغلة.. من جهة أخرى.

وبما أن إشكالية الفلاحة لا يمكن أن تفهم وتعرف وتناقش.. إلا على ضوء المصالح الإقطاعية المالكة للآلاف والمآت.. من الهكتارات.. وللرأسمالية التي أصبحت تنافسها في الملكية للأراضي والضيعات.. وتتفوق عليها على مستوى الآلات التقنية والتكنولوجية والأبحاث العلمية وكذلك على مستوى الإنتاج المتنوع والمردودية الإيجابية..الخ. من هنا نتساءل قبل الخوض في التحليل والمناقشة والتساؤل والنقد.. عن ما هو الإقطاع والإقطاعية؟ وما هي الرأسمالية..!؟!

نجد في "الموسوعة الفلسفية"[2] لروزنتال يودين. ص 39 : "الإقطاع نظام اقتصادي اجتماعي ظهر إلى حيز الوجود بعد تفكك وسقوط النظم العبودية والمشاعية البدائية."

كما نجد في "موسوعة لالاند الفلسفية"[3] المجلد الأول. ص 146 :

"رأسمالية *capitalisme*

أ – نظام اجتماعي لا تعود فيه الرساميل بالمعنى (ب)، إلى أولئك الذين يجعلونها منتجة بعملهم.

خصوصا، بالمعنى التاريخي، نظام الصناعة الكبيرة والملكية الخاصة، المتطور في البلدان الأكثر تمدنا في مجرى القرنين التاسع عشر والعشرين.

ب – عقيدة ترى أن هذه الحالة أرقى من الحالة المضادة، سواء من حيث الإنتاجية (أنظر : علم أو فن الاثراء (*chrématistique*)، أم من حيث السعادة، أم من حيث العدالة."

يقدم كل من التعريفين المتعلقين بالإقطاعية وبالرأسمالية.. توضيحات نسبية.. لكل من النظامين الإقطاعي والرأسمالي على المستوى الاجتماعي والاقتصادي والتاريخي.. وهكذا، فإذا كانت الترجمة قد لعبت دورا مهما في التقريب والتقارب والتواصل.. بين المجتمعات وفي تأسيس الحوار بين الثقافات والحضارات.. باعتبارها أصبحت قاسما مشتركا بين حقول المعرفة المختلفة والمتنوعة.. فإن هذا لا يعني أن الثقافات والمعارف والمصطلحات أو المفاهيم.. ليس لها تاريخ، ولا ترتبط بواقع معين وزمن محدد..الخ. إن المصطلحات أو المفاهيم، هي الأخرى، بدورها ترتبط بالواقع الموضوعي المتحرك.. ومن أجل ذلك، يصعب تطبيقها "حرفيا" على

واقع آخر بطرق عمياء ودوغمائية وغير واعية.. لأن هناك فرقا شاسعا بين الحديث عن الإقطاعية في بلدان "العالم الثالث" والبلدان المتقدمة. كما يصعب الحديث كذلك والمقارنة.. بين الرأسمالية في دول "العالم الثالث" وفي الدول المتقدمة، مثلا نتساءل : ولماذا الاهتمام بمفهومى الإقطاعية والرأسمالية في المجتمع البدوي الغرباوي..!؟

يجب أن لا ننسى بأن منطقة الغرب قد تعرضت للسطو الاستعماري.. وبذلك، كانت محطة اهتمامه وبؤرة نشاطه الاقتصادي والتجاري والصناعي والفلاحي.. ومنذ ذلك الوقت ونحن نتداول مجموعة من التصورات والمفاهيم والكلمات.. الغربية، والتي سرت بشكل أو بآخر، وتغلغلت في ثقافتنا وفي سياستنا واقتصادنا وحياتنا العامة. وإذا كان الأمر كذلك، فالسؤال الأساسي الذي ينبغي طرحه هنا، هو: ماذا قدم الاستعمار لهذه المنطقة البدوية الغرباوية التى كانت مرتعا خصبا لهيمنته واستغلاله..!؟! وما هي مخلفات سياسته التسلطية الاستعمارية..!؟! بماذا نفسر استفادة المتعاونين معه والمساعدين له.. أثناء وجوده.. من ملاكين كبار ومتوسطين ومن أصحاب رؤوس الأموال..!؟! هل هناك تبعية عمياء للسياسة الاستعمارية لا زالت تمارس في الواقع الموضوعي البدوي الغرباوي في مجال الفلاحة والمجالات الأخرى أم هنا تحرر وتجديد وتطوير..!؟! هل هذه السياسة الاستعمارية، الآن، سواء كانت إقطاعية أو رأسمالية أم شيئا آخر.. تدخل في نطاق ما أصبح متداولا في وقتنا الراهن ومعروفا بالعولمة..!؟!

يقول الدكتور صادق جلال العظم، في "ما هي العولمة" "مجلة الطريق"[6] ص 28 : "... : هناك إجماع على أن نمط الإنتاج الرأسمالى نمط

عالمي ودولي وتوسعي بطبيعته ومنذ نشأته. ما معنى العولمة إذن؟ ما معنى القول أن النظام الرأسمالي الموصوف بالعالمي أصلا وتعريفا، من جانب أصحابه كما من جانب أعدائه ونقاده. قد تَعَوْلَمَ أو هو قيد العوْلمة الآن أو أنه أصبح عالميا أو كونيا أو ربما عَوْلَمياً؟ هل العولمة هي مجرد المزيد من الامتداد الأفقي لنمو الإنتاج الرأسمالي بحيث يلحق بعض الاصقاع والمجتمعات والثقافات الإضافية التي فلتت منه سابقا بحلقة من حلقات أطرافه؟"

إن الاهتمام بالفلاحة وبإشكاليتها في منطقة الغرب على العموم وفي مشرع ابن القصيري وضواحيه – كما سنرى – على الخصوص، له أهمية كبيرة في مجال البحث والدراسة.. لا سيما أن الفلاحة في المغرب تشكل العنصر الأساسي في الحياة العامة على المستوى الاجتماعي والاقتصادي والسياسي.. حيث نجد في مجلة أبحاث المغربية السابقة الذكر، ص 108، تحت عنوان : " فلاحون بدون أرض". كتاب : بول باسكون ومحمد ناجي" حيث يقول ميمون الشرقي : "ولعل أعمال بول باسكون عملت ولا شك على تقدم المعرفة العلمية حول العالم القروي في المغرب.

والمؤلف الذي نحاول دراسته في هذا المقال نشر في سنة 1985 بمساهمة محمد ناجي، قبل وفاة الرجل الذي يعتبر "فقيه علم الاجتماع القروي المغربي". ومنذ مطلع الكتاب، يتم تحذير القارئ، وبحق، كي لا يتوقع من الكتاب "دراسة شاملة للفلاحين الذين لا أرض لهم". إذ أن العالم القروي لا يمكن حصره في فئتين متناقضتين : الملاكون والفلاحون غير المالكين، لأن الواقع أكثر تشعبا وتعقدا من ذاك"[4]

وإذن ما هي إشكالية الملاكين والفلاحين غير المالكين في منطقة الغرب على الخصوص..!؟! كيف كانت الوضعية للواقع الموضوعي الغرباوي قبل الاستعمار ومعه وبعده..!؟! كيف يتم الحديث عن "الصراع" أو "النزاع" الإقطاعي والرأسمالي.. من أجل الهيمنة والاستفادة.. أكثر..!؟! وهل استطاع هذا "النزاع" بين الإقطاعية والرأسمالية في المغرب أن يعمل على تطوير المجال الفلاحي بما فيه وضعية الفلاح البدوي الغرباوي على الخصوص والفلاح المغربي على العموم..!؟! ما هي انعكاسات ذلك على الواقع الفلاحي البدوي الغرباوي..!؟!

يقول الأستاذ بنسالم حميش في كتابه السابق الذكر "في الغمة المغربية"[1] ص 25 و26 : " والحال أن تلك النزوعات هي ما تتطبع به، على سبيل المثال، سلوكات البرجوازية الوطنية المغربية، التي أصبح باد للعيان عجزها عن الاضطلاع بمهمة تصنيع البلاد، بل وحتى في حقل أنشطتها التقليدية، فإنها تخلفت عن إدماجها في الاقتصاد الحديث وإخضاعها لوتيرته، أي عن خلق شركات مقاولات كبرى تبني التفعيل الاقتصادي الحديث.

وهكذا كأن حال البرجوازيين الفاسيين الذين استوطنوا الدار البيضاء منذ 1830، متعاطين لتصدير مواد الصناعة التقليدية والفلاحية الصوف والثوب والجلدولاستيراد النسيج والمواد المصنوعة والتبغ والشاي."[1]

أما الأستاذ محمد حجاج الطويل فيقول في : "الفلاحة بين التطور والجمود" مجلة (أمل المغربية)، ص 5 : "هل عرفت الفلاحة المغربية تطورا أو ثورة شبيهة بالثورات الفلاحية في أوربا خلال تاريخها؟

- هل تمكن المغاربة من استغلال المعطيات الطبيعية لمجالهم بشكل جذري؟

- هل أمكن للمغرب تحقيق الأمن الغذائي في فترة من فترات تاريخه المديد؟

أسئلة محورية وإشكاليات كبرى ما تزال في حاجة إلى جهود الباحثين وتكافل مختلف التخصصات..."[5]

وإذن، ما هي إشكالية الفلاحين والفلاحة البدوية الغرباوية التي تهمنا في هذه القراءة المتواضعة والمتسائلة والمتأملة..!؟! ما هي بعض الأسباب والعوامل.. التي أدت بكثير من الملاكين الصغار والمستضعفين إلى بيع أراضيهم والهجرة إلى بعض المدن المغربية..!؟! هل هذا يرجع إلى عوامل طبيعية، لا سيما أن الفلاحة هنا كانت إلى وقت قريب تقوم كلها على الظروف الطبيعية..!؟! ما هي الأراضي أو ما هي نسبة الأراضي التي استفادت حتى الآن من سياسة السقي وما هي المشاكل التي تواجهها من هذه السياسة..!؟! هل تعاني منطقة الغرب هي الأخرى، من "الاغتصاب" الاستعماري لأراضيها!؟! ثم هل هذه الأزمة ترجع كذلك، إلى اختيارات سياسية وظروف اجتماعية وطرق تقنية وتكنولوجية ومشاكل إنسانية واقتصادية..!؟! أليست هناك مشاكل تتعلق بأراضي الملكية الجماعية والملكية الفردية من غير نسيان الأراضي المسترجعة والضيعات الكثيرة..!؟!

يضيف الأستاذ حميش في مصدره السابق " في الغمة المغربية"[1] ص 51 و 52 " وهذه الملحوظة ذات المصداقية العامة تجد في المغرب ترجمتها الإحصائية بالأرقام : بين 5 إلى 10% من الملاكين، كبار المستفيدين من

تصفية الاستعمار القروي يملكون من 60% من الأراضي، 40 % من الفلاحين يملك الواحد منهم قطعة نصف هكتار لا تتسع إلا بمناسبة تمردات محلية أو محاولات إنقلاب فاشلة. وهذه الاختلافات الصارخة تحكم بالعقم بل بالعبث على كل سياسة إصلاح زراعي أو تسسير فلاحي ذاتي."[1] ويضيف في ص 53 قائلا : " في آخر المطاف، قد لا نخطئ الصواب إذا قلنا إن العالم الفلاحي يمثل مشهد جمود تديره وترعاه هذه النخب المحلية التي التحقت بالدوائر الإدارية كقوادوشيوخ ومقدمين، وذلك بعد أن تعاونت أطراف منها مع الحماية الفرنسية، ثم قامت بتمردات بعد الاستقلال من سنة 1957 إلى 1960. وقد بقيت مدة عهد طويل تشكل فصيلة تضر بحياة المغرب السياسية والاقتصادية وبخزينته على السواء (رواتب وتعويضات تتضاف إلى فوائد الاستغلال المباشر للسكان). وبالمقابل، بفضل تلك النخب : "تظل البوادي – كما يسجل ريمي لوفو – هادئة تماما، حتى حينما يكون النظام السياسي معرضا لرجات."[1]

أسئلة كثيرة ومتنوعة وإشكاليات معقدة ومتشابكة تطرح نفسها علينا بحدة، وذلك في غياب المصادر والوثائق.. التي بإمكانها أن تساعدنا أكثر على تسليط بعض الأضواء على بعض القضايا والإشكاليات المرتبطة بمجال الفلاح والفلاحة.. هنا في منطقة الغرب وعلى الخصوص في مشرع ابن القصيري وضواحيه – كما قلنا أكثر من مرة – وإذن، ما هي الفلاحة!؟! ومن هو الفلاح..!؟! هذا المحور الهام الذي نال اهتمامنا في هذه الدراسة المتواضعة.. بجانب المحاور الأخرى..!؟!

.. نجد كذلك في جريدة العلم العدد : 17760 الاثنين 15 رمضان 1419 هـ الموافق 3 يناير 1999 م. في موضوع : "المحميون – مساهمة في

دراسة تاريخ المغرب المعاصر. تأليف : " محمد كنيب – ترجمة : عبد الرحيم حزل.

(...) وكانت الامتيازات التي يحظى بها المخالطون الفلاحيون والمحميون القرويون قد آلت بهؤلاء، كذلك، إلى أن أصبحوا يشكلون جزرا كبيرة نسبيا، يكاد لا يكون للمخزن عليها من سلطان . وأصبحت أراضي كبار الملاك العقاريين من حاملي بطاقات الحماية، بذلك أشبه ما تكون بمقاطعات أجنبية يلزم السلطان أن يستأذن من أصحابها كلما أراد المرور منها. ولقد تحققت قفزة على شأن عظيم من الأهمية في هذا المجال، بعد 1880 م إذ استندت القوى الأجنبية إلى مقتضيات المادة 16 من معاهدة مدريد، لتمتيع الأعيان الدينيين بعدد كبير من بطاقات الحماية. ولقد وجدت المفوضيات في توزع حملة بطائقها الجدد على مناطق جغرافية شاسعة، وتنائي عزيبهم ذريعة للتعلل بحماية مصالحهم، فتزيد من تدخلها السافر في شؤون البلاد، وتعوق سياسة المخزن حتى في أناي المناطق."

الفصل الأول : الفلاح والفلاحة

من غير شك، وكما يبدو واضحا في اعتقادنا أن أهم الأسئلة المنطقية والواقعية التي تفرض نفسها علينا وتواجهنا في هذه الدراسة المتواضعة هي كالتالي : ما هو المجال الذي يعمل فيه الفلاح..!؟! ومن هو الفلاح؟ وما هي هذه الفلاحة التي يقوم بها هذا الفلاح..!؟!

سيقول البعض أو الكثير من الناس، إن مثل هذه الأسئلة، هي أسئلة بسيطة وعادية جدا.. إنها بكل بساطة تتلخص في هذه الكلمات نفسها، والتي هي الأرض والفلاح والفلاحة، بدون تعمق في دلالاتها ومعانيها وأبعادها المختلفة والمتداخلة. وهكذا يمكننا القول على سبيل المثال لا الحصر، ردا على المعنى العامي، "ليس كل الفلاحين ملاكين للأراضي مثلا.."

يرتبط فهم الدلالات والمعاني والنظريات المعرفية والاقتصادية بفهم، وتحديد وعي الناس أي الوعي الاجتماعي والثقافي .. الذي يعمل بشكل أو بآخر على إنتاج هذه الدلالات والمعاني والمعارف.. وهذا بدوره يعطي أهمية للطرق والتصورات الفكرية.. التي ينطلق منها هذا الوعي الاجتماعي المنتج، والتي يتحكم فيها الواقع الموضوعي المتحرك.. بشكل جدلي عميق وفعال.. من غير نسيان الانطلاق من التغيرات والتطورات والتحولات المتسارعة التي يعرفها عصرنا المعاصر في جميع المجالات الاقتصادية والاجتماعية والفكرية والسياسة والعلمية...الخ.

ويزداد هذا الاهتمام أكثر فأكثر بتعقد الحياة وتشعبها وبتراكم المشاكل على الإنسان الذي أصبح يجد نفسه غارقا في عالم مملوء بالهموم والفواجع والمآسي. والإنسان البدوي بدوره لم ينج من هذه الإشكالية المستعصية. وهكذا فإن الاهتمام بالفلاح وبالفلاحة في منطقة الغرب على الخصوص، وفي المغرب على العموم، باعتباره بلدا فلاحيا يعتمد على الفلاحة بالأساس، وذلك بوضع سياسة هادفة واعية وترشيدية، بإمكانها الانطلاق من المعطيات الموضوعية والذاتية لمواجهة المشاكل المتنوعة والكثيرة التي أصبحت تتخبط فيها البادية.. وذلك بالاعتماد على العنصرين الأساسين من غير نسيان العناصر الأخرى، وهما : العنصر الطبيعي (الأرض) الهائل الذي تتوفر عليه البادية المغربية، والعنصر الإنساني وذلك بتشجيع وإتاحة الفرصة لأبناء البادية لما لديهم من قدرات وإمكانات.. لتغيير وتطوير.. واقعهم المتأزم. وهذا يتطلب، كما نرى، من جهة أخرى إيجاد حلول على المستويات الاجتماعية والمادية والتعلمية والتعليمية وكذلك الفكرية والثقافية والعلمية.. لمواجهة أخطار التخلف المتجسدة في الأمية التي أصبحت تنخر جسد البادية بشكل خطير.

وإذن، اهتمامنا بكلمتي : فلاح وفلاحة.. في منطقة الغرب على العموم وفي مشرع ابن القصيري وضواحيه على الخصوص.. يلعب دورا مهما وأساسيا في فهم ومعرفة الواقع الموضوعي الغرباوي، نظرا لأهمية ومكانة الفلاحة والفلاح في هذا الواقع المعاش.. باعتبار "فلاح وفلاحة" من أهم الخصائص والمميزات التي تتميز بها البادية والإنسان البدوي. فما معنى – مرة أخرى – الفلاحة؟ وما معنى "فلاح"؟! وكيف يرى الفلاح البدوي

الغرباوي الفلاحة ويفهمها..!؟! وكيف يعبر عنها!؟! وما هي الطرق والوسائل القديمة والحديثة التي يستخدمها من أجل فلاحة الأرض واستغلالها..!؟!

نجد في مجلة (أمل)[5] المغربية السابقة الذكر، في ص 61 و 62، تحت عنوان : "**حول صورة الفلاح في الثقافة العربية الاسلامية.**

- أدب النوازل نموذجا – للأستاذ عبد اللطيف حباشي.

مقدمة عامة:

تنازلت معظم الكتابات التي اهتمت بالمسألة الفلاحية في التراث العربي الإسلامي مجالات محددة وخاصة، تعلقت في مجملها بعلوم النبات وتنوعها وبوسائل الري وطرق الزراعة والعناية بالمحاصيل وكل ما يدخل في هذا الباب، وقد كتب الكثير في هذا الشأن، إلا أن الحديث عن "الفلاح "ضمن مصادر التاريخ العربي الإسلامي عموما ظل متسما بنوع من "التهميش" و"الندرة"، وأحيانا عرضة للإقصاء التام، بحيث يلاحظ أحد الباحثين قائلا : "لقد لفت نظري وأنا أقلب صفحات التاريخ العربي الإسلامي في أمهات كتبه ومصادره أن "الفلاح" مهمل الذكر، مغفل الإشارة إليه، متروك الحديث عنه (...) ولقد بلغ من هوَان الفلاحين، حتى على المؤرخين، أن لفظة "الفلاح" تدور في بعض كتب التاريخ على ندرة نادرة "

الملاحظة الثانية وهي أن تاريخ الفلاحين اتسم أيضا بخاصيات سلبية : كالازدراء والظلم والاستغلال..إلخ. فنجد ابن خلدون – مثلا-

في مقدمته قد عنون فصلا بكامله : "في أن الفلاحة من معاش المتضيعين وأهل العافية من البدو" حيث يرى أن التعرض للتسلط والجور والهوان يأتي بسبب الارتباط بالفلاحة (آلة الزرع)، ويورد بصدد ذلك حديثا للإمام البخاري جاء فيه، أن الرسول (ص) قال – وقد رأى سكة المحراث ببعض دور الأنصار "ما دخلت هذه دار قوم إلا دخله الذل" والمذلة هنا –حسب ابن خلدون دائما- سببها الاشتغال بآلة الزرع وما قد يتبع ذلك من جور ومغارم وتسلط الحكام. وهذا يناقض تماما ما يراه (ابن خلدون) عندما يتحدث عن التجارة والتي يعتبرها ذات قيمة كبرى بالنسبة للإنسان"[5] ويضيف قائلا في ص 63 من نفس المصدر : "أما في المعاجم اللغوية فلفظة "فلاح" كثيرة. وقد استعملها الزمخشري في أساس البلاغة قائلا : (وأحسبك من فلاحة اليمن، وهم الأكرة، لأنهم يفلحون الأرض أي يشقونها). وأوردها ابن أبي السرور صاحب "القول المقتضب" وهو من رجال القرن الحادي عشر الهجري. قائلا : "ويقولون –يعني المصريين – للزارع فلاح"

قال في القاموس : الفلاح : الحراث والأكار، وهو الزارع"

(...)

أما بالنسبة لبعض التعريفات الأخرى الغربية والتي تنطلق من خصائص الحياة القروية فنجد عند كروبر *Kroeber* وهو من أدق الأنثروبولوجيين في تحديداته أن الفلاحين يعتمدون على فلاحة الأرض وأنهم لا يعيشون منعزلين تماما كما هو الحال في التنظيمات العشائرية والقبائلية، إذ أنهم مرتبطون إلى حد ما بأسواق المدن، ولكنهم ينقصهم

الاستقلال السياسي والاكتفاء الذاتي الذي تتمتع به هذه العشائر والقبائل.

من هنا يبدو أن الفلاح جزء ضمن مجتمع عام، ولا يمكن دراسته إلا في علاقته مع مختلف الفعاليات المحيطة به كالمدينة والدولة والسوق ونوع من الثقافة العامة."[5]

تتضح أهمية ما جاء في هذه الأقوال المقتطفة من مجلة (أمل) المغربية، والمتعلقة بإشكالية الفلاحة والفلاح في الفكر العربي الإسلامي من جهة، وفي واقعه من جهة أخرى، وبأهميتها في الثقافة الغربية وفي واقعها من جهة ثالثة. كما تتضح أهمية الارتباط والاهتمام بالواقع الموضوعي للفلاحة وللفلاح من خلال الاستفادة من الأسس الفكرية والنظرية.. للأقوال الشارحة والمحللة والمفسرة لإشكالية الفلاحة والفلاح وأهميتهما ودورهما في الواقع الإنساني الموضوعي المعاش.. هذه الأقوال التي أفادتنا كثيرا، من خلال تسليطها بعض الأضواء على وضعية الفلاح والفلاحة في المجتمع العربي الإسلامي، الذي كان يفضل التجارة على كل المهن والصناعات الأخرى، نظرا لطبيعته الجغرافية والثقافية والاقتصادية..الخ. والمجتمع الغربي الذي ينظر إليها بنظرة واقعية وموضوعية باعتبارها عنصرا من العناصر الرئيسية المتداخلة والمتشابكة في مكونات ومحددات بنيات المجتمع بأكمله. وهذا لا يعني أن الاهتمام بالفلاح وبالفلاحة، بقي كما كان عليه في المجتمع العربي الاسلامي في القديم، بل بالعكس من ذلك لقد أصبح الاهتمام به كثيرا، ولكن هذا الاهتمام لا يخلو بدوره من مشاكل متعددة ومتنوعة.. وفي مقدمتها التهميش والإهمال وكثرة المشاكل، التي أصبح يعاني منها الواقع

البـــدوي على العموم، والـــواقع الغربـاوي على الخصـوص. ولعل الهـدف الأساسي الذي نستهدفه من هذه القراءة المتواضعة.. هو نشر الوعي الصحيح.. بأهمية دور الفلاح والفلاحة في حياة المجتمعات الإنسانية، وهكذا يصبح بالإمكان تجاوز النظرة القديمة والإهمال الذي يعاني منه الواقع البدوي، حاليا، ورد الاعتبار للفلاح وللفلاحة. كما يمكننا أن نستخلص من خلال الإيضاحات والتفسيرات والشروحات والأقوال.. لإشكالية الفلاح والفلاحة، من خلال ما اقتطفناه من مجلة أمل المغربية.. ما يلي : - "الفلاحة في مجملها تتعلق بعلوم النبات وتنوعها وبوسائل الري وطرق الزراعة والعناية بالمحاصيل وكل ما يدخل في هذا الباب". وهذا تعريف عام – نسبيا – يشير إلى طبيعة هذه الصناعة وإلى نمط إنتاجها وإلى طرقها ووسائلها وأهدافها. أما فيما يتعلق بالفلاح وبالحديث عن وضعيته الإنسانية والاجتماعية والعملية والاقتصادية والسياسية.. في الثقافة العربية الإسلامية وذلك من خلال مصادر التاريخ العربي الإسلامي – كما جاء في الأقوال السابقة كذلك – نلاحظ مدى تهميش الفلاح وإهماله على مجموعة من المستويات.. وهذا الظلم لا زال يعاني منه الفلاح العربي حتى الآن، لا سيما الفلاح المقهور والمهمش.. وهذا ما جعل الفلاح في المسيرة التاريخية العربية الإسلامية يتعرض لكل أنواع التسلط والهيمنة.. ونعته بنعوت غير علمية وموضوعية.. كل ذلك، لأنه يشتغل بالفلاحة ويرتبط بالأرض، ولا يشتغل بالتجارة التي ترفع من قيمة الإنسان ومن مكانته في المجتمع. وهذا كما أشرنا، راجع إلى عدة عوامل وأسباب متداخلة ومتشابكة نسجها الواقع الموضوعي العربي وقام بأدوار مسرحيتها الإنسان العربي..

أما الفلاحة فتعني وفقا لما جاء في "التعريف" الذي قدمه كروبر.. الارتباط بالأرض والعيش في مجمتع تسوده العلاقات المتفاعلة والمتداخلة.. وإبراز الأهمية التي يلعبها الفلاحون في تحريك وتنمية وتنشيط أسواق المدن..الخ. وهذا الموقف الغربي من الفلاح في حياة الفلاحة الإنسانية هو نتيجة مجموعة من التطورات الحاصلة في هذا المجتمع الغربي، الذي أصبح الاهتمام فيه بحقوق الإنسان كيفما كان هذا الإنسان طبقا لأعراف ومبادئ وأهداف الديمقراطية الحقة.!؟!

فالفلاح عنصر هام في حياة المجتمع العام ولا يمكن إهماله أو تهميشه أو إقصاؤه، لأنه يلعب دورا أساسيا في التنمية والتطور.. في جميع المجالات المتعددة والمتنوعة. فهو حاضر في البادية وفي المدينة وفي المجتمع وفي الدولة وفي السوق.. بل هو حاضر في الحياة بمعناها الواسع..

ولتقديم صورة موضوعية حقيقية وواقعية.. عن الفلاح البدوي الغرباوي وعن وضعيته داخل المجال الخاص والعام، لا بد من الارتباط بالواقع الموضوعي المعيش والانطلاق منه، لأن كلمة "فلاح" تتخذ عدة معاني ودلالات وأهداف وأبعاد.. في الواقع الاجتماعي والثقافي والاقتصادي.. الذي يوجد فيه هذا الفلاح الذي نتحدث عنه. وهكذا لا يعود أمر الحديث معلقا بما هو فكري أو نظري فقط، بل كذلك بماهو مادي واقعي وتجريبي.. وذلك نتيجة تعقد وتداخل وتشابك الواقع الموضوعي البدوي المتحرك، الذي لا يمكن حصره فقط في فئة الملاكين الذين تتفاوت ملكيتهم هنا في منطقة الغرب بشكل صارخ ومتناقض.. حيث تتراوح بين الذين يملكون الآلاف من الهكتارات والذين يملكون

المئات والذين يملكون العشرات فأقل. وبجانب هؤلاء جميعا هناك من لا يملك ولو مترا واحدا من الأرض..!

نجد في كتاب "فلاحون بدون أرض" لبول باسكون ومحمد ناجي هذا القول لميمون الشرقي (مجلة أبحاث المغربية)[4] الجزء الثاني ص 108 و109 : "ومنذ مطلع الكتاب، يتم تحذير القارئ، بحق كي لا يتوقع من الكتاب "دراسة شاملة للفلاحين الذين لا أرض لهم". إذ أن العالم القروي لا يمكن حصره في فئتين متناقضيين : الملاكون والفلاحون غير المالكين، لأن الواقع أكثر تشعبا وتعقدا من ذلك.

هكذا، وبعد مجهود من أجل التعريف والتحديد الكمي، يتطرق الكتاب لمفاهيم مثل "الفلاحون" (بدوي، أعروبي) المزارعون (الفلاحون)، الملاك، مربو المواشي الكسابة، المستأجرون الفلاحون الدائمون (العملاء)، الشركاء بالمزارعة *(matayers)* والمزارعون الصغار والمسيرون *(gérants)* [الخماسة، الرباعة، الشركة الخبازة والنصافة، الصاحب والمكري.]

العمال الفصليون، المؤقتون ورعاة الماشية، وتبقى الوضعية الاقتصادية والاجتماعية لكل فئة من هذه الفئات ذات مميزات خاصة بها، مما يجعل من كل واحدة منها حقيقة مستقلة بذاتها عن مثيلاتها.

هكذا يستخلص المؤلفان وليس بدون سبب، عن مفهوم "الفلاح" بدون أرض" لفائدة مفهوم "الفلاحين ذوي الأرض غير الكافية" هذه الفئة لا تشمل كل الفلاحين غير المالكين، أو يمكن أن يقصى منها، الفلاحون مربو الماشية، الملاكون الخواص وذوو الحق في الأراضي

الجماعية الذين يتمتعون بمساحة تعتبر كافية لتخويلهم وسائل العيش من الفلاحة".

وتجدر الإشارة إلى أن "المساحة الكافية" ليست واحدة بالنسبة لكل مناطق المغرب. لقد انتقل من هكتار لكل عائلة بالنسبة للمناطق المسقية الصناعية أو الساحلية إلى ثلاثة هكتارات لكل عائلة في منطقة الغرب (الرطبة) ثم أحد عشر هكتارا لكل عائلة في منطقة بني بوفراح الريف، أو حتى خمسة عشر هكتارا لكل عائلة في سهل بنكرير"[4]

النظام الفلاحي في مجتمع من المجتمعات يعبر عن نفسه وبشكل واضح ودقيق من خلال مجموعة من المشاهد والمظاهر والعناصر.. وذلك من خلال عنصرين أساسيسن هما : الأرض الصالحة للفلاحة.. والإنسان/الفلاح المقتدر والكفء والعارف والمتمكن من خلال مجموعة من الوسائل والأدوات والآلآت.. على القيام بالفلاحة أحسن قيام. هذه الفئة من الفلاحين المحبة للفلاحة والمخلصة لها تستطيع رعاية الفلاحة وتوجيهها وتطويرها وتحديثها.. من أجل وفرة الإنتاج وتطويره.. هذه العملية، كما قلنا، تتطلب تحسين الظروف وتوفير الإمكانيات والشروط الذاتية والموضوعية لهذه الفئة، وإبعاد المتطفلين والمتسلطين المستغلين.. إذا ما أردنا تحقيق الأهداف المتوخاة تحقيقها.

وهكذا عندما نتحدث عن الفلاحة والفلاح في منطقة الغرب سواء على المستوى الوعيي والفكري أو على المستوى الواقعي الموضوعي المتحرك فنحن في الواقع نتحدث عن أزمة بنيوية هيكلية.. ذلك، لأن الفلاحة البدوية الغرباوية التي نتحدث عنها في منطقة الغرب، ليست واحدة بل هي أنواع وأشكال مختلفة : هناك من جهة الفلاحة التقليدية

التي يكرسها بصورة واضحة واقع الأغلبية من الفلاحين الذين يعيشون تحت رحمة الطبيعة ويعانون من قساوتها.. مقتصرين في ذلك، على المنتوجات والإنتاجات القديمة المعروفة مثل، زراعة الحبوب المتنوعة كالقمح والشعير والذرة وعلى القطاني بالإضافة إلى بعض الزراعات الصناعية كقصب السكر والشمندر وعباد الشمس (المعروفة في المنطقة بنوارة الشمس)..الخ. وهناك من الجهة المقابلة الفلاحة الحديثة التي تتجسد بالأساس في فلاحة الملاكين الكبار والفلاحين أصحاب الأراضي الشاسعة والضيعات الكبيرة.. هذه الفئة القليلة هي التي تعمل بوسائلها الخاصة وبإمكانياتها المتوفرة.. على إنتاج الإنتاجات والمنتوجات المستوردة والمصدرة.. معتمدة في ذلك، على تقنيات حديثة ومعاصرة.

أما الفئة الثالثة فهي التي لا علاقة لها بالفلاحة.. ولكنها استحوذت على الأراضي الفلاحية الشاسعة وعلى الضيعات المسترجعة. وهذه الفئة في غالب الأحيان ما تلتجئ إلى الكراء أو الإهمال فيكون مصير هذا النوع من الفلاحة معرضا بدوره للضياع أو البيع..الخ.

أما الفئة الرابعة من الفلاحين فهي التي تلتجئ إلى البحث عن العمل في الحقول أو الضيعات..الخ.

أما الفئة الخامسة من الفلاحين، فهي التي تلتجئ إلى الاهتمام بتربية المواشي والدواجن.. من هنا تجد نفسها مضطرة هي الأخرى إلى العمل وإلى شراء بعض الأراضي أو كرائها.. وذلك لتوفير الكلأ أو العلف.. لماشيتها. وهذه الفئة بدورها تنقسم إلى قسمين : فئة صاحبة إمكانيات وأخرى محدودة الإمكانيات تواجهها مجموعة من المشاكل،

في الغالب ما تؤدي بها إلى الإفلاس أو اللجوء إلى القروض من مؤسسات بنكية أو من فئات محظوظة غنية.

وبجانب هذه الفئات الفلاحية، هناك فئات أخرى، تتداخل بشكل أو بآخر مع هذه الفئات المذكورة ومع غيرها.. في الحياة العامة. وإذن، نحن أمام نظامين مختلفين بل ومتناقضين.. في مجال الفلاحة في منطقة الغرب، نظام تقليدي (متخلف) يعتمد وسائل تقليدية وأفكار وتصورات.. متخلفة في مجملها، وإن كانت مستنبطة - كما هو معروف عنها - من الواقع الموضوعي، الذي عرف بدوره مجموعة من التحولات والتطورات..الخ. ونظام حديث مستورد من الواقع الغربي الذي عرف تحولات وتطورات وتغيرات.. على المستوى الفكري والعلمي والتقني والتكنولوجي.. كما يظهر بوضوح في هذا الواقع.

فما هي التصورات والأفكار.. التي قام عليها النظام التقليدي الفلاحي في منطقة الغرب..!؟! وما علاقتها بالواقع الموضوعي المعاش؟ وهل لا زالت تحتفظ على مصداقيتها وقيمتها ووظيفتها... داخل هذا الواقع الفلاحي البدوي الغرباوي..!؟! وهل هناك تداخل بين النظام القديم والنظام الحديث.. في مجال الفلاحة الغرباوية أم هناك نزاع وتناقض..!؟!

.. من خلال لقائنا مع كثير من الفلاحين الكبار في السن ومع بعض المهتمين والعارفين بقضايا ومشاكل الفلاحة.. هنا في منطقة الغرب.. وجدنا أن تصورات ومعارف.. هؤلاء تستند في مجملها على النظام التقليدي الفلاحي، كما هو معروف لدى الكثير من سكان البادية، وكما ينشر في إحدى اليوميات المغربية (بن عياد).

وهكذا وإذا كنا في هذه القراءة لم نعمل على إعادة كتابة كل ما يتعلق* بالفلاحة بالمفهوم الكلاسيكي، الواردة على ظهر كل ورقة من أوراق هذه اليومية. فإننا سنشير إلى بعض الأمثال البدوية الغرباوية الواردة في هذا الشأن.. خاصة وأن هذه الأمثال أو الحكم قد انتشرت بشكل واسع في المجتمع البدوي على العموم وفي الواقع البدوي الغرباوي على الخصوص. ولقد وجدت هذه الأمثال أو الحكم الشعبية البدوية.. إقبالا من طرف سكان منطقة الغرب، التي يغلب عليها الطابع البدوي الفلاحي القديم..

وهكذا نجد الأغلبية من الفلاحين هنا تستند في شؤونها وقضاياها ومشاكلها الفلاحية.. على الفلاحين الكبار السن والمحنكين العارفين.. وتثق فيهم أكثر من غيرهم وإن كانوا متخصصين في مجال العلوم الفلاحية. وهذه بعض الأمثال أو الحكم.. والتي أخذناها على سبيل المثال لا الحصر، من أجل تسليط بعض الأضواء على ما قلناه.

في باب الحرث : (فصل الخريف) :

"الحرث بكري أو سير نكري"

"الحرثة قريبة والمراة بعيدة"

"إلى فاتك يناير ابقى الزرع في المطامر"

في باب المطر : (فصل الشتاء) :

"مارس يمرسها (الفياضانات) أو يملصها (الجفاف)"

"بطن الحوت الدرة ولا النفوخ او الشتا أو لا نموت"

"إلى طاحت الشتا في الصمايم بيع فلاحتك واشريها ابهايم"

في باب نبات المزروعات : (فصل الربيع) :

"فاتك الغرس قبل مارس"
"سعد الخبية كاتخرج كل مخبية"
"مارس وكل عشبة براس.. مايو وكل ينيم ورايو"
"سعد السعود وسعد النحلة في العود" (ازدهار الربيع)
"الى دار الكرموص أودينانك الفار كَيْتقدد الليل مع النهار".

في باب النضج.. : (فصل الصيف)

"ليالي بروحها شدْ الغمره وْلوخها"
ما تعزل جديك من جديان حتى تخرج الليالي وحيان"

إن العلاقة الأساسية التي تربط بين هذه الأمثال والحكم وغيرها وبين سكان البادية وعلى الخصوص الفلاحين منهم، تتمثل في أهمية الواقع الموضوعي المعيش.. والذي هو واقع فلاحي بالأساس. وهكذا، كان من الطبيعي أن ينعكس هذا الواقع الموضوعي المتحرك.. سلبا وإيجابا على عقلية الفلاح والفلاحة الكلاسيكية.. لا سيما أنه في المراحل الأولى للفلاحة البدوية الغرباوية (أي في القديم)، قد لعبت هذه الأمثال أو الحكم.. البدوية الواقعية دورا أساسيا في معرفة أوقات الفلاحة ومشاكلها المتنوعة والمتعددة.. وذلك في غياب ما هو علمي دقيق وحضور ما هو طبيعي غير ثابت ومقنن.. وهذا ما جعل التطورات والتحولات المادية والفكرية والعلمية والتقنية والتكنولوجية..الخ. قد أدت الى التقليل من أهمية ودور.. هذه الأمثال أو الحكم البدوية الغرباوية القديمة.

ولقد انعكست هذه التحولات والتطورات والتغيرات بشكل كبير على واقع النظام الفلاحي القديم، وذلك بالحد من أدواره ومن أهميته في تنشيط وتفعيل الحياة الفلاحية.. بالرغم من سيطرته على

العقلية البدوية الفلاحية، التي ظلت تحتفظ به كجزء لا يتجزأ من ثقافتها البدوية، بل والعودة إليه كلما اقتضت الظروف ذلك..!

يضاف إلى ذلك، أن الفلاحة نفسها قد تصنعت هي الأخرى وغزتها التقنية والتكنولوجيا.. بمعنى أصبحت أكثر فأكثر تبحث عن أسواق عالمية بالإضافة إلى الأسواق المحلية والوطنية. وهذا يتطلب جودة في الإنتاج ومجموعة من المواصفات.. تؤهلها من أجل التنافس وفرض الذات. وهذا يعني من جهة أخرى، إن الفلاحة عرفت تحولات وتغيرات كبيرة – كما قلنا – في المجال التقني وفي المجال الإنتاجي. وهكذا لم تعد تقتصر على ما كانت تقتصر عليه من إمكانيات وظروف طبيعية ومواد خام وأعمال يدوية وأدوات تقنية قديمة. وهذا ما وضع الفلاحة القديمة في مأزق بل في أزمة أثرت، بدورها، بشكل كبير على وضعية الإنسان البدوي الذي أصبح معرضا في كل وقت، للبؤس والفقر والبطالة والاحتياج والتهميش..الخ.

يضاف إلى ذلك، كذلك، أن فئة الفلاحين المستضعفين (الصغار) وفئة الفلاحين المتوسطين.. تعاني مؤسسات خلقها النظام الرأسمالي الاستغلالي المهيمن، مثل القرض الفلاحي الذي كانت نشأته من المفروض أن تكون لمساعدة الفلاح الصغير والمتوسط بالدرجة الأولى، للتنمية الفلاحية وتحسين الوضعية الاجتماعية والإنسانية والاقتصادية. لكن العكس هو الحاصل. وكذلك جمعيات كان من المفروض أن تساعد هي الأخرى وتدافع عن حقوق الفلاح المهمش والمؤزم.. وأن تبحث عن حلول لمشاكله، ولكن العكس هو الصحيح كذلك، حيث تعمل هذه الجمعيات مثل (جمعية النباتات السكرية، وتعاونيات الحليب

بالإضافة إلى الغرف الفلاحية والمعامل المختلفة التي تستفيد من الإنتاج الفلاحي) على الاستفادة من المنتوجات الفلاحية واستغلالها وحرمان الفلاح من حقوقه.. بشتى الطرق. وهذا بطبيعة الحال أدى الى نتائج سلبية عادت على الفلاحة والفلاح الصغير بالأساس، بمشاكل كثيرة، مثل كراء أو بيع الأرض لسد الديون المترتبة عن الظروف الطبيعية القاسية مثل الجفاف أو الفيضانات.. أو الهجرة في اتجاه المدن.. والتي لا تخلو بدورها من مشاكل أعقد وأصعب.. من تلك التي كان يعيشها في واقعه البدوي.

إن إشكالية الفلاح والفلاحة في المغرب تتشابه وتتقارب.. على جميع المستويات والمشاكل المختلفة، ومن ثمة فإن النزاعات بين القبائل والدواوير والأفراد.. حول ملكية الأرض والحدود بينها وكذلك حول النزاع على أراضي "الجموع" وكذلك على الماء بالنسبة للأراضي المسقية.. هذه الإشكالية ما تؤدي في الغالب إلى ظواهر خطيرة مثل القتل والسجن والرشوة.. أثناء النزاع. حيث نجد في مجلة (أمل)[5] هذا القول للأستاذ محمد زرهوني، تحت عنوان : "النزاع حول الأرض والماء بمنطقة الأطلس الكبير الغربي، في ستينات القرن التاسع عشر" ص 29 :

"1- النزاعات على الأراضي"

إن النزاعات على الأراضي الزراعية، تشكل عصب الحياة في المجتمع الزراعي، ولذلك فهي تكاد تكون مستمرة بدون انقطاع، وتظهر بالخصوص في إبان القيام بالحرث، في وضعية عقارية قانونية تلعب فيها الجماعة الدور الرئيسي، فهي التي تبث في النزاعات حول الأرض، من

حين لآخر بوسائلها المعتادة، وخاصة أنها أدرى بإشكاليتها، ومتتبعة لتطور ملاكيها، من أطراف هذه القبيلة أو تلك، وذلك بتعاون مع السلطات المحلية، ولا تتدخل السلطة المركزية، إلا حينما تعجز الجماعة، والسلطة المحلية، عن الوصول لفك النزاع..."

إذا كانت هذه الأقوال الواردة في هذا المقال، تكتسي أهمية على مستوى معرفة أسباب النزاع القائم بين القبائل في الأطلس الكبير الغربي، وذلك نتيجة عوامل وأسباب بيئية وطبيعية كالاستقرار وأخرى، إنسانية واجتماعية وسلالية وكذلك أسباب وعوامل.. اقتصادية كالإنتاج والاستغلال..الخ. وأخرى مناخية أو سياسية أو اجتماعية.. كما جاء في هذا المقال. فإن طبيعة الأرض واختلاف تربتها وإنتاجها وملكيتها أو كراءها.. هنا في منطقة الغرب وعلى الخصوص في مشرع ابن القصيري وضواحيه.. تؤدي إلى مشاكل أخرى من نوع آخر، بالإضافة إلى ما جاء في الأقوال السابقة. حيث أصبح النزاع حول الأرض موجودا حتى بين أفراد أو العائلة الواحدة نفسها، وهو مايتجسد، مثلا، في عملية الإرث بين الإخوة وبين الأعمام والأخوال..الخ. فبإمكان الأخ أن يقتل أخاه أو أن يزج به في السجن.. إذا ما قام نزاع بينهما على الأرض.. كما نضيف بدورنا على أن النزاعات تتكاثر أيام وقت الحرث حول الواجب المستحق للفرد أو حول الحد/الحدود بين الملاكين أو الفلاحين.. وهكذا فمجرد موت الأب/الملاك الوحيد.. تصبح المشاكل والنزاعات تظهر وتتكاثر.. بين الوارثين.

يضيف محمد الزرهوني قائلا في ص 32 : "النزاع حول المياه."

إن النزاع على المياه، في منطقة طرفي الأطلس الكبير الغربي، يكتسي أهمية على طول الوديان، والتي تعرف تنظيما دقيقا لتوزيع المياه عبر سواقي، تختلف مسافاتها حسب أهمية الأرض المسقية، وحسب امتداد تلك السواقي التي تكون دوما خاصة بالقرى المتواجدة على الوادي، وأحيانا تشترك في استغلالها أفخاذ القبيلة الواحدة، بل تتجاوز ذلك لمشاركة قبائل أخرى في ذلك الاستغلال.

وينتج عن هذا التزايد في استغلال مياه السواقي الممتدة بين أطراف متعددة، الاضطراب أحيانا في ضبط التوزيع، مما يؤدي إلى تدخل السلطة لحسم الموقف، وإن كان تدخلها في الواقع لا يتأتى إلا حينما لا تستطيع الأطراف المتنازعة، التحكم إلى الأعراف التي درجت عليها، والتي تحولت إلى مجموعة من المبادئ العامة تراعى تطبيقاتها، ومثال من تلك المبادئ كما يذكر بيرك *Berque* مراعاة تدرج التقسيمات السكانية على طول الوادي، من أعلاه إلى أدناه، مما يجعل دوما حق التصرف في المياه للأعلين من السكان عن الادنين منهم، بحيث يكون مبدئيا استغلال مياه الوادي للأعلين، وما فضل عنهم يكون من نصيب الأدنين، ودرجة العادة على ذلك"[5].

بالإضافة إلى ما ذكر في الأقوال السابقة حول النزاع على الماء، هنا في منطقة الغرب يعرف النزاع على الماء أسبابا ومشاكل أخرى بالإضافة إلى هذه المشاكل، من بينها : سرقة الماء ليلا للتخفيف من أداء فاتورة ماء السقي الثقيلة والمرتفعة.. كما أن توسيع شبكة الري قد عرفت تقدما ملحوظا على المستوى التقني والتحكم في عملية التوزيع في المحطات الأساسية للتوزيع والمراقبة.. فإن بعض المسؤولين، بالرغم من

هذا، يلتجئون إلى أفضلية وأسبقية بعض الفلاحين عن البعض الآخر.. تحريف اتجاه ماء السقي من طرف بعض اللصوص لصالح مزروعاتهم.. يؤدي إلى عدم استفادة المستفيدين الحقيقيين وإلى ارتفاع أداء فاتورة السقي.. مما أدى بدوره إلى النفور من الفلاحة المسقية والاعتماد على الأمطار الطبيعية. وهكذا أصبحت سياسة السقي تشكل عائقا كبيرا في وجه الفلاح الصغير والمتوسط، وتكلفهما أكثر من اللازم.. على عكس الفلاح الكبير الذي يستفيد دائما من سياسة السقي، قديما وحديثا، على حساب الفلاح الصغير والمتوسط.. كما هو معروف هنا في منطقة الغرب وغيرها. بالإضافة إلى امتيازات أخرى، يستفيد منها الفلاحون الكبار على حساب الفلاحين الصغار والمتوسطين.. كما يتجلى ذلك في اختيار الفلاحين المستفيدين من زيارة الخارج قصد "الاستطلاع" على الفلاح والفلاحة في البلدان الغربية، مثلا، وكذلك الاستفادة من الجوائز التشجيعية.. ومن احتلال المراكز الأولى على مستوى وزن المنتوجات وجودتها ودرجاتها.. في المعامل والشركات.. بحيث يكون المستفيد الأول في هذه العمليات، وفي الغالب، هو الفلاح الكبير وبجانبه الفلاح الذي له واسطة معينة.. وذلك على حساب الفلاح المهمش المظلوم والمقهور...!؟!

الفصل الثاني: إشكالية الاستعمار والفلاحة الصناعية الحديثة في الغرب:

يصعب الحديث عن إشكالية الفلاحة في منطقة الغرب وعلى الخصوص في مشرع ابن القصيري وضواحيه بدون الحديث عن الاستعمار وعن سياسته التسلطية والاستغلالية وعن مخلفاتها الخطيرة التي سرت في جسم المجتمع البدوي الغرباوي بشكل أو بآخر. وهذا يعني أن غياب الوجود الذاتي للاستعمار الفرنسي، مثلا، هنا، لا يعني إطلاقا غياب سياسته وأهدافه المخططة والمرسومة منذ وقت طويل، أي منذ دخوله إلى الدول المستعمرة، حيث يقول عبد السلام ديرار في مجلة "الاجتهاد"[7] ص 167، حول "الزراعة المغربية في المشروع الاستعماري الفرنسي"[7]

"وهذا الاستعمار كان يعني استبدال البنى الاجتماعية والاقتصادية للمجتمع المستعمر بنمط الإنتاج الرأسمالي لتسهيل ربطه بالمراكز الامبريالية. ثم إن هذا الإستبدال الذي كان يؤدي إلى تفتيت علاقات الإنتاج القديمة، وكل ما يترتب عليه على مختلف المستويات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية... وحتى الوجدانية، كان الهدف منه ربط مصير المجتمع المستعمر بالمراكز الرأسمالية وجعله يدور في فلكها من خلال إضعاف دينامية وحيوية البنيات المحلية وتعويضها بأخرى تتلاءم مع الهدف الاستعماري المنشود."[7] ويضيف قائلا في ص 169 و170 : "...، فإذا كانت وسائل القرض ضرورية منذ البدء، فإن جماهير الفلاحين كانت جد فقيرة وأراضيها خاضعة لتنظيم قانون (أراضي جماعية، أحباس، أراضي الشياع...) حال دون أن تطبق عليها حتى الأنظمة التي كانت قد وضعت لفائدة الأوروبيين أو المغاربة الميسورين بما

فيه الكفاية ليسجلوا أراضيهم"[7] ويضيف قائلا كذلك، في نفس المصدر، ص 180 : "وإن التقسيم التقليدي للزراعة المغربية إلى قطاع استعماري وقطاع مغربي هو تقسيم تقريبي وخادع، فإذا كانت كل الزراعة الأوروبية "حديثة" رأسمالية، فإن الزراعة بالوسط المغربي ليست كلها "تقليدية" ما قبل رأسمالية، إن القطاع الرأسمالي لهذه الزراعة يبدو ممتدا نسبيا غداة الاستقلال..."[7]

إذا كانت سياسة القروض الاستعمارية المتسلطة والمهيمنة.. واضحة المعالم والأهداف والأبعاد الاستعمارية بالدرجة الأولى.. فما القول بصدد القروض المؤساستية الآن، هل استطاعت أن تحل مشاكل الفلاح والفلاحة، ولا سيما الفلاح الصغير المهمش والمؤزم..!؟! ثم هل استطعنا اليوم وفي عهد الاستقلال أن نقرب من الهوة الكبيرة الموجودة بين الفلاحين الصغار والمستضعفين والفلاحين الكبار المحظوظين الميسورين !؟! من هم الذين حصلوا ولازالوا يحصلون على الامتيازات والآلات والمعدات التقنية والتكنولوجية.. بشكل كبير، حتى اليوم من الفلاحين..!؟! أليس هم الفلاحون الكبار والأغنياء!؟! ما القول في وضعية الفلاحين الصغار المقهورين المسحوقين والمتأزمين..!؟! ألسنا أمام تقسيم جديد بين فئتين أساسيتين من الفلاحين : - فئة ذات الإمكانيات وأخرى عديمتها..!؟!

لا أحد يشك في أن السياسة الاستعمارية هي سياسة تسلطية واستغلالية واستعمارية.. وأن المدافعين عنها كثيرون قد جرتهم إلى ذلك، مصالحهم ومصالح مجتمعاتهم. ولكننا نتساءل بدورنا من منظور يرفض الاستعمار وكل أنواع التسلط والقهر والتبعية.. كليا، هل استطعنا أن

نحقق للفلاح المغربي وللفلاحة المغربية، من غير تمييز، ما يجب تحقيقه على جميع المستويات.. في عهد الاستقلال والحرية.. وفي عصر التقدم العلمي والازدهار التكنولوجي والصناعي؟!

يضيف عبد السلام ديرار في نفس المصدر السابق (الاجتهاد) قائلا في ص 173 : "وإن طموحات السياسة الاستعمارية تجاه الزراعة المغربية في تجربتها الثانية لتتضح بشكل أكبر من خلال وقوفنا على خطاب *M.Marchal* الوزير المفوض المطلق الصلاحية المنتدب بالإقامة العامة في 20 يونيو 1947، حيث يحدد الأهداف الثلاثة الأساسية للمشروع : " أولا تحسين مردودية الأراضي، وتوجيه الفلاحة المغربية نحو المزروعات التي تعتبر أكثر عطاء، وإتقان تجهيز المحاصيل للحصول على رفع حقيقي لقيمتها، وتوفير مساهمتها نموذجية لانجاز مخطط لتنمية المغرب ومضاعفة وسائل العيش للسكان الذين يتضاعفون باستمرار. ومن هنا الأهمية القصوى لتنمية المنتوجات التي يكاد المغرب يعرف نقصا مستمرا فيها : الحبوب والزيتونيات والقطعان، وتلك التي تمكنه من قدرة شرائية من الخارج : غرس الأشجار، المزروعات المسقية...الخ"[7]

وإذن ما هي إشكالية الفلاحة الغرباوية على العموم والفلاحة الصناعية على الخصوص..!؟! هل استطاعت الفلاحة الغرباوية أن تتحرر بالفعل من السياسة الاستعمارية ومن الهيمنة والتبعية..!؟! امتلاك الأراضي ذات المساحات الكبيرة في مقابل ملكية الأراضي ذات المساحة المتوسطة أو الصغيرة.. وكذلك اختلاف التربة من منطقة إلى منطقة ومن جهة إلى أخرى، بالإضافة إلى اختلاف الأراضي المنبسطة والخصبة والصالحة للزراعة.. مع الأراضي الرملية أو الطينية أو الحجرية أو الجبلية..

مما يجعل الحديث عن توحيد إشكالية الفلاحة والفلاح.. في منطقة الغرب تتعقد وتتشعب أكثر مما قد يعتقد.. وهذا ما جعلنا ننظر إلى الفلاح والفلاحة في هذه المنطقة البدوية الغرباوية كإشكالية مستعصية ومتشعبة ومتداخلة (...).

وهكذا وبجانب إشكالية فئة الفلاحين الصغار والمتوسطين.. توجد فئة الفلاحين الكبار والمحظوظين.. التي استفادت من إمكانياتها ووعيها وكذلك من الوسائل والتقنيات والآليات.. للتغلب على رواسب ومشاكل ومخلفات الفلاحة التقليدية. وهكذا عملت على تطوير وعيها الفلاحي وتقنيات عملها من أجل تجاوز المشاكل المتعددة والحصول على أكثر استفادة على مستوى الإنتاج والربح..! وبالرغم من ذلك تعتبر الفلاحة الصناعية الحديثة والمعاصرة المغربية متخلفة مقارنة بالفلاحة الصناعية الحديثة والمعاصرة الغربية. ولكن هذا لا يجعلنا ننفي تسجيل تقدم ملموس على مستوى الإنتاج والجودة والتنويع في بعض الضيعات النموذجية.. ويعود هذا الاحتكاك بالفلاحة الحديثة الغربية والاستفادة منها، وكذلك إلى الإمكانيات المتوفرة لديها.. وتجدر الإشارة إلى أن فئة قليلة من الفلاحين الكبار والمحظوظين هي التي استفادت من سياسة الفلاحة الغربية الحديثة والمعاصرة، وظلت الأغلبية متخلفة عن الركب الحضاري والفكري والعلمي والتقني والتكنولوجي.. هنا في منطقة الغرب.. مما أدى بها هي الأخرى أن تعيش تحت رحمة الطبيعة وسياسة التخلف والتبعية والهيمنة الإمبريالية.. ونتيجة ذلك ضاعت مجموعة من الأراضي وكذلك الضيعات التي تعرضت للخراب والإهمال.

وهكذا وجدت الفلاحة الصناعية الحديثة.. المغربية في نظيرتها الغربية نموذجا لفلاحة "العالم الثالث" فكانت بذلك تابعة لسياسة الغرب ومخلصة لأهدافه وأبعاده.. تعمل ما أمكن لإرضائه ولخدمة مصالحه المختلفة.. يتجلى ذلك في سياسة التصدير والاستيراد، التي تستفيد منها الدول الغربية أكثر من غيرها. ولهذا، ولغيره، أثبت مرور الأيام مدى عجزها عن النهوض والتقدم.. وكذلك عجزها عن عدم القدرة بالقيام بدورها الحضاري والاقتصادي والاجتماعي والتاريخي.. لأنها في العمق لم تنطلق من واقعها لتكون بذلك ثورة فلاحية وطنية ونهضوية وتغييرية.. تثبت فيها ذاتها وهويتها، وإنما انطلقت من سياسة التبعية ومن الهيمنة الامبريالية.. التي تحارب الوعي الصحيح والملتزم والمناهض.. لها بكل الطرق والوسائل الممكنة.

إن البحث في المقارنة والحوار والاستفادة.. يقتضي وعيا بأهمية وخطورة العلاقة بين سياسة الفلاحة الحديثة والمعاصرة في دول "العالم الثالث" وفي دول "العالم المتقدم".. انطلاقا من ضرورة البحث عن إمكانية تكافؤ الفرص بين الطرفين.. وهكذا فإن بلدان "العالم الثالث" في حاجة إلى مؤتمرات ولقاءات وحوارات جادة وهادفة وفعلية ومتكافئة...الخ.

نجد في المصدر السابق "الاجتهاد"[7] ص 175 : "إن "التحديث" هنا يحمل دلالة خاصة مرتبطة أشد الارتباط بفلسفة القائم به والمصر على تحقيقه، وهو المستعمر هنا، فالأمر لا يتعلق بإرادة للنهوض بالزراعة المغربية وبالعالم القروي، وللتغيير الجذري لكل جوانب الحياة فيه، الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية، ضمن مسار لنقله من وضعية المجتمع

التقليدي إلى وضعية مجتمع حديث فعلي. بل يتعلق الأمر بخدمة مصالح استعمارية محددة."[7]

إذن، لسنا في حاجة إلى استشهادات وأدلة وبراهين أخرى لإبراز مدى خطورة الاستعمار والهيمنة الامبريالية والتبعية الرأسمالية.. لأن الواقع الموضوعي المعيش.. كان ولا زال أقوى من كل شيء. ولكننا في حاجة ماسة إلى إضافة تسليط بعض الأضواء على إشكالية الفلاحة الحديثة والفلاح الكبير والغني المعاصر.. لمعرفة هل هو على وعي حقيقي وعلمي.. لما يجري من صراع ونزاع واستلاب ومواجهات وتبعية.. بين سياسة الدول المتقدمة وسياسة الدول المتخلفة.. في كل المجالات وعلى رأسها مجال السياسة الفلاحية، التي تهمنا في هذه الدراسة المتواضعة.. لمنطقة الغرب التي تفتقر إلى التوثيق والتدوين والاهتمام..الخ.

وهكذا وفي سياق الحديث عن هذه الإشكالية الحديثة والمعاصرة للفلاحة المغربية، بإمكاننا – نسبيا- تحديد الشكل التاريخي المحدد للهيمنة الاستعمارية والامبريالية، التي فتحت الأبواب أمام فلاحة صناعية برجوازية متسلطة ومسيطرة ومواجهة للفلاحة المغربية التقليدية، وقد تجسدت في نشوء فلاحة صناعية محلية حديثة تابعة. ومن هنا السؤال الجوهري : لماذا وكيف نشأت هذه الفئة من الفلاحين المعاصرين المغاربة تحت مظلة التبعية والهيمنة الاستعمارية..!؟! وبماذا نفسر عجزها على تحقيق مجموعة من الأهداف والأبعاد.. المحلية والوطنية.. حين وجهت إنتاجها ومنتوجاتها للتصدير في غالب الأوقات!؟

إن تاريخ الفلاحة الصناعية الحديثة والمعاصرة، في منطقة الغرب، هو تاريخ يبدأ مع الاجتياح الاقتصادي والسياسي البرجوازي ومع

سياسة الاستعمار الغربي وهيمنة الامبريالية العالمية الغازية لدول "العالم الثالث" على العموم ودول العالم العربي على الخصوص، وكذلك مع نشوء فئة فلاحية لهذه الأغراض وغيرها في هذه المنطقة الغرباوية. وبالتالي كان على النظام البرجوازي الرأسمالي المحتكر والمتسلط.. من أجل "تجذير" سياسته، لا بد من تكوين أشخاص أو فئات تخدم مصالحه وأهدافه بالدرجة الأولى، وذلك من خلال علاقة التبعية الامبريالية التي تتجلى بوضوح في علاقة ارتباط هذه الفئات الرأسمالية المحلية بالرأسمالية المهيمنة، ويعود ذلك إلى مرحلة ازدهار النظام البرجوازي الرأسمالي ومحاولة غزوه الأسواق العالمية والسيطرة عليها بكل الطرق، من غير نسيان السياسة الاستعمارية التي كان من أهدافها الأساسية منذ البداية هو الاستعمار من أجل الاستغلال والتبعية.. ومن هنا يصعب، في رأينا، ربط الفلاحة الصناعية الغرباوية بالفلاحة المغربية العتيقة وبالواقع الموضوعي المعيش والمتحرك.. لأن هم هذه الفلاحة الصناعية الحديثة لن يكون هو نشأة وتطوير الفلاحة الصناعية المغربية من أجل مواجهة مشاكل الواقع الفلاحي المغربي على العموم والغرباوي على الخصوص، بقدر ما كان من أجل خدمة وتلبية مطالب ومتطلبات النظام البرجوازي الرأسمالي المهيمن والمسيطر. ذلك لأن هذه الفئات الفلاحية الصناعية في العالم العربي كله لم تنشأ تاريخيا من تطور موضوعي محلي وطني.. ولم تكن لها "ايديولوجيا" أو سياسة منبثقة من واقعها الحقيقي.. بقدر ما كانت من نشأة النظام البرجوازي والرأسمالي الاستعماري والاستغلالي المهيمن. وهذا ما أجبرها على أن لا تتطور بالشكل العلمي المطلوب قصد تجاوز سياسة الهيمنة والتبعية..

وإذن، حتى سياسة هذه الفئات الفلاحية الحيديثة التابعة.. في الواقع البدوي الغرباوي، ظلت تمارس سياستها بشكل عام في إطار سياسة النظام البرجوازي الرأسمالي العالمي.. وهذا ما جعلنا نقول، في السابق، إنه من الصعب ربط هذه الفئات الفلاحية الصناعية.. بالواقع الموضوعي المعيش والقدرة على تطويره وتغييره وتحويله.. كي يتغلب على مجموعة من المشاكل التي تواجهه.. لأنها توظف ما تجنيه من أرباح من الفلاحة المحلية والوطنية.. في واقع غير الواقع البدوي الفلاحي...!

هذه الإشكالية لا يمكن حصرها في مجال الفلاحة دون المجالات الأخرى. ومن هنا كذلك إشكالية التخلف، والكيفية التي يمكن بواسطتها التحرر منه. ومن هنا كذلك إشكالية السؤال الجوهري : هل هي إشكالية وعي أم إشكالية واقع موضوعي.. أم هما معا..!؟!.. أين تذهب الأموال التي تجنيها هذه الفئات من الأراضي الفلاحية!؟! لماذا لا توظف في تطوير الواقع الموضوعي الذي تستثمره وتستغله هذه الفئات الفلاحية الصناعية الحديثة والمعاصرة..!؟!

لقد أصبحت الفلاحة هي الأخرى تخضع للدراسات والأبحاث.. العلمية باعتبارها عنصرا من أهم عناصر الحياة البشرية وحتى الحيوانية.. وهكذا فإن غياب وعي المعرفة العلمية والوسائل التقنية والتكنولوجية.. كثيرا ما يبعدنا عن التحكم في المجال الفلاحي وعن الوصول إلى النتائج الإيجابية المتوخاة تحقيقها وهكذا نرى، كذلك، أن ضبط المعلومات المتعلقة بمساحة الأراضي الفلاحية لمجتمع ما أو منطقة معينة.. ما بإمكانه أن يساعد الباحثين والمهتمين والمسؤولين.. على التحكم والتضبط

والتحديد.. أثناء طرح إشكالية من الإشكاليات أو معرفة من المعارف..الخ.

يقول الدكتور حفيان امحمد، في جريدة الأحداث المغربية العدد 24- 18 نونبر 1998م في موضوع : تحديات التطور الفلاحي في منطقة الغرب..

(...) تبلغ مساحة منطقة الغرب 8805 كلم^2 ويناهز سكانها 1625082 نسمة كما تضم 73 جماعة منها 12 حضرية و61 قروية نظرا للطابع الفلاحي للغرب. فقد تم إحداث مشاريع تنموية نذكر منها سبو ومشروع لوكوس ومشروع سد الوحدة. سهل الغرب، شبه بكاليفورنيا المغرب ووصف بخزان المغرب للحبوب. وفي حقيقة الأمر فإن الغرب والتجهيزات الهيدروفلاحية التي عرفها جعلت منه مدارا من المدارات الأساسية في المغرب وقلبا نابضا للبلاد، ومع تشييد سد الوحدة أصبح للغرب وجها آخر جعلت منه منطقة تحتوي على أكبر سد في إفريقيا بعد السد العالي بمصر.

ففي إطار مشروع سبو 1963/1986 تقرر تعميم السقي على مساحة تقدر بـ 000 250 هكتار تم تجهيز 000 92 هكتار لحد الآن، ومع البرنامج الوطني للسقي سوف يصبح الغرب يمثل 33% تقريبا من المساحات الجديدة التي سوف تجهز على المستوى الوطني، إن هذه التجهيزات تطلبت بنية تحتية هيدروليكية جد مهمة تتكون من في العالية من : سد الكنزرة.

- موكب سبو (المتكون من السدود الآتية : إدريس الأول، علال الفاسي وسد المنع.)

سد الوحدة الذي يعد التتويج النهائي لهذه الملحمة المائية حيث تقدر الطاقة التخزينية التي بإمكان هذا السد القيام بها بـ 8,3 مليار متر مكعب.

أما في السافلة فهناك : 14 محطة للضخ وللضغط ومحطتان لنزح المياه. الصبيب الإجمالي.. 128 متر/3 د. القنوات المغطاة 97 كلمتر. القنوات الغير المغطاة 380 كلمتر. القنوات المحمولة 1800 كلم. المجاري الباطنية 336 كلم. الشبكة الطرقية 2900 كلم. الشبكة التجفيف 8500 كلم.

فبفضل هذه البنية التحتية المائية توصل سهل الغرب إلى طاقة إنتاجية فلاحية متنوعة من مختلف الزراعات كقصب السكر، أرز، شمندر سكري، قطنيات، حليب وخيرات ومؤهلات طبيعية وبشرية حيث من المنطقي واللازم وجود هذه المنطقة تتصدر مقدمة المناطق الحيوية والفاعلة في السيرورة الاقتصادية والتنموية للبلاد فإننا نجد هذه المنطقة متأخرة نسبيا عن المناطق الأخرى من المغرب."

هذه المعلومات وغيرها.. تعتبر في جوهرها مهمة وأساسية، لأنها تعتمد على وسائل وأرقام.. تقنية محددة ومدققة، لكن ما هو تقني ينبغي أن يلازم كذلك ما هو اجتماعي وسياسي وثقافي واقتصادي..الخ، وإلا فإنه سيظل لا معنى له ولا جدوى منه، إذا لم يفد المجتمع والإنسان..!؟! إن واقع المجتمع الغرباوي معقد ومتشابك.. واقع يعاني من التناقض والغموض والحيف والتسلط..الخ. وهكذا فبالرغم ما قاله صاحب المقال السابق، والذي لا ننكر قيمته التقنية، فإن الدور الذي يمكن أن تلعبه الفلاحة في الواقع الغرباوي ولا سيما البدوي منه، لم يتحقق بعد بالشكل المطلوب، كما يتجلى ذلك في الفوارق الطبقية وفي

الامتيازات وفي كل أنواع الهيمنة والتسلط. ففي المجال الاجتماعي والإنساني والاقتصادي.. فإن الهوة أصبحت تتسع بشكل خطير بين الفئة المحظوظة القليلة والفئات العريضة المقهورة والمظلومة.. التي أصبح ابناؤها يعانون من البطالة التي تعتبر من أخطر معوقات التنمية ومن بين عوامل الانحراف والإجرام وتهميش الإنسان وحرمانه من حقوقه الإنسانية. ومن هنا يصبح من المرغوب فيه، هو استثمار ما هو تقني وتكنولوجي وعلمي.. في الاتجاه الإيجابي للبلاد بصفة عامة وللأغلبية الساحقة من الناس لا لصالح الأقلية المهيمنة والمسيطرة..!؟!

وإذن فتغييب الحقيقة، حقيقة الواقع الموضوعي المعيش، لا تؤثر على حياة الناس المهمشين والمظلومين.. فقط، بل كذلك على المجتمع بأسره، بما في ذلك الفئات المحظوظة.. وهكذا كذلك، تصبح مثلا، لا منطقة الغرب وحدها هي التي تعاني، بل تمتد المعاناة إلى كل المناطق المغربية الأخرى، حين نصبح نتحدث عن المعاناة والمشاكل والأزمة.. بالمفهوم العام.

يضيف الباحث حفيان امحمد في المصدر السابق ذكره، قائلا :

"فلماذا إذن، هذا التأخير الذي تعرفه منطقة الغرب والذي يمكن أن نصفه بفصام الغرب *SCHIZOPHRENIE DU GHARB* وإيتمولوجيا تعني كلمة سكيزوفرينيا، انفصام الروح عن الجسد، فالجسد هو هذه البنية التحتية المائية والمؤهلات الطبيعية لكن روح الغرب فهي إما مريضة أو في غيبوبة أو مغيبة، ترى لماذا لم نستطع التكيف مع هذه البنية لكي نستغلها أحسن استغلال؟ فلماذا استغل الرومان سهل الغرب استراتيجيا والفرنسيون استغلوه فلاحيا واقتصاديا والأمريكيون استغلوه من الناحية

الجيو السياسية ونحن ينفلت منا سهل الغرب كما ينفلت ماؤه من يدنا إلى المحيط الأطلسي"

من غير شك إن الفهم العميق والمعرفة الدقيقة والواضحة.. لهذه التساؤلات وغيرها المرتبطة بإشكالية الفلاحة وبالواقع الغرباوي يقتضي منا كل ذلك، أن ننظر إلى الواقع الموضوعي.. بنظرة شاملة ومعمقة. بنظرة علمية وموضوعية.. بنظرة صريحة وديمقراطية..الخ. لأن التطور التقني والتكنولوجي.. في واقع يعاني من التسيير والتدبير.. وغياب المسؤولية والديمقراطية.. لا يمكنه أن يفضي إلى ما هو عليه الواقع الفلاحي الغرباوي على الخصوص والواقع الفلاحي المغربي على العموم. وإذن، ما العمل؟ وما هي الأسباب التي أدت إلى هذا الواقع المتردي ؟

يضيف الباحث الحفيان، في مقاله السابق، قائلا : " إن التحدي الذي ينتظر منطقة الغرب لم يعد في ظل التغيرات التي يشهدها المغرب والعالم تحديا فلاحيا فقط بل تحديا يجمع المجال الفلاحي والقروي والطبيعي، تحديا إنسانيا وبشريا زاد ثقله مع متطلبات هذا الإنسان نفسه إن هذا التحدي يبغض الانتقائية والارتجالية السائدة في الغرب ويروم النظام والتنظيم والانتظامية : تنظيم منطقة الغرب كجهة في النظام الجهوي المغربي والذي يعد الإطار الصحيح الذي لا مندوحة لنا عنه، استجماع القدرة التنظيمية لاستغلال الموارد البشرية والطبيعية والمجالية للمنطقة، حل أزمة القدرة التنظيمية سواء على مستوى المؤسسات التي لها تدخل في الشأن الفلاحي/القروي/ الطبيعي وذلك بالارتكاز على التواصل الجيد، الإعلام والبحث العلمي والتعامل الإنساني مع مستعملي هذه المؤسسات، أو على مستوى الفلاحين والقرويين كتنظيمهم في جمعيات

وتعاونيات منبثقة منهم قصد تعزيز قدرتهم التفاوضية مع كل المؤسسات من أجل حل مشاكلهم الإدارية والاقتصادية والتجارية.. إن هذا ما هو إلا غيث من فيض الانتظامية والذي يتطلب في حقيقة الأمر، ثورة تنظيمية في كل المجالات وتخليقها، علما بأن النظام أساس كل نجاح وأرضية خصبة لتحقيق الملحمات."

بعد أن استعرضنا وجهة نظرنا ووجهة نظر الباحث حفيان امحمد حول إشكالية الفلاحة بمنطقة الغرب.. والأهداف المتوخاة تحقيقها والخطط التي ينبغي وضعها وكذلك الوسائل والطرق التي ينبغي اتباعها كذلك قصد تحقيق ما نتوخى تحقيقه.. غير أن هذا لا يمكن أن يتحقق بدوره إلا بالوقوف على أهمية معرفة الواقع الفلاحي الموضوعي وعلى حجم مشاكله ومتطلباته والإمكانات البشرية والمادية.. التي بإمكانها أن تساعدنا على تحقيق هذا المشروع الهام والأساسي.

وإذن لا بد من نهج سلوك ديمقراطي في المجتمع بصفة عامة وفي مجال الفلاحة بصفة خاصة وفي الواقع الغرباوي بصفة أخص، إذا ما أردنا بالفعل أن نخرج من أزمة التخلف التي تقيد واقعنا المعاش وتشل من قدرتنا على الإبداع الحر وعلى العمل الجاد والهادف إلى التحرير الفعلي...!؟!

نجد في مجلة "نوافذ" ص 21 و 22، تحت موضوع "السياسة الفلاحية والتنمية القروية بالمغرب" نجيب أقصبي.

3" - التنمية القروية" شرط للتنمية الفلاحية

تكمن المفارقة الكبرى "للحالة المغربية" في كون المغرب قد نهج، خلال ثلاثة عقود، سياسة أعطت الأولوية للفلاحة وأهملت العالم القروي! طبعا، كما أوضحنا ذلك، ليست المفارقة إلا ظاهريا لأن

المشكل يكمن بالضبط* في اختيار "هوية" هذه السياسة. لقد تركز جوهر هذه السياسة على الفلاحة السقوية بواسطة التجهيزات المائية الكبرى مما أدى إلى تركز موارد هائلة في مجالات وسكان ومنتوجات محدودة بالضرورة وبالتالي إلى تهميش "الباقي" يعني بالجزء الأساسي من العالم القروي...

وتتجلى نتيجة هذا الاختيار اليوم بشكل مأساوي حقا، فباستثناء بعض "الجزيرات" المزدهرة نسبيا (الدوائر السقوية) ما زال العالم القروي في المغرب يتخبط في حالة من التخلف العام والفقر الحاد والمؤثر. وتتظافر جميع المؤشرات وتشهد على هول الفقر ونقص البنيات التحتية والتجهيزات الأساسية الاقتصادية والاجتماعية على حد سواء...

وهكذا يأوي الوسط القروي 72 % من فقراء البلد، وحسب الدراسات الدقيقة التي أنجزها مركز الدراسات والأبحاث الديموغرافية فإن 51,3 % من القرويين "مهمشون" أو في حالة صعبة أي 6,5 ملايين من الأشخاص في سنة 1995 يعيشون – لكل مصاريفهم – بما قدره 16 درهم في اليوم. كما أن 57 % من التجمعات السكنية القروية لا تتوفر على أية بنية تحتية للنقل أو للولوج إليها وهو ما يؤدي إلى عزلتها؛ و 70 % إلى 85 % من السكان القرويين لا يتوفرون على التوالي لا على الماء الشروب ولا على الكهرباء (38 % من الأسر تستنير بالشموع!)، وفي مجال التعليم، ما زال 67 % من السكان القرويين أميين (وتبلغ هذه النسبة 89 % فيما يخص النساء) و54 % من الأطفال البالغين سن التمدرس لا يذهبون إلى المدرسة، وعلى مستوى الصحة والحماية الاجتماعية فإن الوضعية أكثر هولا : 93 % من السكان القرويين لا يتمتعون بالعلاجات الصحية و 72 % و81 %

من الولادات لا تستفيد على التوالي من أية عناية قبل الولادة ولا من أي مساعدة عند الوضع إذ ما زالت وفيات الأطفال تبلغ 104 في الألف. وأخيرا لا يستفيد السكان القرويون من أية حماية اجتماعية وخاصة من أي نظام للتغطية الطبية"[8]

لا أحد يشك اليوم، في أن منطقة/(جهة) الغرب، قد عرفت تحولات وتغيرات وتطورات إيجابية وأخرى سلبية. ولكن الجدير بالذكر، هو أن رغم ما قيل ويقال عن هذه الجهة/المنطقة الغرباوية فهي لا زالت تعاني من مشاكل التخلف بمفهومه العام. وهكذا على سبيل المثال لا الحصر، فبالرغم من تحويل الفلاحة من "التقليد" إلى "التحديث" : قصب السكر، الشمندر، الفواكه، البواكر، الخضر.. ومن الآلآت والأدوات التقليدية كالمحراث الخشبي، والحيوانات والزراعة باليد والاعتماد على الأمطار الطبيعية..الخ. إلى الآلآت والوسائل.. الحديثة والمعاصرة، والاعتماد على السقي لبعض الأراضي وليس لكل الأراضي..الخ. فإن هذه الفلاحة لم تحقق الاكتفاء الذاتي المحلي أو الوطني.. ولم يستفد من الإنتاج المتنوع والمتعدد الإنسان الغرباوي على الخصوص والمواطن المغربي على العموم، في الغالب، بقدر ما تكون الاستفادة هي الأخرى، استفادة طبقية أو فئوية تحتكرها "العولمة" بمفهومها العام !؟!.

وهكذا، فإن أغلبية الدراسات والأبحاث والقراءات.. (القليلة) التي اهتمت بمنطقة الغرب (حتى الآن)، اقتصرت على الوصف والتصوير.. كما هو متداول – في الغالب – في السياسة الرسمية التي تعمل بكل الوسائل إلى ذكر الإيجابيات وتغييب السلبيات الكثيرة والخطيرة التي أضحت تشكل خطرا على الوطن والمواطنين.

ويقول الأستاذ عبد القادر هرادي في جريدة "الملاحظ الجديد"

"قراءة أولية في إشكالية التنمية بين الإدارة المحلية والجهوية.

جهة الغرب، اشراردة، ابني احسن نموذجا/النشاط الإقتصادي الفلاحة قوام الاقتصاد الجهوي.

جهة مرصودة للفلاحة

تبلغ المساحة الإجمالية لجهة الغرب – الشراردة – بني حسن 893.860 هكتارا، ممثلة بذلك 1.2 % من مساحة المملكة. وتقدر مساحة الأراضي الصالحة للزراعة ب 606.977 هكتارا. تعتبر الجهة ذات مؤهلات فلاحية ضخمة من الأراضي القابلة للتهيئة التي تصل الى 27.500 هكتارا، أغلبها يوجد بسهل الغرب (250.000 هكتار)، أما الباقي (23.500 هكتار) فهو تابع للمكتب الجهوي للاستثمار الفلاحي باللوكوس، وتبلغ مساحة الأراضي المهيئة والمسقية بالتوالي 119.000 هكتارا و6.500 هكتارا.

يجب التذكير بأن سهل الغرب، نظرا لتوفره على مؤهلات فلاحية مهمة، هو موضوع مشروع إعداد هيدرو- رزاعي طموح، يهم 250.000 هكتارا (25 % من الرنامج الوطني للري بالدوائر المسقية الكبرى)، منها 119.000 هكتار مسقية ومجهزة حاليا (48%). إن مختلف الدراسات التي أنجزت بمناسبة تهيئة مختلف القطاعات، أظهرت مردودية ذات نسب داخلية مهمة، الشيء الذي شجع الممولين على تمويل مشاريع التهيئة.

كما أصبحت القيمة المضافة للهكتار المجهز تصل إلى 20.000 درهم. يضاف إلى هذا ري القطاعات المجهزة بات مؤمنا حاليا بفضل

استغلال سد الوحدة الذي شيده جلالة الملك الحسن الثاني رحمه الله في مارس 1997.

والفلاحة بهذه الجهة مدعوة إلى تأمين وظيفة محرك التنمية الاقتصادية لمدة طويلة، إذ تشغل الانشطة الفلاحية 143.460 أسرة (72.784 أسرة بإقليم القنيطرة و70.676 أسرة بإقليم سيدي قاسم)، أي ما يعادل 1.000.938 فردا. كما تمون الفلاحة قطاع الصناعة الغذائية النشيط الذي يتضمن 89 مؤسسة (16 بإقليم سيدي قاسم و73 بإقليم القنيطرة).

من جهة أخرى، تمتاز الجهة بموقعها المركزي بالنسبة للمراكز الاستهلاكية الكبرى : الدار البيضاء، الرباط، طنجة، وكذا بوجود شبكة طرقية وسككية تسهل الاتصال مع باقي المدن ومع أوربا. وقد عزز هذا المؤهل الأخير بإنشاء الطريق السيار طنجة – الدار البيضاء.

وبالمقابل، فإن استثمار الثروات الترابية للجهة، ورغم التقدم الذي طرأ جرى في ميدان السقي وعصرنة التقنيات الزراعية، يصطدم بعوائق مرتبطة بالنظام العقاري وكذا ببنية الملكية.

عوائق مرتبطة بالبنيات العقارية

<u>جدول :</u> الأنشطة العقارية بمناطق تدخل المكاتب الجهوية للاستثمار الفلاحي للغرب واللوكوس والمديرية الإقليمية للفلاحة.

النظام	م ج س ف ع		م.إ.ف		م ج س ف ل		المجموع	
	المساحة	(%)	المساحة	(%)	المساحة	(%)	المساحة	(%)
الملك	189.400	31	114.498	78.3	30.672	72.7	334.570	41.6
الجموع	216.600	35	14.204	09.7	7.606	18.0	238.410	29.6
أملاك الدولة	33.400	05	2.652	01.8	955	02.3	37,067	04.6
الملك الخاص للدولة	48.200	08	-	-	- -	-	48 .200	06
الإصلاح الزراعي	41.800	07	8.402	05.7	2.838	06,7	53.040	06.6
الأملاك الغابوية	85.700	14	-	-	-	-	85.700	10.65
الأحباس	900	-	6 .516	04.5	·102	0.03	7.518	00.95
المجموع	616.000	100	166.554	100	42.173	100	804.445	100

المصدر : المكتب الجهوي للاستثمار الفلاحي الغرب (م.ج.س.ف.ل)، المديرية الإقليمية للفلاحة (م.إ.ف).
موسم 97 - 1998

وما زالت الأرض بجهة الغرب – اشراردة – بني حسن محكومة بقوانين وأنظمة لا تضمن حماية الملكية، مما يصرف الفلاحين عن القيام بمشاريع استثمارية على المدى البعيد. إذ أن ما يقرب من40% من المساحات تابعة لأراضي الجموع والحبوس أو الإصلاح الزراعي.

وتجدر الإشارة إلى أن المكتب الجهوي للاستثمار الفلاحي للغرب، بتعاون مع وزارة الداخلية، قد قام بمشروع نموذجي لتمليك أراضي الجموع المتواجدة بالقطاعات المجهزة بالمناطق المسقية. وقد شملت هذه العملية حوالي 15.000 هكتارا تم توزيعها على شاكلة قطع أرضية مجدية اقتصاديا لفائدة مستحقيها. وتستحق هذه العملية أن تتم مواصلتها وذلك بغرض حماية الملكية وتشجيع الاستثمارات على المدى المتوسط والبعيد. كما أن آثارها الاقتصادية والاجتماعية لا تستوجب الإثبات، علما أن الأراضي الجماعية تمثل ما يقرب من 30% من الأراضي الصالحة للزراعة. يضاف لهذا العائق عائق مرتبط بحجم الاستغلاليات

جدول : توزيع الأراضي حسب حجم الاستغلاليات

حجم الإستغلاليات	المكتب الجهوي الوطني للإستثمار الفلاحي للغرب		المكتب الجهوي للإستثمار الفلاحي اللوكوس	
	المساحة %	الاستغلاليات %	المساحة %	الاستغلاليات %
أقل من 5 هكتارات	23	69	27	83.3
5 إلى 20 هكتار	32	26	30	13.7
أكثر من 20 هكتار	45	5	43	3
المجموع	100	100	100	100
المصدر : المكتب الجهوي للاستثمار الفلاحي للغرب والمكتب الجهوي للاستثمار الفلاحي اللكوس				

يتضح أن أكثر من7 استغلاليات من بين 10 تدخل في منطقة نفوذ المكتب الجهوي للاستثمار الفلاحي للغرب و 8 من 10 بمنطقة تدخل المكتب الجهوي للاستثمار الفلاحي لللوكس بها أقل من 5 هكتارات، وتشمل حوالي ربع المساحة الصالحة للزراعة، هذا النوع من الاستغلاليات لا ينسجم إلا قليلا مع العصرنة، وهذا يرجع عادة إلى تقسيم الاستغلاليات إلى عدة مشارات.

أما الاستغلاليات المتوسطة والكبرى، فتضم معظم الأراضي (أكثر من 73% من الأراضي الفلاحية الصالحة) وتوفر إمكانيات أكثر لعصرنة الفلاحة.

ملحق : تأملات في إشكالية الفلاحة الغرباوية...

- قصص من الواقع الفلاحي الغرباوي.. بوسلهام الكط.

1 ـ قصة : الأرض

تعودت عيناي وأنا عائد من المدرسة على رؤيتهم واجمين فوق الدمن، يتحدثون عن مشاكل الأرض، لا يبالون بالجراثيم والحشرات التي تنهش أجسادهم القوية.

تعودت عيناي رؤيتهم وهم يسيرون تحت الأمطار الغزيرة المنهمرة، وتحت شدة الحرارة المفرطة.. لأنهم أحبوا الأرض والماشية..

في هذه البادية المغمورة بالحب والإخلاص للأرض.. ولدت وحضنت وتربيت.. رغم مطاردة الأعداء، الذين حاولوا أكثر من مرة أن يسرقوا مني ذكريات اللعب بين البساتين والحقول.. ذكريات قطف الأزهار والثمار. تعلمت من ناسها الحب والاحترام والتقديس.. لا حب الغمز والأنانية.. بل حب الوقار والتضحية والإخلاص.. حب يرفض الخيانة والاستغلال والعبودية.. إنه حب الإنسان والأرض.

.. كنت أتحدث مع صديقي في الساحة، إذ بالمعلم يدخل من الباب الصغير الضيق للمدرسة، وعلامة القلق بادية على ملامحه. كان يحمل بيده اليمنى محفظته العتيقة السوداء، وتحت إبطه المرهق، الأيسر كومة من الدفاتر. ومن خلال حركاته أدركت أنه كان يبحث عني وسط التلاميذ. مشى قليلا ثم توقف في وسط الساحة الفسيحة.. اتكأ على جذع شجرة أفقدت أوراقها في فصل الخريف ليدخن سيجارة من نوع رديء الذوق. وأنا أقترب منه، وجدت وجهه قد ضاع وسط الدخان

الكثيف.. حييته بإجلال واحترام.. رد التحية بالمثل، ثم قال لي : - عن أي شيء أردت أن تحدثني بالأمس..!؟!

قلت : أريد يا معلمي أن يعيش أصدقائي التلاميذ قصة الأرض بالفعل.. أن يروا الفلاح وأعوانه، وهو يحرث الأرض ويزرعها، ولما لا يحصدها...!؟!

قال لي بابتسامته المعهودة.. سأرى في الأمر يا ولدي...!

دق الجرس معلنا عن الدخول إلى حجرات الدرس.. دخلنا بنظام ثم دخل من بعدنا المعلم، الذي كان يجر جسده الهزيل إلى صفوف فصله النائم، وهو يمر بين صف وصف مخترقا المقاعد المكتظة بالتلاميذ. وفي آخر الحصة أخبر التلاميذ بأنهم سيخرجون في رحلة إلى خارج المدينة.. ليتفقدوا أحوال البادية هناك. .. عدت من المدرسة – كما هي العادة – وقتئذ كان فصل الصيف يشرف على الأبواب. وأنا أمشي في الطريق الممتدة من المدرسة إلى البادية. كان العرق يتصبب من جسمي كله، حتى تبللت ثيابي، مع ذلك، كانت الفرحة تغمرني، بسبب استجابة المعلم لدعوتي. وأنا لا زلت أسير، بدأت خطواتي تتثاقل، حين أشرفت على الدوار الكبير، الذي بدأ يفوح برائحة طيبة جميلة.: أنستني عياء الطريق.. تناهت إلى سمعي أصوات السكان وهم عائدون من العمل.

.. دخلت منزلنا المحاط بالأشجار الكثيفة؛ التقيت أخي الأكبر والمسؤول عنا.. ابتسم ابتسامة جميلة في وجهي، مما جعلني أحس براحة البال، فشرعنا نتحدث.. ازدادت فرحتي وقت رحب بفكرة زيارة معلمي وأصدقائي البادية.

.. امتددت فوق الحصير.. كثرة العياء أجبرني على النوم المبكر العميق. بدأت احلم أحلاما جميلة.. أحلم بوصول الحافلة التي كانت تحمل المعلم والتلاميذ إلى البادية، والسكان يرحبون بالزوار ويشرحون لهم كل ما يتعلق بالأرض وبالماشية. انتابتني دهشة عظيمة.. ذعرت لما تكاثرت الأصوات واختلطت. وأنا أبحث عن مسلك لألتقي بمعلمي وأصدقائي في الحلم، طار النوم من جفوني، وقمت واقفا أسأل أختي..

جلسنا تحت السقيفة نتبادل الكلام. انشرح صدر أختي لما حدثتها عن موعد الزيارة. وإذ نحن كذلك، حتى دخل علينا أخونا الكبير الخليفي، الذي جلس بجانبي وطلب من أختي أن تهيء لنا براد شاي منعنع غرباوي. أحسست بنشوة الفرح تغزو جسمي كله.

تأخرنا في السهر تلك الليلة، وإن كنا في البادية ننام مبكرا. بقيت أفكر وأتأمل في ذلك الكلام الذي سمعته من أخي وأختي حول الاستعمار والمتعاونين معه.. وعن نزع الأرض من أصحابها بالقوة.. مما جعلني ألا أتذوق حلاوة النسيم الجميل، نسيم الفجر الذي كان ينذر بقدوم نهار يحمل أسرارا لهذا العالم المريض...!

وقبل طلوع الشمس، شمس ذلك اليوم، خرج الرعاة وراء قطعانهم وهم ينشدون أغاني الصباح ذات الطابع الشعبي.. تمنيت لو كان معلمي وأصدقائي قد جاءوا في هذا اليوم لزيارة باديتنا ومشاهدة تلك الصور الرائعة في ذلك الصباح الجميل. وأنا كذلك أفكر، أحسست بالنوم يثقل جفوني.. طرقت باب المنزل بقوة.. فتحت أختي، وبادرتني باندهاش : - ماذا بك يا أخي...!؟!

- نظرت إليها بأدب وكأني أطلب منها السماح على هذا التصرف، ثم توجهت إلى غرفتي لكي أنام. غرقت في سبات عميق إلى أن تناهت إلى سمعي أصوات أصدقائي من داخل الحافلة وهي تردد مع المعلم :

" عليك مني السلام — يا أرض أجدادي
ففيك طاب المقام — وطاب إنشادي
عشقت فيك السمر — وبهجة النادي "

.. ركبت معهم الحافلة.. توجهنا إلى الحقول لمشاهدة عملية الحصاد، والمعلم يشرح لنا موضوع قيمة الأرض عند الفلاح.. بقينا كذلك، إلى أن أوشكت الشمس على الغروب، من غير أن نبالي بالجوع.. رجعنا إلى منزلنا في الدوار، الذي كانت سقيفته مفروشة.. تناولنا العشاء جميعا. وبقينا نتحدث إلى أن بدأت الديوك تصيح ثم تلتها العصافير تزقزق.. معلنة عن انبلاج الفجر الجميل.. الذي كان ينتظره الجميع بلهفة كبيرة. وقتئذ هتفنا بصوت واحد : - أمنا الأرض.. عشيقتنا على الدوام.. إننا سوف لا نتوانى في خدمتك والإخلاص لك..!؟!

2 ـ قصة : الراعي والغنم

... تعودت عيناي رؤيته في الغروب لا في الشروق، وهو ينتعل حذاء البراءة الأصلية.. يدوس برجليه الحافيتين مدنسات الحياة اللئيمة. كان يشدو بنايه الحزين، أعذب أناشيد الرعاة، ينفخ فيه الآلآم والهموم التي تسربت إلى قلبه منذ صغره.

... تعودت عيناي رؤيته في الظلام لا في الضياء، وهو يرمي بمحفظته على الحصير الرث المثقل بغبار البيت الضيق المختنق، عند عودته من المدرسة إلى الدوار. هو ذا التلميذ/الراعي في شكل بطل خيالي/واقعي يتفقد أحوال الدوار.. يحمل فوق كتفيه النحيلتين عصا يهش بها على الغنم، يتجه نحو الوادي، هاربا من قساوة القيظ ليتظلل بالأشجار الممتدة على ضفة النهر العظيم.. وقد نسي المدرسة والدراسة.. ولم يعد يتذكر سوى : "وي مسيُو" و "نعم ألسِّي" كلما أمر بقيام فعل من الأفعال...!؟!

.. وأنت تمر على الطريق الرئيسية، ترنو إليك من بعيد، الضيعة ذات الشكل المقوس والسقف ذي اللون الأحمر القرميدي، ترخي أجنحتها المشوكة على أراضي شاسعة. منظر جميل وفتان تزينه البساتين الممتدة.. إنه جزيرة العشاق التائهين.. هذا هو المكان الذي جاء إليه الراعي المثقل بالأحزان، وهو يرتدي جلابة رثة متسخة.. ينتعل الحفاء في كل الفصول.. بدل صداقة الناطقين من الكائنات الحية بصداقة غير الناطقين. سألته ذات مرة عن الضيعة المتغطرسة.. أجاب وقلبه يعتصر دما وألما : هنا تبدو إليك الغرائب والعجائب في لباسها الشفاف.. وهنا يصاب السر المفضوح بالذعر، حين تطارده التناقضات المتفجرة. هذه الضيعة هي التي كلفتني

بحراسة هذا القطيع من الغنم، وهي التي منحتني هذا العدْل، الذي يوجد به خبز الشعير وقنينة ماء.

.. كنت قد طويت المسافة الفاصلة بين الطريق الرئيسية والضيعة، بدون عناء. وأنا أدخل إلى عمق جزيرة البساتين، إذ، بي أرى رب الضيعة لا يكاد يغادر الطاولة المستديرة المملوءة.. الموضوعة تحت سقيفة الدار، كما لا تكاد سيجارته الطويلة الغليظة، لا تغادر شفتيه إلا عند احتراق أصابعه. كنت أراقبه من تحت شجرة كثيفة ومتدلية الأغصان.. لحظات ويمتطي حصانا بدينا.. كان يرتدي لباس "رعاة البقر" يحمل في يده اليمنى مخصرة يضرب بها البشر والحيوانات.. لم يكن يتفوه إلا بالكلمات النابية الدنيئة.. التي ورثها عن الذين كانوا يقولون للمواطنين الأصليين والمخلصين.. "كوشون" أو "ميرْد"...!؟!

.. تتسع دائرة السؤال، حول المزروعات، التي نمت ، لما تسلل إليها "راعي البقر" وهو يهرول في اتجاه راعي الغنم، الذي ذعر حين رآه.. فكر الراعي في الرحيل إلى مكان آخر مغسول أصلا، لكنه وجد أجنحته متكسرة. وإذ هو، كذلك، يعيش في زمن الضيم والمآسي.. زمن الفواجع والمظالم.. كان "راعي البقر" يتفقد أحوال الضيعة، وفي طريقه وقعت أرجل حصانه الأمامية، في المصيدة، التي وضعها راعي الغنم.. سقط الحصان بعنف على الأرض، ثم تلاه الرجل البدين، الذي كان يدخن سيجارته المشهورة. بعد لحظات وجيزة شبَّ حريق مهول في حقول وبساتين الضيعة، ذات الشكل المقوس، والسقف ذي اللون الأحمرالقرميدي...!؟!

3 ـ قصة : الراعي والمصور

.. أوشكت الشمس الغاربة أن تودع الراعي وقطيعه، وبدا جمال الشفق يضيع هاربا من العيون المتلهفة، شيئا فشيئا، وقت بدأ الليل يهاجم النهار، ويرخي أسداله على هذا العالم ومن فيه..!؟!

.. غياب الشمس كان إيذانا، لغياب الأمن والأمان.. ومنذرا بهجوم زمن الرعب المهموم، اللئيم.. إنه الزمن الذي تقوده الذئاب المفترسة الحاقدة.. المبتزة السفاكة. سرى الرعب في جسم الراعي، وأحس بحلول الخطر يداهمه.. آنئذ، أجبر على مغادرة الحقول والأعشاب والأزهار.. في اتجاه القرية النائية.

وهو يمشي بخطوات هاربة تائهة.. لم يكن يشعر بوخز الشوك، وهو يدمي الأرجل الحافية.. بل كان ينشد أغاني الرعاة ليتناسى الرعب الذي سكن جسمه. مطاردة الأشباح المزعجة، حولت خطواته إلى وثبات هاربة وخائفة أكثر من ذي قبل. لم يهدأ له بال، ولم يحس بالراحة والاطمئنان، إلا في الوقت الذي أخذ يسمع فيه نباح كلاب القرية المهمشة. أدخل قطيعه إلى الزريبة. تناول الخبز والحليب في دار مالك القطيع.. بعد ذلك رجع إلى الزريبة ليحرس القطيع مع أصدقائه الذين تكوّموا وهم يتحدثون عن ذكرياتهم المرة. اختلطت الأصوات وكثرت التدخلات، وإذ براع تقدم به السن أكثر من رفاقه، يرسل تأوهات، وكأنه طعن من الخلف يصرخ قائلا : - أين الليالي التي مضت، كما مضى أهلها – رحمهم الله – حين كانت هذه القرية من أجمل القرى، وحين كان الخوف نفسه يخاف منها..!!

.. هنا كانت تتفجر براعم الأشجار العظيمة. وهنا كانت ترقص الروابي الخضراء في الصباح والمساء. وهنا كان يغني النهر الجميل الوديع بدون انقطاع. سكت قليلا ليبتلع ريقه ثم استأنف كلامه: .وتحت هذه الشجرة المتدلية الأغصان، الوارفة الظلال، كان جدنا الأكبر يصلي ويتلو بعض الآيات من القرآن، كل يوم – تضيف جدتي – وفي إحدى ليالي الخريف.. كان جدنا جالسا فوق هضبة النهر الوديع.. فاجأته "قوة خفية" حين قدمت له محراثا ذهبيا.. اندهش جدنا الأكبر وعجز لسانه عن الكلام..!؟!

.. جدنا الأكبر لم يكن أناني الطبع، بل أهدى المحراث الذهبي إلى سكان القرية طرّاً، بعد أن حثهم على العمل والتعاون.. فكان محصول ذلك الصيف ذهبا..!؟! ارتبك الرعاة المتكومون، وكذبوا الراعي الكبير السن، وقالوا له : – إذا كان الأمر كذلك، فأين المحراث !؟ وأين الذهب !؟!

قال بكل بساطة : اختفى المحراث والذهب، لأن السكان لم يعملوا بوصايا الجد!؟!

استمر الرعاة في الحديث، إلى أن هاجم النوم جفونهم المتعبة.. نام الجميع، وتبخرت آمالهم في عالم الأحلام.. بقوا كذلك، يجرون وراء الأطياف إلى أن انبلج الفجر الجميل الباسم، الذي كشف عن سر الحقيقة المقبورة، منذ زمان.. وفي منظر رائع شرع يدغدغهم وكأنه يداعب أطفالا صغارا أبرياء.. استيقظوا من نومهم العميق على أصوات الحيوانات ثم توجهوا إلى المراعي وراء قطعانهم.

كان ضباب ذلك الصباح كثيفا يتبدد ببطء، مما جعل شعاع الشمس ينسل بصعوبة إلى هذا الوجود. بدأ الراعي يتأمل الطبيعة والقطيع. كان يحاذر بداية اليوم وهو مكوم في جلابته كشيخ مسن يتأثر بسرعة للبرد المتعجرف اللئيم. وهو جالس على حافة الطريق الرئيسية يعيش في عالم عزلته الصامت، إذ بسيارة تتوقف.. خرج منها رجل يحمل آلة تصوير كبيرة. التقط صورا جماعية للراعي وقطيعه وكلبه. ارتبك الراعي، رغم أنه كان يعيش لحظات السكوت.. قاده تفكيره إلى أن يسأل المصور وقال له : لماذا تلتقط مثل هذه الصور يا سيدي..!؟!

- ابتسم المصور ثم قال : - إنها تجسد راحتي ورغبتي وأحلام صغري. ألا تعرف بأني مفكر وفنان كبير، ذو شهرة عالمية.. وسر شهرتي يكمن في مثل هذه الصور التي أصور فيها هموم الإنسانية.. هدفي هو العمل على تحسين وضعية المحرومين المظلومين والمهمشين..!؟!

- شيء عظيم في تاريخ الإنسانية، عندما نجد أمثالك، يرتمون في أحضان قريتنا ويهتمون بسكانها. لكن الصور يا سيدي المصور والمفكر والفنان.. تظل دائما صورا فحسب..!؟!

- أنت بعيد يا ولدي عن إدراك سر الحقائق..!؟!

- عجبا منك، أيها المصور، عندما تشمئز من تعرية المدفون ومن الشروق.. لماذا تخاف أنت الآخر من الليل المتطاول..!؟!

- أنا اختلف معك يا ولدي في ما تقول...!

- أعرف يا مصور أنك من عشاق الهناء والرخاء.. فنان بارع في أداء الألحان والأنغام في الصباح لا في المساء.. لكن أحلامك طالما تتبدد في

الفضاء.. هكذا يضيع منك الدواء.. أعرف بأني أصبحت بالنسبة إليك، بضاعة للبيع والشراء.. فما أغرب غطرستك ودهاءك..!؟!

غضب المصور من هذا الكلام، الذي لن يرضيه كفنان مشهور ومفكر كبير.. ركب سيارته الفخمة، تاركا وراءه الحصى يتطاير من كل جانب، ثم تابع طريقه..!؟!

4 ـ قصة : اللجنة

.. اختنقت القاعة الغاصة بالتصفيق. كانت الدموع تنهمر من العيون الشاحبة التي هاجمها دخان السجائر المسموم. غمرت الفرحة قلوب أعضاء اللجنّة المجتمعة، حين رأت أن نجاح مشروعها سيتحقق على حساب السكان الأصليين للأرض.

.. كنت طفلا صغيرا في تلك اللحظة المشؤومة من تاريخ وطني لما كان العدو ينخر قلب بلادي الغالية ويمتص دمها بدون شفقة. لا زلت أتذكر أني كنت أخاف من صوت السيارات وهي تثير بعجلاتها الغبار الكثيف، لتصيب عيون سكان وطني بالرمد.. كما كنت أخاف من الكلاب المسعورة ذات الأنياب المسمومة، وهي تعض كل من وجدته في طريقها. منذ ذلك الوقت وأنا أفكر في وطني الموزع بين لحظات النهب والمكر والاستغلال. كم بكيت على أزمنة الفخر والمجد، وهي تذوب أمام عيوني الشاحبة، كنت أقتصر في تلك اللحظة على التبول لإخماد النار الجشعة، وعلى رمي الأحجار، كلما طاردتني الكلاب الشرسة المسعورة.

.. تخرجت من الكلية، وأصبحت واعيا وناضجا، أحس بمسؤوليتي أمام نفسي ووطني.. لم تفارقني مهنة المحاماة منذ صغري، بل كان حماسي لها شديدا، لكي أدافع عن الضحايا. وبالفعل أصبحت محاميا، لكني وجدت نفسي مكبلا بقيود عصري وواقعي.. وضعت يدي فوق رأسي المثقل بالهموم.. غرقت في التفكير، حين وجدت كثيرا من المسائل معقدة ومتشابكة. أرغمت على الخروج من مكتبي الضيق المختنق، لاستنشاق الهواء النقي بضواحي المدينة.. توقفت بعيدا عن المدينة،

وأنا أتظلل تحت شجرة من أشجار البادية المجاورة، شاهدت رجلا ذا بطن منتفخ في لباس بدوي أنيق يجلس تحت ظل شجرة من الجهة الأخرى للطريق.. يراقب بصرامة السواعد المفتولة والظهور الحانية، في لباس ممزق تروي بعرقها الأراضي الشاسعة، تعمل تحت قساوة الطبيعة.

.. عدت إلى مكتبي بالمدينة وأنا أحمل في حقيبتي الأسرار المفضوحة.. أقبلت على الكلام بصراحة وجرأة، لكن التلعثم سرق مني لساني مما جعلني أحس بفقدان القدرة على الكلام أثناء المواجهة. عدت إلى التأمل في الأشياء، وجدت الحل يكمن في إعلان العصيان، قصد تحطيم الحواجز التي تقف في وجهي.. انفجرت لما استعدت صورهم القاتمة وهم يعيشون في زمن البؤس والشقاء والظلم والاستغلال. أرغمت لساني على الكلام والوضوح والجرأة في جلسة علنية كان يحضرها المظلومون والمهمشون والمستلبون..!؟!

وفي النهاية وجدت أن الإنسان، وحده، هو القادر على تغيير كل شيء في هذا العالم، بما في ذلك، الزمن، رغم تعدد أقنعته.

5 ـ قصة : الاستدعاء

.. بين أغصان شجرة الزيتون العارية، صنع الرجل العنيف والشرس.. المعروف في القرية باسم الخمار، عشا لتفريخ الاستغلال والعبودية والتسلط..

.. جلس الدرويش تحت تلك الشجرة ليحتمي من قساوة الطبيعة. بكى بكاء شديدا، وقت رأى الجفاف، وقد أفقدها كثيرا من أوراقها الخضراء. كانت عيونه تتطلع بتأن إلى أغصانها الذابلة التي أجبرت سرب الحمام الأبيض على الهروب. بدأ الدرويش يتأمل الطبيعة الصامتة في تلك اللحظة، بصمت ورهبة.. التفت إلى بنته الصغيرة التي كانت الريح القوية تلسع وجهها الجميل، بعنف، مع ذلك لم تبك الصغيرة، بل ظلت صامدة تواجه بجرأة الأطفال. أما أبوها فقد أحس بجسمه النحيل يرتجف خوفا عنها، ولكي لا يشعرها بالخطر، ابتسم ابتسامة شاحبة، لكنها كانت رقيقة ثم ضمها إلى صدره، وهو يسخر من هذا العالم الغارق في الأوهام.

فجأة ويقف الرجل العنيف الشرس بجانبيهما.. بوجهه المتجهم وبصوته الخشن أزعجهما بقوله : "ماذا تفعلان هنا..!؟!

أجابه الدرويش : لماذا، هذا السؤال، أليس من حقنا انتظار المطر كي يزيل عنا، هم وغم أعوام الجفاف..!؟!

ضحك الخمار مستهزئا منه، ثم قال : ألم تعرف بأن أرضك، هي التي جلبت لنا النحس، طيلة هذه الأعوام كلها..!؟!.. ألم أقل لك يا الدرويش، منذ زمن مضى، تعالى نضع حدا للنزاع بيني وبينك كما فعل الآخرون حين باعوا لي الأرض وارتاحوا..!؟!

.. أمثالك كثيرون يا خمار، يقتلون ويدافعون عن براءتهم بكل الوسائل.. إني أعرفك جيدا، فلا تحاول مراوغتي، ولا تضحك علي كما ضحكت عليهم..!؟!

احتد النزاع بين الدريويش والخمار.. اهتزت القرية وخرجت الأغلبية، تطالب بالصلح بينهما. دخل كل واحد منهما إلى منزله. ولم يمر وقت طويل على ذلك النزاع، حتى فاجأ شيخ القرية الدريويش باستدعاء للحضور إلى المحكمة بالمدينة. استيقظ الدريويش قبل غياب نجوم الفجر.. جلس تحت شجرة الزيتون العارية في انتظار وصول الحافلة التي ستنقله إلى المدينة.

.. توقفت الحافلة على بعد مائة متر تقريبا من الشجرة العارية.. وضع الدريويش ثلابيب جلابته في فمه، وبدأ يجري حافيا، حتى وصل وصعد الحافلة. وجد كل االمقاعد مملوءة.. ظل واقفا في الممر لا يتحدث مع أحد، حتى أمره بائع التذاكر، بأداء تذكرة السفر.. أخرج الدريويش ورقة مالية.. أمره بائع التذاكر بأن يضيف درهمين على الورقة المالية. غضب الدريويش وبدأ يسبه، لأنه لم يكن على علم بالزيادة في أوراق السفر، التي لا تتوقف..!؟!

- أجابه بائع التذاكر : أنا لست لصا.. وأنت كذلك معذور..!؟!

.. اقتصرت أغلبية أصوات المسافرين على القول للدريويش : انعل الشيطان في هذا الصباح. ضاع صوت الدريويش وسط ضجيج المحرك العتيق والأغنية الشعبية والأصوات المختلفة..!؟!

نزل المسافرون حين توقفت الحافلة في المحطة. توجه الدريويش مباشرة إلى المحكمة.. جلس فوق صخرة صلبة وضعت في ساحة المحكمة

ينتظر فتح الأبواب المغلوقة. وهو يتابع بعينيه الحائرتين خطوات الوجوه الشاحبة والعيون الذابلة، إذ بباب القاعة الكبيرة يفتح.. افتتحت الجلسة بالنداء على إسم الدريويش، الذي دخل بسرعة وهو يرتجف.. سئل عن سبب اعتدائه على الخمار، الذي لم يكن موجودا.

- أجاب الدريويش : المشكل بيني وبينه، يا سيدي، مشكل ساس الأرض..!

- سجل عليه إنه كان يتكلم في السياسة.. ضعوه في السجن حتى نبث في أمره..!؟!

- صاح الدريويش بأعلى صوته : إني أعشق أرضي يا ناس، وأعشق شجرة الزيتون التي عراها الجفاف من الأوراق...!؟!

الفهرس

المصادر :

1 – في الغمة المغربية. بنسالم حميش. سلسلة شراع.
العدد : 20. أكتوبر 1997. طنجة – المغرب –
2 – الموسوعة الفلسفية. روزنتال يودين. ترجمة : سمير كرم. دار الطليعة للطباعة والنشر – بيروت – الطبعة الأولى أكتوبر 1974. ص 39.
3 – موسوعة لالاند الفلسفية. المجلد الأول. تعريب خليل أحمد خليل. منشورات عويدات. بيروت – باريس. الطبعة الأولى 1996.
4 – مجلة أبحاث المغربية. عدد : 26 – السنة الخامسة – ربيع 1991.
5 – مجلة أمل المغربية. العدد : 9. السنة الثالثة. 1997.
6 – مجلة الطريق اللبنانية. العدد الرابع. السنة السادسة والخمسون 1997. بيروت.
7 – مجلة الاجتهاد اللبنانية. العدد : 36، السنة التاسعة. صيف عام 1418هـ/1997م. – بيروت.
8 – مجلة نوافذ. العدد الثالث، يناير 1999م. طباعة : دار المناهل – الرباط

الفصل الثالث :
أهمية صناعة الطين والنسيج...
في حياة الواقع البدوي الغرباوي!؟!

مقدمة عامة :

من غير شك، إن التراث بمفهومه العام الذي تركه السابقون للاحقين باختلافه وتنوعه يمثل في مختلف الأزمنة والأمكنة، ركيزة هامة وأساسية لكل مجتمع من المجتمعات الإنسانية.. وهذا ما يجعل الاهتمام به، في العمق، جديرا، والعمل على تطويره أساسيا، وذلك لمحاولة الاستفادة من جوانبه الإيجابية بوعي في حياتنا المعاصرة. غير أن هذا الكلام يجعلنا نواجه إشكالية عويصة – كما قلنا أكثر من مرة – ونحن نهتم بالتراث البدوي الغرباوي وبثقافته المتنوعة والمتعددة، يتجلى ذلك بوضوح في المظاهر التالية وغيرها :

- إن قسما كبيرا من تراث المجتمع البدوي الغرباوي وثقافته، قد تعرض للتهميش والإتلاف والإهمال.. ولم يدون أو يوثق بالشكل المطلوب من أجل تسهيل مأمورية الباحثين والدارسين المعاصرين والأجيال المقبلة – كما قلنا هذا أكثر من مرة..!؟!

- أغلبية الذين ساهموا في إنتاج وإثراء هذا التراث الثقافي، إما أنهم قد توفوا أو تقدم بهم السن فأصبحوا عاجزين على ممارسة هذه الثقافة مثل الحياكة/النسيج وهي الصناعة اليدوية المحلية التي كانت أكثر شهرة ومكانة في المجتمع البدوي نظرا لارتباطها بالحياة الإنسانية والاجتماعية والاقتصادية...الخ. ولأنها تجسد مجموع الأنشطة اليدوية المؤدية إلى تحويل المادة الصوفية من مصدرها الطبيعي إلى خيوط صوفية وألبسة صوفية وأنسجة صوفية.. الخ. فكانت بذلك تحتل مكانة مهمة وأساسية في حياة الإنسان البدوي ضمن أنشطته التي تدخل في إطار الاستهلاك المحلي الأساسي، وكانت من اختصاص النساء أكثر من

الرجال، الشيء الذي جعل الرجل البدوي عندما يريد الزواج، كان يشترط في المرأة أن تكون متقنة لهذه المهنة/ الصناعة الصوفية اليدوية. وقد أدى هذا، في اعتقادنا إلى ازدهار هذه الصناعة على مستوى الأنتاج والتقنية والجودة والتنوع..الخ. وما قلناه عن صناعة النسيج والمعروفة في المنطقة الغرباوية بـ "النَّجَّانْ"، يمكن قوله عن صناعة الطين التي نالت اهتمام المرأة البدوية، بالأساس، والتي كانت تتوارث أبا عن جد، كما يقال، وكانت ترتبط بالحاجيات الأسرية ثانيا، مثل صناعة أدوات الطبخ (كالحماس والطاجين والحوير والموقد والفراح والقدرة...الخ) وبالرغم من أن المرأة هي التي تلعب الدور الأساسي في عملية الإنتاج، فإنها ليست المستفيد الأول منها كما هو الأمر بالنسبة للرجل ذلك أن الألبسة الصوفية المنتوجة/المصنوعة ذات طابع رجولي في الغالب وهذا يعكس مدى سيطرة الرجل وتميزه.. في المجتمع البدوي الفرباوي..!؟!

كما يمكننا أن نلاحظ اليوم، أنه أصبح من الصعب لدى الأغلبية من السكان وعلى الخصوص النساء، استرجاع كيفية إنتاجها والتحكم والتضبط.. في إتقانها كما كان الأمر في القديم القريب، والسبب في ذلك بالدرجة الأولى في اعتقادنا، تطور وسائل الإنتاج وطرق الحياة مع التقدم الصناعي والتكنولوجي والتقني الذي جعل من الإنسان، بما فيه الإنسان البدوي (الآن) أن يكون عرضة للاستهلاك أكثر منه للإبداع والاختراع والإنتاج، وكذلك بسبب الإهمال والتهميش وعدم الاهتمام بالإنسان المنتج والمبدع.. التقليدي المحلي وتشجيعه على الإنتاج والبحث والإبداع..!؟!

يقول عبد الكبير الخطيبي في مجلة أقلام. ص 48 : ... صحيح أن كل هاته الأمور لا تخلو من فائدة لمن يريد أن يقرأ تاريخ المغرب قراءة وضعية. ولكن السؤال البعيد ما زال لم يتضح بعد، فالمغرب العتيق هذا الذي لم يعرف الكتابة ما زال حلا في جسد الشعب تتجلى مظاهره بالرغم من الأدب الرسمي. وإنها لمظاهر تتخذ في بعض الأحيان شكلا رائعا يتجلى في االأدب الشعبي وآداب الصوفية وفي الوشم والرسم التشكيلي الذي يستعمله الحرفيون وفي روعة الغناء والرقص : إنها صور تكشف عن نشوة مغرب تميل وثبته المنشأة نحو المحيط."[1]

كما يقول عبد الرحمان بن الأحمر في مجلة "دفاتر الشمال"[2] ص 73 : حول "في تطابق المغرب الثقافي واختلافه" : "من هنا يبدو أن أتباع أية استراتيجية نقدية يفرض في البداية تقويض الحديث المتعالي عن الثقافة الشعبية. الأمر الذي قد ينتهي بنا إلى الكشف عن اختلافات ناطقة وزاخرة بجذور متعددة. تشكل دلائل الشعب التي يفرض من خلالها التهميش. إنها الثقافة الشعبية تشمل مجموعة من الاختلافات التي يرحل عبرها وفيها خيال الشعب ورموزه وواقعه. إنه الحكايات الشعبية والأمثال والأساطير. والألسن المختلفة والصنائع والفنون... وغيرها. وهي مظاهر مقموعة ومهمشة أو مفلكرة في الثقافة المغربية، غير أنها ليست مغلقة على ذاتها إذ رمزيتها لا تخلو من دلالة سوسيو تاريخية، ذلك أن الشعب المغربي يرفض أن يصمت إزاء قمع المواقف المنغلقة، فيلجأ إلى تفجير مكبوتاته في تلك الظواهر."[2]

وهكذا وانطلاقا من هذه المشكلات والصعوبات والعوائق.. التي تجسدت بشكل أو بآخر في الواقع الموضوعي الغرباوي، وكذلك من

تدهور المستوى المعيشي والدخل الفردي والجماعي للمجتمع البدوي الغرباوي.. ترتبت إشكالية وضعية الأسرة والإنسان.. في الواقع المادي الموضوعي المأزوم. وهكذا يكون هدف اهتمامنا بهذين الجانبين الأساسيين في الحياة البدوية الغرباوية هو محاولة الاستفادة من عزيمة وإرادة الإنسان البدوي العامل والمنتج والمبدع والمتحدي.. من غير نسيان أو تغافل أننا نعيش في عصر متطور ومتشعب ومتشابك..الخ. كما رأينا في أقوال عبد الرحمان بن الأحمر السابقة الذكر.

إن أهمية الأشياء التي كان يصنعها الإنسان البدوي إلى وقت قريب. والآن وإن أصبحت قليلة الإنتاج. تتجسد في مدى علاقتها المنفعية المباشرة والمفيدة في حياة هذا الإنسان، حيث يدرك الفرد من خلالها الاعتماد على الذات والاستفادة من الواقع الموضوعي بأقل تكلفة وجهد.. والاستفادة كذلك من الجودة والإتقان.. لمواجهة المحتكرين والمستغلين.. الذين يعملون بكل الطرق الاستغلالية.. من أجل الربح السريع وإن أدى الأمر إلى غياب الجودة والإتقان. بالإضافة إلى أن المنتج المحلي البدوي يتمتع بقابلية واستعداد للعمل المخلص والجيد والنافع، وبالإبداع المتفرد والمتنوع.. وهو ينتج هذه الأشياء المصنعة المرتبطة بحياة الإنسان البدوي على الخصوص والإنسان على العموم، وهذا ما يقوي مكانته ودوره داخل المجتمع الإنساني، وما يعطيه أهمية وقيمة أكثر فأكثر.. ذلك أن العملية الإنتاجية اليوم تختلف عن العملية الإنتاجية القديمة. وهكذا فإذا كان الصانع القديم يصنع الأشياء أمام أفراد أسرته وأمام أفراد مجتمعه، وذلك بحكم الحياة الجماعية والمنفعة العامة بدون خلفية الاحتكار والاستغلال والربح السريع على حساب الآخر، فإن الإنتاجات والمنتوجات

المصنعة، اليوم، تصنع في مصانع ومحلات وشركات.. مغلقة، أي مقتصرة على عناصر منتجة كل واحد متخصص في مجال من المجالات أو مسألة من المسائل تصل إلى المستهلك دون أن يعرف عنها شيئا في غالب الأحيان، ومن هنا يصعب عليه فهم ومعرفة وفحص.. هذه المصنعات المستهلكة. وهنا تظهر أهمية دور المبدع المنتج في المجتمع بطريقة مباشرة تتجاوز المصلحة الخاصة والاستغلال البشع...!؟!

وهكذا ففي المجتمع البدوي الغرباوي التقليدي مثلا، كان المنتج الصانع يجسد مصلحة المجتمع والصانع بجسد ملصحة المجتمع واحتياجاته ورؤيته وأهدافه.. بالعكس من المنتج/الصانع في المجتمعات المعاصرة. بالرغم من اختلافهما. وإن كان يتمتع بحرية الإبداع والإنتاج.. خارج ما يفرضه عليه من تقاليد وعادات وأهداف عامة..الخ. وبذلك كان في المجتمع البدوي التقليدي يعمل ويبدع.. في إطار رؤية المجتمع واحتياجاته.. ومن ثمة أهمية دوره في الحياة الاجتماعية والإنسانية العامة، على العكس من الصانع/المنتج.. اليوم، كما قلنا..!؟!

ومن خلال هذه المقارنة البسيطة التي أقمناها بين الصانع.. في المجتمع البدوي التقليدي والصانع.. في المجتمع الإنساني المعاصر.. نكون قد كشفنا عن مجموعة من الأشياء السلبية والإيجابية في الحياة البدوية الغرباوية القائمة على ركائز تراثية وأخرى حديثة ومعاصرة، من غير انحياز لهذا الجانب أو ذاك. وهذا بدوره يؤدي إلى فضح العلاقات القائمة على الاستغلال والتبعية من جهة، وعلى مدى قدرة المجتمع المنتج والمبدع.. على التحرر من الهيمنة ومن الاستهلاك فقط. وينطوي كل هذا على منطق التغير والتطور والوعي الصحيح الهادف.. الذي يمكن المجتمع

من التغلب على مجموعة من المشاكل التي تواجهه، ولا سيما في المجتمعات التي تعاني من التخلف ومن النقص في كثير من الميادين وفي المقدمة التصنيع والتقنية والتكنولوجيا.. مما قادها، في الغالب، إلى أن تكون مجتمعات تابعة ومستهلكة أكثر فأكثر. وهذا المنطق أدى بدوره إلى وجود مجتمعات منتجة ومبدعة ومستفيدة.. مهيمنة ومسيطرة.. قادرة على توفير متطلباتها وتحقيق أهدافها وحاجياتها..الخ. ومجتمعات عاجزة على توفير ذلك لأفرادها لأنها مجتمعات مستهلكة وغير منتجة.. تابعة وغير متحررة. وهذا قد حصل بدوره نتيجة تطور وتنوع الإنتاج الكمي والنوعي في واقع المجتمعات المسماة متقدمة على المستوى التكنولوجي والتقني والعلمي.. في عصرنا المعاصر...!؟!

والسؤال الجوهري المطروح في هذه المقدمة : لماذا الاهتمام بالتراث الثقافي القديم بدل الاهتمام بالثقافة الحديثة والمعاصرة وحدهما لإخراج المجتمع من تخلفه..!؟!

إن الاهتمام بالتراث الثقافي التقليدي لمجتمع من المجتمعات يتوقف على العامل أو الصانع المبدع والمخترع.. الواعي والمدرك لحاجات وضرورات هذا المجتمع ليصبح مجتمعا منتجا ومستهلكا في نفس الوقت.

ففي المجتمع البدوي الغرباوي على سبيل المثال لا الحصر، وعلى الرغم من المشاكل التي يتخبط فيها بحكم محاولة الانتقال من المرحلة التقليدية إلى المرحلة الحديثة والمعاصرة في غياب مجموعة من الشروط الذاتية والموضوعية.. لمواكبة منطق الحداثة والمعاصرة على مستوى الواقع الحقيقي والموضوعي، فإن منطق الإبداع والاختراع.. الذي بإمكانه تحقيق الاكتفاء الذاتي في كثير من الميادين.. شبه غائب؛ كما أن الأمية في هذا

الواقع البدوي الغرباوي تشكل عائقا كبيرا في هذا الانتقال وفي هذا التحول والتغير..الخ. وهكذا فبالرغم من الثقافة البدوية الغرباوية التي كانت ثقافة تقليدية وليست في مستوى الثقافة الصناعية الانتاجية.. الحديثة والمعاصرة، وبالرغم من أنها لم تكن تلبي رغبات السكان والمستهلكين بصفة عامة.. كانت على الأقل ثقافة واقعية ومبدعة ومنتجة ومجددة.. قدر الإمكان.. ثقافة تحارب بشكل أو بآخر، سياسة الاتكال والكسل والاستغلال والتبعية...!؟!

وهكذا وجدنا أنفسنا ونحن نهتم بأهمية إشكالية التراث الثقافي البدوي الغرباوي أمام ضرورة إلتفات إنتباه واهتمام القارىء الواعي الغرباوي إلى غرض بسيط ومختزل لمجموعة من الأشياء التي أنتجها وأبدعها.. هذا الإنسان البدوي في بعض المجالات الحساسة، وهذا العرض البسيط سوف لا يجعلنا نقف مكتوفي الأيدي ومعقودي الألسن.. أمام سلبيات هذا التراث الثقافي البدوي الغرباوي بل لا بد من معالجته معالجة تحليلية ونقدية وتساؤلية.. لكي يتسنى لنا مواجهة واقعنا المأزوم، وذلك بالاعتماد على المنهج العلمي الهادف.. في البحث والتحليل والتوضيح والتدقيق.. وذلك بمحاولة الاقتراب من حقيقة واقع الظواهر التي نتناولها بالبحث والدراسة.

إن التراث الثقافي البدوي – كما قلنا – في حاجة إلى الاهتمام بحثا ودراسة لأن القليل الذي كتب عنه، جاء مهتما أساسا بالشكل وبأهداف معينة ومحددة.. تخدم السياسة المهيمنة والمسيطرة أكثر ما تخدم الواقع الموضوعي الحقيقي والفعلي الذي يعيشه سكان المجتمع البدوي الغرباوي.

وإذن نهدف من وراء هذا الاهتمام بهذا التراث الثقافي الغرباوي إلى توثيقه وتدوينه، خوفا، كذلك، عليه من الضياع والإتلاف.. وذلك بالتعامل معه بطريقة موضوعية نسبية وواقعية وحقيقية.. على مستوى التوثيق أو التدوين أو التسجيل.. كما فعلنا بالنسبة لمجموعة من الظواهر الأخرى التي نالت اهتمامنا في الدراسات الأخرى.. ساعين في الحقيقة إلى قراءات الواقع الإنساني والاجتماعي والثقافي.. للواقع الموضوعي المعيش الغرباوي المتعدد الأبعاد والمتنوع الأهداف، شأنه شأن المناطق المغربية الأخرى، في عدة مجالات. لذا فإننا نعمل قدر المستطاع على وضع هذه الظواهر والمظاهر.. البدوية الغرباوية في مجالاتها المختلفة، مراعين خصوصيات ظروفها الاجتماعية والاقتصادية والفكرية والتراثية..الخ، كما وجدت وما آلت إليه حتى الآن، ساعين كذلك، من ذلك إلى إمكانية الفهم والتعرف على مقومات هذا التراث، المادية والفكرية .

وهكذا، وكما نرى، أن هدف هذا الاهتمام بالتراث الثقافي الغرباوي، لا يمكن أن يحقق أهدافه النسبية، ما لم ينطلق التنظير/البحث أو الدراسة.. من محاولة الفهم والمعرفة والتحليل والوصف.. كي تتحقق جدلية التفاعل والتغيير والتطوير والتحويل والتجديد في هذا الواقع المتحرك المعاش.. مما سيكون له انعكاس، دون محالة، على تغيير وتطوير عقلية الناس وعلاقاتهم ووضعياتهم المادية والفكرية.. في إطار التحول الشامل للواقع الموضوعي العام. وهذا بإمكانه من جهة أخرى، إعطاء تصور عام لمسار مقومات ومكونات وتجليات وتفاعلات.. المجتمع البدوي الغرباوي على المستويين المادي والفكري، كما يقربنا إلى فهم ومعرفة العلاقات في إطار كينونتها وتفاعلاتها وتحولاتها ومصدر قوى.

تحركاتها وأهدافها لدى الفرد والجماعة.. وهذا يستدعي بدوره أن يكون الباحث أو الدارس.. ملما إلماما واعيا وجيدا بهذا التراث الثقافي وبإشكاليته المتشعبة، وذلك بالاعتماد على استقراء الواقع الموضوعي أثناء القراءة أو البحث أو الدراسة.. ليتمكن من التحليل المعمق والتساؤل الواعي والنقد الهادف والبناء.. أثناء عملية الاستنباط.

إن اهتمامنا في هذه القراءة المتواضعة يتمحور – كما قلنا – حول موضوع فن صناعة النسيج وفن صناعة الطين.. الذي تجسد في الواقع الموضوعي المعيش التقليدي والحديث والمعاصر، والذي بدأت فيه كثير من الأشياء المصنوعة أو المنتوجة.. من طرف الإنسان الغرباوي، هي الأخرى، تتعرض للتهميش والضياع والإتلاف.. لا سيما بعد الغزو الرأسمالي والصناعي والتقني والتكنولوجي – الذي بالرغم من إيجابياته العلمية – الذي نخر وسمم جسم المجتمع البدوي، باعتبار أن الإنسان المفكر والعامل والمبدع والمخترع والمثقف الواعي.. له قدرة على تغيير وتطوير وتحويل.. نفسه وواقعه إذا ما أراد ضمان بقائه واستمراره، كما في استطاعته أن يغير ويطور ويجدد.. وسائل إنتاجه كلما دعت الضرورة إلى ذلك، لأنه لا يرتبط بواقعه إرتباطا غريزيا وفطريا كما هو الأمر عند الحيوان، وهذه ميزة يتميز بها عن غيره من الكائنات الحية الأخرى في كل الأزمنة والأمكنة...!؟!

وإذن، إن ما نال اهتمامنا في هذه الدراسة – كما قلنا – هو محاولة توثيق فن صناعة النسيج وفن صناعة الطين بمختلف أدواتهما وأشكالهما ووظائفهما هذه الصناعات التي هي من إنتاج وإبداع واختراع الإنسان على العموم والإنسان الغرباوي على الخصوص وهو يواجه الحياة

المتشعبة والمعقدة.. ذلك أن الاستفادة من هذه المصنوعات والمنتوجات المتنوعة والمختلفة، هي في عمقها استفادة نفعية ورمزية وضرورية.. لضمان استمرار البقاء الإنساني في هذه الحياة. والإنسان بطبعه وبطبيعته.. عامل وباحث ومفكر ومبدع ومخترع ومثقف..الخ، ولكن هذا لا يمكنه أن يتحقق إلا بالفعل الإنساني المصحوب بالإرادة والعزيمة والوعي الصحيح بأهمية ذلك. وهذا يعني كذلك أن الإنسان لا يبقى على وضعية رتيبة روتينية.. بل هو قابل للتحول والتطور.. في كل لحظة من لحظاته في جميع المجالات المادية والفكرية. وهذا يتجسد في عملية التنويع الفنية التي تطبع بها الأشياء التي يصنعها الإنسان، بحيث تتخذ أشكالا متنوعة ومتعددة.. تحدد رؤية صانعها وطريقة صناعتها.. مما يضفي عليها من جهة أخرى، طابع التمييز والخصوصية في مجتمع معين أو في مجتمعات مختلفة. فبماذا تتميز هذه الصناعة الغرباوية؟ وما هي أشكالها وأدواتها ووسائلها وأهدافها؟

القسم الأول : فن صناعة النسيج :

وإن كان من الصعب إعطاء تعريف شامل ومحدد ومدقق لصناعة النسيج، لأنها تختلف باختلاف المواد المحولة (مثل صناعة نسيج الصوف وصناعة نسيج السمار وهي مادة نباتية توجد في المرجة/حوض من المياه الموجود بجانب البحر كما هو الأمر بالنسبة لمرجة مولاي بوسلهام أو في مكان منحدر تجمعت فيه مياه الأمطار أو في خندق : (*Fossé*) مملوء بالماء.. هذا النبات يتحول بفضل نسيجه بطرق يدوية بدائية إلى حصير مصنوع من السمار والشريط الذي هو مجموعة الخيوط المصنوعة/المنسوجة بدورها من نبات الدوم..)

كما يختلف فن صناعة النسيج من منطقة إلى منطقة ومن مجتمع إلى مجتمع ولهذا يصعب إعطاؤه تعريفا شاملا.ومانعا.. ومع ذلك، يمكن إعطاؤه تعريفا نسبيا تقريبيا باعتباره مجموعة متسلسلة من العمليات التي تخضع لها مواد – كما قلنا – صوفية أو نباتية.. قصد تحويلها إلى مواد مصنعة ينتفع منها الإنسان على العموم.. كما تحتاج، كذلك، إلى أدوات أخرى مصنوعة بدورها من مادة الخشب والعود.. وهي ما تعرف بـ (المرمة/ المنجج..). هذه الأخشاب تكون مثقوبة عدة ثقوب لإدخال خيوط الصوف أو الشريط فيها.. لكي تتحقق صناعة المواد الصوفية كالجلباب أو صناعة الحصير..الخ.

وتعد هذه المنتوجات المصنعة المذكورة شكلا من أشكال الثقافة الغرباوية لأنها تجسد حاجات ورؤية الإنسان، وكذلك علاقة هذا الإنسان مع الموجودات الأخرى كالطبيعة والحيوان.. في علاقات تحول

قصد الاستفادة منها. ومن هنا ندرك أهمية وعي الإنسان بذاته وبغيره وهو يواجه الحياة قصد البقاء والاستمرار. وهنا تبرز أهمية الثقافة التي تميز الإنسان عن غيره من الكائنات الأخرى.

وانطلاقا من اقتناعنا بمنطق الاختلاف والتعدد في المجال الثقافي وفي المجال الحضاري.. فإننا نؤمن ونؤكد على اختلاف القيم الحضارية والثقافية والإنسانية والمجتمعية، وهذا ما يتجسد على سبيل المثال لا الحصر، في موضوع النسيج الذي نحن بصدده، فالأزياء/الألبسة تختلف في أنواعها وأشكالها.. باختلاف الحضارات والثقافات الإنسانية. وهذا راجع بالأساس إلى الفضاء الثقافي الذي يؤثر بشكل أو بآخر على الصانع/المنتج وعلى الإنسان المستهلك/المستفيد.. وذلك على مستوى الجودة والذوق.. من خلال الأشكال والألوان والرموز والأهداف والأبعاد..الخ. وهكذا فحتى الجلباب المغربي، مثلا، يختلف في صنعه وشكله وإتقانه.. من منطقة مغربية إلى أخرى، فالجلباب الشمالي يتميز عن الجلباب الغرباوي وكذلك الجنوبي والشرقي؛ وهذا ما يعطي أهمية للخصوصية الثقافية المختلفة والمتنوعة، حتى بالنسبة لمجتمع واحد، مما يساعدنا أثناء البحث والدراسة على التقرب من فهم ومعرفة ثقافة النسيج الغرباوية، مثلا، والتي تختزل وعيا وأهدافا وأبعادا متنوعة.

إن صناعة النسيج الصوفي في منطقة الغرب بالرغم من أنها من اختصاص المرأة الغرباوية وبالرغم من المستفيد الأول منها، في الغالب، هو الرجل، فإنها تجسد رمزا ثقافيا وحضاريا وتاريخيا.. لثقافة هذا المجتمع البدوي الغرباوي من غير فصله عن الرمز الكلي الثقافي والحضاري التاريخي..المغربي. والاهتمام به، في رأينا، هو اهتمام واع

يدخل في إطار الاحتفاظ على الهوية وعلى ثقافتها.. خوفا من ضياعها وإتلافها وتهميشها.. كما قلنا أكثر من مرة؛ لأن اللباس، مثلا، هو مرتكز من مرتكزات القيم الإنسانية ونمط من أنماط الوعي الإنساني المتجسد في العلاقات والسلوكات والروابط.. كما يبدو ذلك جليا في الحياة العامة. فلباس الجلباب، هنا، في منطقة الغرب ليس رمزا غرباويا فقط، بل هو رمز حضاري وثقافي وتاريخي إنساني وعربي وإسلامي ومغربي.. مرتبط بوعي هذا الإنسان وبحياته، هو خصوصية تميز هذا الإنسان من غير أن يرفض التعامل مع الحضارات والثقافات الإنسانية الأخرى. فليس كل سكان منطقة الغرب يلبسون الجلباب فقط، بل أصبح اللباس المنتشر والسائد هو الزي/اللباس الغربي الذي فرضته الثقافة الغربية بكل الوسائل.. وهذا التداخل والتفاعل.. الحضاري الثقافي.. لا يجعلنا متعصبين ومتزمتين منغلقين.. لثقافتنا، بل على العكس إن الاستفادة من الآخر، والتعامل والتفاعل معه.. يصبح أمرا ضروريا ومنطقا واقعيا وحقيقيا، لا مجال للشك في ذلك.

إن صناعة النسيج المتعلقة باللباس أو الغطاء والفراش.. بالمعاني والدلالات والمظاهر والتمظهرات التي تطرقنا إليها تجعل منها جزءا لا يتجزأ من ثقافة المجتمع باعتبارها عنصرا أساسيا وضروريا.. في الحياة. ومن أجل ذلك كان الاهتمام بها كثيرا في المجتمع البدوي الغرباوي، لأنها وكما قلنا، ضرورة إنسانية واجتماعية وثقافية..الخ. كما أنها ترتبط ارتباطا وثيقا بالطبيعة أي بالحالة الجوية الطبيعية، كما يبدو واضحا في أنواع الجلباب، منها ما هي خفيفة الصنع وتستعمل في فصل الصيف والخريف، ومنها الجلباب المتوسط الصنع على مستوى الصوف ويستعمل

في فصل الربيع. ومنها الجلباب الثقيلة الصنع وتستعمل بالأساس في فصل الشتاء لمقاومة قساوة البرد الشديد. وما قلناه عن الجلباب يمكن قوله كذلك، عن الغطاء والفراش.. المصنوعين من الصوف، وكذلك يمكن الحديث عن صناعة نسيج السلهام بنفس الخصائص المذكورة. وتستعمل هذه المنتوجات في الحالة العادية كما تستعمل في المناسبات والأعياد والأعراس!؟

وهكذا فلقد أثبت الواقع الموضوعي المعيش أهمية هذا التنوع والاختلاف في مجال صناعة النسيج في الحياة الغرباوية المرتبطة بالطبيعة وبتحولاتها المناخية، مما يعكس بالفعل الحياة الواقعية والفعلية للإنسان الغرباوي، وذلك من خلال ثقافته المعبرة والهادفة والمبدعة. وهكذا فإن صناعة النسيج في الحياة البدوية الغرباوية قابلة للتغير والتبدل والتنوع.. نتيجة الظروف المناخية الطبيعية التي تفرض على سكان هذه المنطقة – وغيرها – نوعا معينا وخاصا من اللباس للتلاؤم مع الحالة الطبيعية. ومن هنا نجد أن صناعة النسيج والاستفادة أو الانتفاع منها في واقع المجتمع الغرباوي ينسجم مع الحالة العامة كما ينسجم ويتناسق.. مع القيم الحضارية والثقافية والأخلاقية والاجتماعية.. لهذا المجتمع البدوي الغرباوي على الخصوص والمجتمع المغربي على العموم. ومن هنا أهميته الثقافية وضرورته الطبيعية والحياتية.. والتي تتجلى من خلالها الوظيفة الاقتصادية والاجتماعية.. المعتمدة في أساسها على المجال العام للواقع الموضوعي الغرباوي، والذي تحتل فيه الطبيعة مكانة مهمة باعتبارها ذات طبيعة فلاحية صالحة للزراعة ولتربية المواشي، التي توفر بدورها المواد الخام الصالحة لفن صناعة النسيج وفن صناعة الطين.. وفي مقدمة هذه المواد :

الصوف والطين..الخ، وهذا بإمكانه تحديد علاقة الإنسان الغرباوي بواقعه الاقتصادي والاجتماعي، وكذلك بالطبيعة التي تدفعه إلى الإبداع والاختراع والعمل.. وفق ما تستلزمه هذه الطبيعة وهذا الواقع..!؟!

إن الارتباط بالواقع الموضوعي والوعي بأهميته على جميع المستويات والأبعاد والأهداف ما بإمكانه أن يؤثر بشكل أو بآخر في حياة الصانع المخترع والمبدع.. وكذلك في مشاعره وأحاسيسه وتصوراته ورغباته وهو يتعامل مع هذا الفن أو ذاك.. مما يؤثر بدوره في تنويع الإنتاجات الفنية والإبداعية والعملية.. واختلاف الثقافات وتنوعها وتعددها وتمايزها بين الناس والشعوب والثقافات والحضارات الإنسانية عبر الأزمنة والأمكنة.

إن الحديث عن الفنون الصناعية النسيجية والطينية في منطقة الغرب وفي مشرع ابن القصيري وضواحيه على الخصوص، نقصد بها تلك الأعمال اليدوية التي تقوم بها المرأة الغرباوية – على الخصوص – داخل الأسرة، تبعا لإمكانيات هذه الأسرة واحتياجاتها لتغطية رغبات وحاجات أفراد هذه الأسرة. ومن أجل ذلك نجدها على النحو التالي : - صناعات تقوم بها الأسرة لضرورة احتياجاتها المتنوعة والمتعددة، وبذلك تكون هذه الصناعات محدودة لا تتعدى أفراد هذه الأسرة.

- صناعات الجلاليب والغطاءات والأفرشة وأشياء أخرى صوفية أو طينية تصنع من أجل تجارة السوق، وهنا تكون في الغالب، أقل جودة وإتقانا من المصنوعة للأسرة. ويستطيع صناع هذه المنتوجات المصنعة الحصول على المقابل المادي أثناء عملية البيع، وذلك لضمان رأسمالهم وربحهم.. مما يحفزهم كذلك على زيادة الإنتاجية، إذا ما لقيت منتوجاتهم المعروضة في السوق إقبالا..!؟!

- صناعات يمولها رأسماليون/أغنياء.. يحتفظ فيها هؤلاء الرأسماليون برؤوس أموالهم وتقتسم الأرباح.. أو يتعامل هؤلاء الرأسماليون مع الصناع كعمال منتجين مقابل أجرة، ويشرف على العمل مسير/مراقب أوَ مدير يسهر على مصالح الرأسمالي.. وهذا يكون في الغالب في المعامل أو الشركات..الخ. الموجودة في المدينة على الخصوص – كما يمكنها أن تكون خارج المدينة...!؟!

- صناعات مشتركة على مستوى التمويل ومستوى العمل... بين مجموعة من الأفراد – النساء في الغالب – هدفها الأساسي تكثيف الإنتاجية والربح السريع لأفراد معينين ومحدودين.

هذا التنوع والتعدد من الصناعات، كما نرى، قد طرح بدوره إشكالية بين الصناعة التقليدية التي تعتمد على اليد والوسائل والأدوات اليدوية البسيطة.. والصناعة الحديثة والمعاصرة التي تعتمد بالأساس على الآلات الإلكترونية والتقنية والتكنولوجية.. ولكن ومع ذلك، فإن الصناعة التقليدية بقيت ذات خاصية ومميزات.. تميزها عن الصناعة الآلية، كما يتجلى ذلك في الذوق والعمل والإتقان..الخ. حيث نجد في مجلة "الثقافة المغربية"[3] يقول محمد علوط في "جماليات التشكيل اليدوي – فضاء الزربية" ص 69 و 70 : " – ويبدو راهنا أن الأستطيقا الصناعية قد أخذت تزاحم من موقع الإنتاجية الآلية العمل اليدوي، والصانع التقليدي لا يجد حرجا في ذلك، ويدرك أكثر من غيره أن الجوهر الفني لإنتاجه يختلف تماما عن طبيعة المنتوج الصناعي المطبوع ببرودة الآلة وميكانيكيتها، وغياب الدفء اليدوي وحرارة العرق الإنساني. إن ما تقدمه الآلة من مبتكرات يظل خاضعا لقاعدة النمط الاستهلاكي،

وتقنياته المحكومة بالثبات والسكون اللتين يفرضهما نظام السوق وانتشار السلعة، بينما يجد الصانع اليدوي نفسه حرا في إمكانية الإبداع المستمر، والمتغير، والعطاء المتجدد، إضافة وإعادة تأسيس.

إن التشارك الوحيد والممكن بين هذين اللونين : الإنتاج التقليدي والإنتاج الصناعي من الوجهة التشكيلية، هو أن كليهما كأستطيقا "يمارسان في الآن ذاته كحرفة، وكأداة عن فكرة" فإذا كان الأول كالثاني عملا حرفيا، فإن الحمولة الفكرية والثقافية والجمالية لكل منهما تختلف جذريا فيما بينهما : إن الحساسية الجمالية والطابع الشعري والحمولية الرمزية للتشكيل اليدوي تختلف بالطبع عن الجمالية الصناعية، الآلية، الموسومة ببرودة الآلة وميكانيكيتها، وبعزلة المادة وحيادتها، والهندسة المفرطة للأشكال في القياسات والأبعاد. فالصانع اليدوي يلغي الوساطة بينه وبين المادة، وعلى العكس من ذلك تنتصب الآلة في النتاج الصناعي كحاجز نفسي وثقافي بين الإنسان والمادة."[3]

إن الصراع القائم بين الصناعة التقليدية والصناعة الحديثة الآلية في المدن، في الغالب، لا يكون مطروحا بنفس الحدة في البادية التي تعتمد بالأساس على الصناعة اليدوية وعلى الاستهلاك الذاتي النابع من ضرورة حاجة أفراد الأسرة بالدرجة الأولى، حيث كان المنتوج الصناعي اليدوي البدوي لا يوجه إلى السوق إلا في بعض الأحيان مثلما يتعلق بالجلباب أو الغطاء والفراش..الخ. وإذن، ما هي طريقة فن النسيج اليدوي التقليدي الغرباوي!؟! وماهي الأدوات والأشياء التي يتم بواسطتها !؟

يسمى فن صناعة النسيج في الثقافة البدوية الغرباوية بـ"المنجج أو العدة" التي تتكون بدورها من : المناول، وهما على شكل خشبتين مثقوبتين عدة ثقوب توضع فيهن الخيوط الصوفية الرقيقة المسماة بـ "سْداً"

- المشاشي وهي عبارة عن خيوط مربوطة بالجدار لشد المرمة.

العضاضات أو المسكات وهي أدوات تشد بها المرأة الصانعة الخيوط أو الحبال..الخ.

- 4 قصبات، 3 منهن يشدن الروح والقصبة الرابعة تسمى نيَّارة.

- 2 "قْنَانبْ" أي حبلان يسميان في الثقافة الغرباوية بـ "الزطاطم" وكل هذه الأدوات أو الأشياء هي التي تكون النسيج أو ما يعرف باللهجة المحلية بالمنجج.

- أنواع الجلابة البدوية الغرباوية :

1- جلباب الحبوبة أي ما يعرف بالطعمة أو (حربول) (سوداء وبيضاء)

2- السُّوسْدِي

3- سْدَا في سْدَا

4- سْدا في سْدَا ملوّنة بالأسود والأبيض

5- بوطرينية وهي تشبه سْدَا في سْدَا

أدوات نسج الجلابة.. :

- سْدَا في سْدَا تنسج بالدَّفْ وهو عبارة عن مشط يدوي

- الحبوبة : إذا كانت رقيقة تنسج بالدف وإذا كانت غليظة تنسج بالخلالة، وهي عبارة عن أداة يدوية تشبه الدف لكن أسنانها أطول من أسنان الدف.

- الجلابيب رقم 2 و 3 و 4 و 5 تنسج بالدف.

.. وقبل عملية النسيج تغسل الصوف جيدا بمادة "تْغيشْتْ" وهي نبات طبيعي وصابون التيد.. بعد ذلك تعرض لحرارة الشمس، كما تعرض لتجف "التنشيف" بواسطة "قرشال" وهو أداة من أدوات النسيج على شكل مشط.

- المشط رقم (6) وهو متكون من مجموعة من الأسنان السلكية الرقيقة الحادة. وتصنع بهذا المشط السَّبايلْ الصوفية وهي على شكل سنابل/سنْبلة.. والتي تتحول بدورها إلى خيط/خيوط (سْدًا) الذي تصنع به الجلباب. ويكون (سْدًا) على شكل خيوط داخل في ثقوب الخشبتين/المَنَاولْ، من أعلى إلى أسفل، مُشَكّلَة بذلك شكلا هندسيا رائعا.

- المُغزْلَةْ رقم (7) بفلكها، وهي عبارة عن قضيب من الخشب المخروط بها (فَلْكَةْ) مصنوعة من الخشب كذلك على شكل دائرة تكون في "التحت". وتستخدم المغزلة لغزل سْدًا/الخيط الصوفي الرقيق وهي أقصر من المُغْزَلْ.

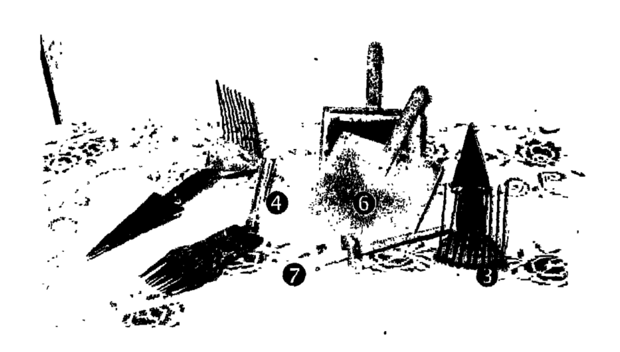
- المُغْزَلْ بفَلْكَتِهِ هو الآخر، يستخدم لغزل الطّعْمَةْ وهي الخيط الصوفي الأكثر سمكا (غليظ) من خيط السدا.

- الشّبُّور رقم (5) وهو عبارة عن ناعورة (أداة) لتكبيب الخيط (جمعه). (أنظر رسم هذه الأدوات). الشبو دولاب المغزل مصنوع من القصب والحطب..

- الرُّكة وهي القصبة التي تربطها المرأة الصانعة/الناسجة، مع حزامها، وهي مستعملة للقبض على/السّبُولَةْ الصوفية/السنبلة الصوفية لتحويلها إلى خيط (سْدًا) وتكون مشقوقة.. كما هي في رسم (1).

كما أن الصانع البدوي الغرباوي لم يقتصر فقط على نسج الصوف بل لقد نسج كذلك أشياء أخرى مثل الحصير – كما قلنا – وكذلك القفة والسلة (من القصب) والعَلاَّقَةْ وهي منسوجة من الدُّومْ على شكل قدرة تستخدم لعلف الخيول والبغال والحمير.. وكذلك نسج السجادة وهي مصنوعة من السمار أو من الدوم.. تستخدم للصلاة أو للجلوس. كما قام بنسج (الشواري) وهو عبارة عن قفتين ملتصقتين توضع على (البَرْدَعَةْ) التي توضع بدورها فوق ظهر الحمار أو الحصان أو البغل.. وهناك أشياء كثيرة أخرى منسوجة لم نأت على ذكرها في هذه القراءة.

أدوات النسج



1- الركة : وهي القصب التي تربطها المرأة الناسجة مع حزامها، مهي مستعملة للقبض على السبولة وهذه الأخيرة تكزن علة شكل سنبلة من الصوف وذلك لتحويلها بواسطة المغزل أو المغزلة إلى خيط / خيوط صوفية وهي ما تعرف باللهجة المحلية بالسدا.. الركة وهي قصبة مشقوقة من الرأس.

2- الدف : مصنوعة من الخشب أو الحديد ذات أسنان دقيقة من أجل نسج الخيوط الرقيقة (سدا) وتتكون من خرصتين على شكل أجراس...

3 – مشط : لتجفيف الصوف من الماء

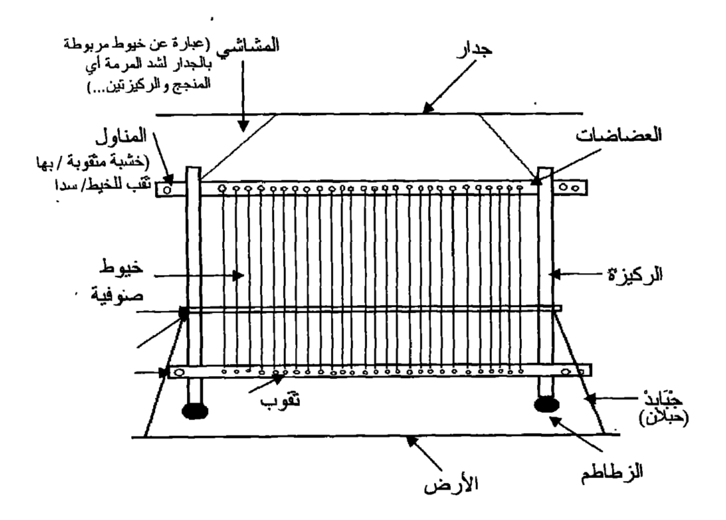
4 – الخلالة : وهي أداة مصنوعة مثل الدف، إلا أنها تستخدم لنسج الخيط الغليظ وهي ذات أسنان أطول وأوسع مننلك التير أيناها في الدف.

5 – الشبو : عبارة عن دولاب للغزل بواسطته نحول الخيط المنسوج إلى شكل منظم على شكل كبة / يصبح شكل الخيط كرويا ...

6 – مشط : تصنع بواسطته السبايل وهو متكون من أسنان سلكية حادة

7 - المغزلة.

المرمة / المنجج



وإذا كان هناك اختلاف في التسمية والشكل.. بين صناعة نسيج الجلابة والغطاء أو الفراش/الفراش باللغة العامية الغرباوية.. فإن الفرّاش/الغطاء يقسم بدوره إلى ثلاثة أقسام معروفة أو أكثر...

- الفَراشْ/ الغطاء، وهو نوع من الغطاء أو الفراش الصوفي المنسوج. بنفس طريقة نسج الجلابة، وبنفس الأدوات تقريبا، وهو سميك وعريض وطويل الشكل يستخدم بالأخص في فصلي الشتاء والربيع أي حينما يكون الجو باردا – في الغالب – حيث يمكن أن يغطي مجموعة من الأفراد وليس فردا واحدا فقط.

- البَطّانِيّةْ وهي نوع مصغر للفراش، تستخدم لشخص أو لشخصية – في الغالب –

- الْحنْبَلْ وهو غطاء وفراش صوفي منسوج، كذلك، أخف من وزن الفراش والبطانية ويستخدم في الغالب، في فصلي الصيف والخريف، كما يمكن استخدامه كغطاء للمرأة في الخارج/ أي خارج المنزل، كما هو الأمر بالنسبة لمجموعة من المناطق المغربية الأخرى (الْحَايْكْ). كما كانت المرأة الغرباوية تستعمل كذلك الإزار العادي والرباطي والسلاوي.. وكذلك الجلباب والخمار والبلغة المعروفة في اللغة المحلية بـ "الرِّيحِيَّةْ".

وهكذا نلاحظ أن فن صناعة النسيج لمجموعة من الأشياء هنا في منطقة الغرب تلتقي في مدى ارتباطها الضروري بالحياة الإنسانية ومتطلباتها وبالصراع مع الطبيعة وظروفها. ومن ثمة فإن هذا الفن اليدوي الغرباوي يتمحور حول الاختيار الجمالي الواقعي المعبر عن بساطة الحياة البدوية يتجلى ذلك في الألوان، التي تكون في الغالب بالنسبة للنسيج المحلي ذات طبيعة طبيعية كالأبيض والأسود والأخضر والأحمر.. باعتبار

أن اللونين الأبيض والأسود هما المسيطران في الغالب. وهذا الاختيار هو في الحقيقة – كما قلنا – اختيار يعبر عن واقعية وموضوعية وطبيعة.. الإنسان البدوي الغرباوي البسيط، كما يعبر عن مدى وعيه في التفاعل مع الظروف الطبيعية المتغيرة والقاسية. فهو فن ثقافي يرتبط ارتباطا وثيقا بما هو ذاتي وبما هو موضوعي طبيعي وضروري. وهذا لا يجعله يهمل ما هو تجريدي نهائيا، بل إننا ندرك في المنتوجات الفنية الصناعية المنسوجة الغرباوية مجموعة من الأشياء تتعلق بالتزويق والزخرفة والترتيب والدقة..الخ. وهذا الأمر يستدعي من الباحثين والمهتمين التعمق في جوهر الأشياء المنتوجة ومحاولة تجاوز مظاهرها الخارجية، إذا ما أردنا إدراك هذه الحقيقة الباطنية باعتبار أن الصانع الغرباوي بالرغم من تأثره بالتراث الإنساني بمعرفته بمجموعة من الأدوات والتقنيات الموروثة.. فهذا لن يمنعه كإنسان يعيش ويفكر ويعمل.. يجرب ويحاول كي يتمرس على الأشياء وعلى إتقانها بطرقه الخاصة.. على أن يبدع هو الآخر ويكتشف بدوره أشياء جديدة ترتبط به وبواقعه الموضوعي المعيش.

القسم الثاني : فن صناعة الطين

إن الحديث عن فن صناعة الطين في الثقافة البدوية الغرباوية، هو حديث واع وهادف.. وبالتالي هو حديث لا ينكر قدم هذا الفن الصناعي الإنساني ولا يتغافل ذكر أصوله الأولى، التي ترجع بالأساس – كما يقال – الى الثقافات والحضارات الإنسانية القديمة سواء كانت أسيوية مثل الصين والهند.. أو شرقية والتي انتقلت إليها – كما يقال أيضا – بفضل الإحتكاك الإنساني والثقافي والاجتماعي.. بين الحضارات والثقافات الإنسانية مثل إيران والعراق وسوريا وفلسطين.. كما انتقلت كذلك إلى المغرب العربي مثل تونس والمغرب.. وإلى أوربا مثل االأندلس...الخ. وهذا الانتقال يشكل أحد العناصر المهمة والأساسية باعتبار فن صناعة الطين ذات ارتباط بالطبيعة واباالإنسان الذي تفنن في صناعة أشكالها وأنواعها.. في كل العصور والمجتمعات.

وهكذا وبالرغم من أن فن صناعة الطين الغرباوي حديثة العهد، فإنه مع ذلك يعتبر عنصرا أساسيا في الحياة الغرباوية وفي ثقافتها.. من هنا تتأكد أهمية حضوره في الحياة البدوية الغرباوية على مستوى الأكل والشرب والطهي والطبخ والاقتصاد والتخزين..الخ. كما أنه مظهر من مظاهر الإبداع والاختراع والعمل.. الذي تتجسد فيه عقلية الإنسان الغرباوي المبدع والصانع والواعي بضرورات الحياة. وهدفنا الأساسي من هذه الدراسة المتواضعة لفن صناعة الطين هنا في مشرع ابن القصيري وضواحيه يعود بالأساس إلى هدفنا الأول والأساسي الذي أعلنا عنه في كل ما قمنا به من دراسات حول ذاكرة الثقافة الشعبية البدوية الغرباوية – تقريبا – .. إنه محاولة توثيق هذا التراث الغرباوي المهمش خوفا عليه

من الضياع والإتلاف والنسيان.. وكذلك العمل على التنويه والاحترام والتقدير.. لكل من ساهم بشكل أو بآخر، في المساهمة في هذا الفن الصناعي اليدوي الإبداعي الذي ساهم بدوره في تدعيم هذا الرصيد الإبداعي الثقافي، الذي عمل بدوره على تحويل مادة الطين الخام إلى الصناعة الحرفية اليدوية وإلى الإبداع الفني والجمالي المتنوع والمتعدد الأشكال والأهداف.

ولعل ما أثار اهتمامنا ونحن نهتم بدراسة هذا الفن الصناعي، هو أنه أصبح هو الآخر يتلاشى شيئا فشيئا نظرا لعدم قدرته على المنافسة الحديثة والمعاصرة للفن الصناعي والإبداعي.. للخزف أو الطين بطرق آلية وتقنية.. حديثة. وكذلك على مدى إقبال الناس على ما هو جديد أكثر، على ما هو كلاسيكي تقليدي. ومن جهة أخرى مدى قدرة الصانع/ المبدع الفنان الغرباوي الذي أنتج حسب الحاجة والضرورة وكذلك الذوق والرغبة.. ومن تمة أعطى لإنتاجه الفني هذا، خصوصية ومميزات تميزه عن غيره، وتؤكد حضوره الفعال في كل مجالات الحياة.

إن عملية تحويل الطين بطريقة فنية يدوية غرباوية هي محاولة الصانع على تحويل هذه المادة الطبيعية من الخام إلى إنتاج أشكال متنوعة بواسطة اليد ثم وضعها في النار لتتخذ شكلها الطبيعي كذلك، الأحمر القرميدي.. ومن هنا ندرك كذلك أهمية الوعي البدوي الغرباوي في بساطته، بحيث أنه لم يقتصر في عملية تحويل الطين من طبيعته الطبيعية المبللة إلى طبيعته الجافة/اليابسة.. على تعريضه إلى حرارة الشمس والتي تتطلب وقتا طويلا والتي لا يمكن أن تكون إلا في فصل الصيف بالأساس وفي الغالب.. وإنما كان الصانع الغرباوي يستعمل النار التي يمكن

الاعتماد عليها واستخدامها في كل الفصول.. هذه النار التي تحول لون الطين.. وهذا ما فتح الباب أمام الصانع ليلبي رغبته ورغبات الإنسان الغرباوي، كذلك، وهذا لا يجعلنا ننكر مدى التأثير الذي مارسه الإنسان البدوي الغرباوي – كما قلنا – بحيث يوجد هناك تقارب كبير بين ما أنتجه الإنسان الغرباوي وبين الإنتاجات والمنتوجات الثقافية الإنسانية الأخرى، كما أن هذا لا ينقص بدوره من أهمية الدور الذي قام به هذا الإنسان الغرباوي هو الآخر في تشييد وبناء وتطوير.. الثقافة المغربية على الخصوص والإنسانية على العموم.. وذلك بتكوين وخلق ثقافة إنسانية ومحلية ذات مميزات وخصوصية هي الأخرى، يقدم فيها الإبداع الفني الطيني الغرباوي أبعادا إنسانية وثقافية مرئية وملموسة تؤسسها الضرورة الإنسانية والصراع مع الطبيعة القاسية.. كما تتخللها الأشكال المتنوعة والمختلفة. هذا الإبداع الفني الطيني وكذلك النسيجي.. الذي كان يحركه بقوة، العنصر الطبيعي والعنصر الإنساني. وهكذا فإن الطبيعة لم تشكل عائقا، فقط، أمام الإنسان البدوي الغرباوي بقدر ما لعبت دوراً مهما وأساسيا في حياته وذلك بتحفيزه ودفعه.. إلى البحث والعمل قصد المواجهة والاستمرار في الحياة كما يبدو ذلك، كذلك، في بناء البيوت الطينية التي كانت ولا زالت تستخدم فيها ما يسمى باللغة العامية الغرباوية بـ "المقدار" وهو شكل من الأشكال المصنوعة من الطين أو الوحل.. ذات أشكال مستطيلة – تصنع بواسطة قالب من الخشب – والتي تطورت في عصرنا المعاصر إلى الآجور المعروف.. المثقوب والغير المثقوب. ومن هنا أهمية الثقافة الشعبية التي ارتبطت بشعوبها وبواقعها وبعاداتها وتقاليدها وكذلك بعقائدها بحيث أن عنصر الدين في هذا الاهتمام بمادة

الطين حاضر بشكل أو بآخر، باعتبار أن الإنسان في الدين الإسلامي، مثلا، قد خلق من طين (تراب).. كما أن حضور شهر رمضان المعظم في الذاكرة الإسلامية الشعبية على العموم والمغربية على الخصوص وتهييء الحريرة.. له أهميته كذلك في صناعة مجموعة من الأواني الطينية المعروفة في هذه المجتمعات الإسلامية. وهذا له دوره الهام كذلك، في الثقافة الإسلامية والعربية على العموم والمغربية على الخصوص، من غير نسيان الثقافة الإنسانية.

في منطقة الغرب هذه، التي نتحدث عنها، ساد ذوق جمالي إنساني.. اتخذ صفاته وسماته.. من مميزات وخصوصية الثقافة المحلية الغرباوية وكذلك من الثقافة المغربية والعربية والإسلامية والإنسانية.. والتي طبعت بطابع مادي ونفعي بالأساس، مما جعلنا نلاحظ غياب النص/النصوص.. الجمالي والنظري – نسبيا- في فن النسيج وفن صناعة الطين.. وهذا بدوره أدى إلى صعوبة الحديث عن علاقة جدلية بين الإنتاج والإبداع الفني الصناعي والذوق الجمالي العام لدى سكان منطقة الغرب، على المستويين المادي التطبيقي والنظري الفكري والإبداعي. وهكذا نسجل كذلك مدى تأثير التصور الإسلامي لمادة الطين كمادة خلق منها الإنسان فأصبحت مادة في يده يصنع منها ما هو أساسي وضروري.. للحياة من غير نسيان أهمية التقنية والدقة والأشكال الجميلة التي تجذب إليها الأنظار بشكل أو بآخر...!؟!

وإذن ليس غريبا أن يرتبط فن صناعة الطين، مثلا، بالإنسان الغرباوي وبواقعه وبثقافته.. لأن مادة الطين المستخدمة في هذا الفن.. قد ارتبطت بالدين وبالطبيعة، وهكذا ظلت هذه الصناعة الطينية تلعب دورا مهما في المحافظة على استمرار هذه المادة الطبيعية من جهة، وذات البعد الديني الدال والهادف.. من جهة أخرى. وهكذا، كذلك، بقي الفنان الغرباوي مرتبطا في صناعته الطينية بما هو جائز وحلال.. في الإسلام على مستوى الإبداع والنقش والزخرفة والتصوير...الخ. فلا نجد مثلا إنتاجا طينيا للأصنام التي حرمها الإسلام.. في الثقافة البدوية الغرباوية..!؟!

وعلى الرغم من ازدهار صناعة النسيج وصناعة الطين في الماضي القريب، فإن التنظير لهذه الأعمال وتدوينها وتوثيقها.. لم يكتب لها أن تقوم بالشكل المطلوب على المستوى الرسمي والغير الرسمي، وهذا يدخل في إطار سياسة التهميش والإهمال.. لهذه الثقافة الغرباوية وإلى عدم القدرة لمواكبة التقدم الحاصل لهذا الفن على المستويين الكمي والكيفي أي الإنتاجي والفني الجمالي والإبداعي. وهذا ما فتح الباب على مصراعيه للمنتوجات المستوردة وللتبعية والكسل.. ولعدم القدرة على الإنتاج والإبداع.. بشكل يوازي التطورات الحاصلة في كل المجالات الإنسانية في عصرنا المعاصر – كما قلنا – من جهة، ومن جهة أخرى عدم القدرة حتى على تطوير وتجديد.. ما أنتجته الثقافة البدوية الغرباوية الكلاسيكية. ومن هنا، كذلك، حلت المنتوجات المستوردة محل المنتوجات المصنعة محليا ووطنيا – في الغالب – وتراجعت اهتمامات الإنسان الغرباوي بما هو طبيعي محلي.. كما تراجع استعداده للقيام بإنتاجات محلية ولمحاولة

إبداعات جديدة ومتطورة.. لكي تصبح قادرة على المنافسة والمواجهة، وذلك بفرض نفسها على مستوى الجودة والدقة والذوق والجمال...الخ.

وتجدر الإشارة، هنا، إلى أن المنتوجات والإنتاجات الفنية الصناعية الطينية وغيرها، المستوردة، قد واكبها تطور ملموس على جميع المستويات كما رافقتها نصوص نظرية ونقدية.. للتوجيه والتكوين والإنتاج..الخ. واضعة بذلك أسسا وقوانين.. لهذه المنتوجات والإنتاجات.. وقد استطاعت أن تغزو كل البيوت في البادية والمدينة المغربية. وهذا ما يجعلنا كذلك أن نتحدث في هذه القراءة المتواضعة، عن أزمة العلاقة بين الإنتاج أو الإبداع الفني الصناعي النسيجي والطيني.. في منطقة الغرب، والإنسان المبدع/المنتج والناس المحليين الذين أصابتهم خيبة أمل أمام الغلاء الفاحش.. للحصول على مجموعة من الأشياء، وعدم القدرة على القيام، الآن، بإنتاج محلي يمكنه أن يخفف من وطأة هذه الأزمة، كما كان الأمر في القديم...!؟!

هكذا أصبح الإنسان الغرباوي الذي نتحدث عنه، عاجزا عن تلبية متطلباته الحياتية لا في مجال فن صناعة النسيج والطين، فقط، بل في كثير من المجالات الأخرى، وإن كان يعيش في عصر التطورات والتحولات والازدهار العلمي..!؟ فهل هذه الأزمة الحقيقية والفعلية.. ستؤدي إلى فتح الأبواب أمام مجالات إبداعية وإنتاجية.. جديدة ومتطورة.. في الواقع المغربي على العموم وفي الواقع الغرباوي على الخصوص..!؟! أم أنها ستعمق هذه الأزمة الفعلية..!؟!

إن مسألة البحث عن إشكالية الأزمة القائمة بين الإنسان الغرباوي المنتج والمبدع، وواقعه.. يستلزم الارتباط بالواقع والتحلي بالوعي الصحيح والقدرة والاستعداد.. من أجل العمل والإنتاج والإبداع، من غير أن نقطع الصلة مع الآخر المتقدم عنا...!؟! غير أن هذه الحقيقة لا تجعلنا نتوقف عن التفكير والعمل من أجل الالتحاق بالركب الحضاري الحالي المتقدم.. ولما لا تجاوزه إن كان ذلك بالإمكان...!؟!

المهم يجب التمسك بالعزيمة القوية والتحلي بالعمل الجاد والهادف في كل الأوقات وفي جميع المجالات.. إذا ما أردنا – على الأقل – مواجهة هذه الأزمة التي أصبحت تطوقنا من كل الجوانب...!؟!

ومن جهة أخرى، إن الحديث غن فن صناعة الطين، هنا، باعتباره أحد العناصر الأساسية الملازمة لفن الطبخ.. حيث يشمل الأدوات والأواني والعمليات والأهداف.. المستخدمة لهذا الغرض.. منذ أن بدأ الاهتمام بفن صناعة الطين. وهكذا وبالرغم من تغيير مفهوم الطبخ القديم – نسبيا – في عصرنا المعاصر على مستوى الأدوات والآلات والمواد الغذائية وفن الطبخ.. فإن العمل على تدوين التراث وتوثيقه ونقله إلى الأجيال.. من بين الضروريات، في اعتقادنا، لأن الانتقال من مرحلة إلى أخرى من الوجهة العلمية لا يتأتى من لا شيء، وفي عزلة عن الماضي، بل يشمل الماضي والحاضر وكذلك المستقبل، ومن خلال ذلك نستطيع التمييز بين ما هو إيجابي وما هو سلبي بواسطة التأمل والتفكير والتبصر واستعمال العقل الواعي والناقد..

إن فن الطبخ الغرباوي القديم/الحديث.. يتميز بعدد من الأهداف والإيجابيات.. منها الارتباط بالواقع وإبراز مدى قدرة الإنسان الغرباوي على التفنن في الطبخ إبداعا وتجديدا وتطويرا.. والانفتاح على الآخر، والاستفادة منه.. مما جعل فن الطبخ في هذه المنطقة الغرباوية يشترك في مجموعة من الأشياء مع الطبخ المغربي والعربي وكذلك الإنساني.. بالرغم من وجود بعض الاختلافات التي تدخل في إطار المميزات والخصائص التي تتميز بها المجتمعات والحضارات والثقافات.. بما في ذلك المناطق.. فهناك الاشتراك مع كثير من المناطق والمجتمعات.. في فن طبخ الكوسكوس مثلا ووجبات أخرى كثيرة.. كما أن هناك اختلافا، مثلا، في وجبة "الرْفيسَةْ" وهي أكلة مصنوعة من فتات خبز المحراش.. تطبخ فقط في الزبدة الخالصة الطبيعية في "حْوير" وهو قدرة متوسطة مصنوعة بدورها من الطين كما قلنا.. كما نجد كذلك على سبيل المثال لا الحصر، هناك تمييز للمطبخ الغرباوي وطبخه، وذلك على مستوى التقنية والتذوق والتفنن حينما يتعلق الأمر بوجبة "الرزيزة بالدجاج" وهي أكلة متكونة من عجين الدقيق الممتاز.. على شكل خيوط رقيقة تلوى مثل العمامة، والعمامة في اللهجة الغرباوية المحلية هي "الرزة" و"الرزيزة" هي تصغير إيجابي للرزة.

ومن هذا المنطلق تبرز أهمية تقاطع ما هو عام بما هو خاص أو ما هو كوني بما هوي محلي.. وما الاهتمام بالتراث وبتوثيقه إلا من أجل مساعدة الباحثين والدارسين المهتمين والمتخصصين.. وكذلك الاستفادة منه لتطوير وتجديد.. ما هو حديث ومعاصر، وذلك بمحاولة تجاوز مجموعة من السلبيات والمشاكل.. وعدم تكرارها...!؟!

من هنا كذلك تظهر أهمية الأسئلة والتساؤلات الهادفة : لماذا نهتم بما أنتجه الآخر..؟! ومتى نهتم به؟! وما هي أهداف وغايات هذا الاهتمام..؟! وما هي الأشياء التي يمكن توثيقها..؟! وما هي الوسائل والطرق التي يتم بواسطتها التوثيق الهادف..؟!

وهكذا وكما يبدو واضحا من الأعمال المتواضعة التي قمنا بها والتي تمحورت بالأساس حول التراث البدوي الغرباوي.. أن هدفنا كان في العمق هو رفع حصار التهميش على هذا التراث الذي أعطى الشيء الكثير وساهم بشكل واسع في بناء الثقافة المغربية ولم لا الإنسانية...؟!

ومن أجل إبراز أهميته وأدواره في ذلك، عمدنا إلى الاهتمام به وتوثيقه قدر الإمكان والعمل على إخراجه من سجن الحصار المفروض عليه فاتحين بذلك الباب على مصراعيه من أجل التعمق والتوسع والإضافة.. فيه أكثر، من طرف الباحثين والدارسين المهتمين والمتخصصين. ذلك أننا عمدنا في هذا الاهتمام به على الواقع الموضوعي الذي أمدنا بمجموعة من الحقائق والمعارف.. والتي ساعدتنا بشكل كبير على الخوض في هذه المغامرة الصعبة.. كما أن انبثاقنا من هذا الواقع الموضوعي الغرباوي وارتباطنا به أكثر فأكثر على جميع المستويات ومعرفتنا النسبية به في جميع المجالات.. مكننا كل ذلك من السباحة في عمقه رغم الصعوبات والمشاكل والعراقيل.. التي واجهتنا بكثرة ونحن نقوم بهذه العمليات في أصعب الظروف وقلة الإمكانيات من وسائل ومساعدات وغياب الوثائق والمصادر...الخ.؟!

كما تجدر الإشارة إلى أن الإنسان الغرباوي المبدع، لم يقتصر فقط على صناعة النسيج والطين الذي صنع منه كذلك مقرات سكنه وسكن حيواناته.. وإنما كذلك لقد تفنن في صناعة الجلد، هذا الأخير الذي يعتبر ثروة طبيعية حيوانية.. وبذلك تفنن من خلال جلود الحيوانات في صنع الأحذية وبعض الألبسة والأفرشة..الخ.

المصادر :

1 – مجلة أقلام. العدد : 4 أكتوبر 1978. ترجمة ع. بنعبد العالي : "الآفاق الفكرية للمغرب"[1] ص 48.

2 – مجلة دفاتر الشمال – فصلية ثقافية شاملة – شتاء 1998 – العدد الثالث، حول : "في تطابق المغرب الثقافي واختلافه" عبد الرحمان بن الأحمر.

3 – مجلة الثقافة المغربية. السنة الأولى. العدد : 3 شتنبر – أكتوبر 1991م. – المغرب –

بعض المصطلحات المتعلقة بالنسيج وبالطين :

- **نسيج** : حياكة
- **السمار** : نوع من النبات ينبت في الأماكن التي يوجد فيها الماء بكثرة مثل المرجة.
- **الكنبورة** : قلة كبيرة للماء. — **البرادة** : قلة صغيرة للماء تبرد الماء
- **قلوشة** : مثل البرادة لكن فمها أوسع يوضع فيها السمن.
- **الخابية** : مصنوعة من الطين تستخدم هي الأخرى لتبريد الماء.
- **الزلايف** : جبانيات. — **الكدرة** : قدرة تستخدم للطبخ أو الطحين أو السمن
- **الحوير** : مصنوع من الطين يستخدم للحريرة آو طبخ الشعير أو أشياء أخرى..
- **الفراح** : فرن بدوي مصنوع من الطين لخبز الخبز أو أشياء أخرى يوضع على المناصب
- **الفران** : فرن بدوي مصنوع من الطين/ الوحل.. لخبز الخبز كذلك..
- **المجمر** : موقد مصنوع من الطين.
- **قصرية /كصعة** : صحن كبير مصنوع من الطين آو الخشب تستخدم للعجين أو الأكل مثل الكسكوس.
- **الحماس** : الطاجين المطلي أو الغير مطلي ويستخدم للطبخ والأكل..
- **المخفية** : مصنوعة من الطين، تكون مطلية في الغالب وتستخدم للأكل..
- **الغراف** : كوب مصنوع من الطين يستخدم للشرب..

- **قدوح** : كوب كبير مصنوع من الطين يستخدم للحلب/ يوضع فيه الحليب واللبن.. وهو ما يعرف كذلك بالحلاب.
- **الرزامة** : أداة مصنوعة من الخشب ذات أسنان تستخدم لدق سنابل الزرع/تصفية الحبوب من التبن...
- **المهراز** : المهراس وهو الذي يستخدم لدق/سحق التوابل وأشياء أخرى..
- **الغربال** : شطاطو باللغة المحلية يستخدم لتصفية الدقيق من النخالة.. كما أن هناك غربال/منخل من أسلاك حديدية يستخدم كذلك للتصفية...
- **كسكاس** : أداة مصنوعة من الطين أو المعدن، ذو قعر مثقب.. يوضع على القدرة/ القدر.. من أجل طهي الكسكس..
- **التيلة** : غربال مصنوع من السمار.. لعزل أو تصفية الزرع المطحون.. من النخالة.
- **الحصيرة** : الحصير.. مصنوع من السمار والشريط/الدوم..
- **الشواري** : سلتين كبيرتين مصنوعتين من الدوم توضع على ظهر الحمار أو الحصان..
- **البردعة** : مصنوعة من أكياس الزرع ومن التبن توضع على ظهر الحمار أو الحصان.. للجلوس
- **الشلال** : سلة مصنوعة من القصب توضع فيها الأشياء..
- **العلافة** : مصنوعة من الدوم يوضع فيها العلف للحيوانات.
- **الطارفة** : حبل مصنوع من مادة الدوم أو مادة الحلفة.. تستخدم للتقييد
- **السويطة** : السوط..

ملحق

- إشكالية السكن في الواقع الغرباوي : مشرع ابن القصيري نموذجا
- إشكالية أنماط السكن بمنطقة الغرب : سيدي يحيى الغرب كنموذج (التوازيط)
- تطور أنماط السكن بمنطقة الغرب – قبائل التوازيط –
- إشكالية التمدين والحواضر في جهة الغرب شراردة بن احسن قبل الحماية.
- رحلة عبر نهر سبو العظيم..!؟!
- اكتشافات أثرية عظمية وحجرية في منطقة الغرب...

إشكالية المعمار في الواقع الغرباوي :

مشرع ابن القصيري كنموذج

بمقدورنا أن نتساءل عن حقيقة ومصدر الإسكان أو البناء وطبيعة أشكاله/هندسته وكل ما يرتبط به في واقع مشرع ابن القصيري. وهكذا فبإمكاننا – باعتبار مجموعة من الأشكال الهندسية البنائية لا زالت موجودة. أن نجد في حقيقة وجودها كثيرا من المساكن المتنوعة والمتعددة أساس اهتمام إشكاليتنا المتمحورة في طبيعة الأشكال الهندسية السكنية الموجودة في مشرع ابن القصيري، ذات الأشكال والعناصر والأبعاد والأهداف المختلفة. وهذا يوجب النزول إلى الواقع الموضوعي المتحرك والمعاش، والعمل على توثيقه بكل الوسائل الفكرية والمادية، مثل تأريخها وتصويرها وتسجيلها..الخ.

وأهمية البحث في تأريخ وتوثيق.. موضوع أو شيء من الأشياء، يتطلب منا بادئ ذي بدء، معرفة الواقع الموضوعي واستيعابه والتعمق في فهمه قراءة وتحليلا وتفسيرا ونقدا.. وهذا يساعدنا إلى التقرب أكثر فأكثر من الكم المتراكم. وعلى هذا الأساس تتضح مجموعة من الأشياء والحقائق..الخ. وذلك من خلال جدلية القول بالفعل والنظري بالعملي والفكري بالمادي. وهكذا يصبح هدف دراستنا لطبيعة السكن وهندسته في مشرع ابن القصيري وضواحيه هو توضيح وتفسير وتقديم حقائق ومعارف تصبح في متناول الآخر في الحاضر والمستقبل، تساعده في اكتشاف الواقع والتعمق في معرفته..!؟!

ولقد عمل مشروعنا باعتباره محاولة نظرة عامة وشاملة للتراث الغرباوي، قراءة وبحثا وتحليلا ونقدا وتأويلا.. على "تجميع" و"توثيق" هذا

التراث المهمش والمنسي.. للتغلب على إشكالية الإتلاف والضياع ونسيان أو فقدان الذاكرة الجماعية والفردية. إن هذا العمل التوثيقي يقوم في عمقه على الحفاظ على الذاكرة الجماعية أي ما قام بإنتاجه الإنسان على جميع المستويات وفي جميع المجالات في الماضي والحاضر.. ليظل عبرة للأجيال المقبلة..!؟!

إن عملية التوثيق، كما نراها، تلعب دورا مهما وأساسيا في تسجيل الحدث التاريخي، وهي بذلك تعتبر جزءا لا يتجزأ من البناء التاريخي. ولهذا نعتبر، بدورنا، هذه العملية مدعمة للبحث في سند الحدث التاريخي وقراءته وتحليله ونقده.. لإدراك ومعرفة جوانبه الإيجابية والسلبية.

ومن هنا تصبح عملية التوثيق، لا تعني فقط سرد الأخبار والحقائق.. والتدوين أو التسجيل، وإنما كذلك محاولة التعمق في عمق الواقع، معرفة وتحليلا وتفسيرا وفهما ونقدا وتأويلا..الخ. إنها عملية الانطلاق من مرجعية الواقع الموضوعي المعاش والمعيش. كما يصبح الوعي الناضج بالتاريخ لا يقف عند العمل على المحافظة على الذاكرة أو الهوية أو الخصوصية، وتسجيل ما أنتجه من إنتاجات فكرية ومادية.. فحسب، بل وكذلك تتيح الفرصة وتساعد على تجديد الفكر والإبداع وتطوير المنتوج والإنتاج في الحياة الخاصة والعامة، مما يعطي للحياة الإنسانية الاستمرارية وقابلية التجديد والتطور والتحول في كل الأمكنة والأزمنة.

ومن أهم مميزات التوثيق – بما في ذلك البناء والعمران الذي نحن بصدده – أنه يعمق وعي الإنسان بذاته وهويته وثقافته.. عبر سيروروة التاريخ.

وهكذا يصبح – كما قلنا – طريقة من الطرق الهامة لإدراك الواقع الإنساني الخاص والعام.

إن الاهتمام بموضوع البناء/السكن في مدينة مشرع ابن القصيري وضواحيها ينمي المعرفة الإنسانية المترتبة بدورها عن الوعي العميق والناضج التي تكشف عن مجموعة من الأمور والحقائق.. المنبثقة عن الواقع الموضوعي المعيش.

وكما نرى، فإن الواقع البنائي/السكني الغرباوي بصفة عامة وفي المشرع وضواحيه بصفة خاصة – حتى الآن – يمكننا من الوصول إلى إدراك وملاحظة ومعرفة.. مجموعة من الأشكال الهندسية البنائية/السكنية الغرباوية، ضمن الأزمنة المتداخلة والمتقاربة.. المشكلة من مرحلة قبل الاستعمار - ومرحلة الاستعمار – ومرحلة ما بعد الاستعمار، وهي على شكل عناصر مختلفة ومستقلة تارة ومركبة تارة أخرى، باعتبارها القاعدة الأساسية المحددة لطبيعة البناء هنا، التي تكشف لنا الحقيقة الوجودية والحركة الاجتماعية والثقافية والتاريخية والحضارية الخ.

إن البناء/السكن ليس إنتاجا اعتباطيا وعشوائيا، وإنما هو نتيجة الوعي الإنساني بضرورة الاحتماء والاستقرار والهدوء والطمأنينة والنظام والتنظيم، وهو نتيجة عمل الإنسان الفني المعبر عن مدى قدرة الإنسان وإرادته.. على إعطاء حياته معنى ودلالة وأهمية..!؟!

وقد نلخص إلى القول – كما رأينا – إن الاهتمام بأشكال الهندسة البنائية هنا في مشرع ابن القصيري وضواحيه، ومعرفة ماضيها وحاضرها وتكوين رؤية مستقبلية لها، والتفكير في إصلاح وتغيير

وتطوير وتجديد واقعها يكمن في معرفة مراحلها الثلاث السابقة الذكر؛ قبل الخوض في أي مشروع مستقبلي لها. وهذا يستدعي الاستناد على التوثيق والتسجيل والتصوير.. وكل ما من شأنه أن يفيدنا في مجال البحث والدراسة والتفكير..!؟

وهكذا، وإذا ما تم إستيعاب وفهم ومعرفة المراحل الثلاث بكل مكوناتها وأبعادها وأهدافها وتجلياتها، أصبح من السهل القيام بتطوير الواقع الموضوعي وتجديده على المستوى الفني المعماري/السكني الملائم للعقلية المتطورة بدورها والتي تشكل العنصر الأساسي في العمل والتعامل مع هذه الإشكالية المتداخلة والمتشابكة.. لأن التفكير في التجديد والتحديث.. من غير مراعاة ومعرفة المعطيات العقلية والثقافية والتاريخية والدينية.. في الغالب ما يسقطنا في مشاكل وإشكاليات عويصة وصعبة.

ومن غير شك، فإن الإنسان الغرباوي في مرحلة ما قبل الاستعمار، مثله مثل أي إنسان مغربي يعيش في البادية، قد عانى من الطبيعة ومن السكن، ومن الحياة بصفة عامة. فقد سكن في الأكواخ والخيمات المصنوعة من القصب و"الديس". وهو نبات ينمو في المياه الراكضة والجارية، وبعد أن يجف وييبس يصبح صالحا للسقوف، أي سقوف وجدران الأكواخ والنوالات.. لحماية الإنسان من البرد والمطر.. كما عاش هذا الإنسان في بيوت الطين والإسمنت.. وهكذا كانت الأشكال الهندسية البنائية/السكنية في تلك المرحلة ملائمة مع العقلية السائدة والثقافة المسيطرة..الخ. ولم يكن يحتاج في تلك المرحلة كذلك إلى دراسة المهندسين المتخصصين ولا إلى التصاميم المحكمة والمتقنة.. بل

كل شيء كان يقوم على أساس الفطرة والخبرة أو التجربة اليومية التي اكتسبها من الحياة بفضل العمل والممارسة.

أما مرحلة الاستعمار، فقد تميزت بوجود اختلاف واضح في مجال السكن بين السكن/المعمار الأوروبي والمعمار المغربي الغرباوي بحيث ظهر البعد الثقافي والحضاري والتاريخي والوعيي.. ودور الإنسان في هذا البناء أو ذاك. وارتبط السكن/البناء بالوعي والمعرفة وإشكالية التقدم والتخلف، وأهمية الإمكانيات من هذا الطرف أو ذاك. وتأكدت هذه الحقيقة في وجود اختلاف كبير بين المساكن/ المنازل الغرباوية القديمة، والمساكن/البنايات الغربية الأوروبية في إطار المعطيات والأبعاد والتصورات.. المترتبة عن الوعي التاريخي والفكري والثقافي والاقتصادي.. – كما قلنا – فبنى كثير من المستعمرين مساكن فخمة وجميلة.. حديثة وعصرية.. قائمة على قوانين وأنظمة التقنية والهندسة.. المعاصرتين. تجلى ذلك في كثير من الفيلات الموجودة – حتى الآن – داخل المدينة، وفي الدور السكنية الجميلة حتى في الضيعات الخارجة عن المدينة.. كما شيد الاستعمار نزلا جميلا كذلك في المدينة سمي بـ "نزل الليمون" (*HOTEL DES ORANGERS*) كان يجيء إليه المستعمرون وكثير من الشخصيات الفرنسية البارزة في المناسبات المتنوعة والمتعددة. كما شيدوا كثيرا من الحانات من بينها وأشهرها *Bar de Popaul* و *Bar de Rénond*، وكثيرا من الملاعب الرياضية.. وسينما وبريدا ومحطة للقطار وقنطرة سبو..الخ. كما تجدر الإشارة إلى أن كثيرا من المباني الاستعمارية قد تميزت بسقوفها القرميدية وزرعوا الأشجار التي لا زالت شاهدة على ذلك حتى الآن، كما شيدوا المحاكم والسجون والمدارس والمعامل..!؟!

ويمكن اختصار القول، في أن الاستعمار جاء يجسد رؤيته وفلسفته في الواقع المغربي على العموم والواقع الموضوعي الغرباوي على الخصوص.. وذلك بتنظيم قيم الحياة بكل أبعادها الإنسانية والاجتماعية والثقافية والحضارية والتاريخية والسياسية والايديولوجية والاقتصادية. ومن هنا فإنه لم يقتصر على الإنتاج المادي كالبناء فقط، وإنما جاء يبسط نفوذه ويغطي كل مجالات الحياة بأنشطته المتنوعة والمتعددة، الثقافية والساسية والحضارية..الخ.

أما ما يميز مرحلة بعد الاستعمار، هنا، حتى الآن، فإن نظرة المسؤولين على المعمار/البناء وعن المرافق الأخرى الفكرية والثقافية والرياضية والتربوية، لم تستفد من الحداثة ومتطلبات العصر.. وهذا يتجلى في الأحياء الشعبية التي جاءت على شكل "تجزئات" بدون مرافق اجتماعية وثقافية ورياضية..الخ. كما جاءت أشكال بنائها الهندسي على شكل مزيج، تطغى فيه الرؤية الأوروبية أكثر، سيما على مستوى التصاميم.. مثلما هو الأمر، في حي بام وحي المسيرة وحي الليمون 1 و 2 وحي الفيلات، من غير نسيان العمارات الخصوصية التي تفتقد هي الأخرى إلى المرافق.. المذكورة..!؟! هذا لا يجعلنا ننكر – كما قلنا – الازدياد في البناء نظرا للعدد المتزايد من السكان، كما بنيت البلدية ودارا للشباب والمحكمة ونزل الشرطة..الخ. والإشكالية تكمن في الوعي الفكري والثقافي.. التي ظلت مرتبطة بالماضي وبالرؤية السياسية المتخلفة لدى المسؤولين عن مدينة مشرع ابن القصيري وضواحيها..!؟!

وإذا كانت التقنيات الحديثة وتقدم العلوم.. قد ساهمت في تنظيم وتسيير وإنشاء العمران البشري بشكل عام، فإننا نرى أن كثيرا

من المدن والقرى.. الغرباوية، وفي المقدمة مدينة مشرع ابن القصيري وضواحيها، لا زالت تعاني من عدة مشاكل، وعلى الخصوص – كما قلنا – على مستوى المرافق الثقافية والرياضية والسياحية والاجتماعية والاقتصادية..الخ.

هذه الإشكالية تؤثر بشكل أو بآخر في حياة الإنسان الغرباوي على الخصوص، والإنسان المغربي على العموم. لأنها تغرقه في نمط من العيش الصعب والمؤزم، وتحدث بينه وبين طبيعة أهدافه وأبعاده وأغراضه.. صراعا عنيفا يؤدي به في الغالب إلى تدهور وانحطاط قيمه وأخلاقه.. والدفع به في مستنقع المتاهات والضياع..!؟!

ولعل من أبرز ما يميز الأشكال المعمارية الحديثة والمعاصرة أنها تهتم في هندستها/تصاميمها وفي بنائها.. بما يوفر للإنسان الراحة والصحة والاستقرار والأمن.. للتغلب على ضغوطات وقلق وأزمات.. الواقع الخارجي.. ومن جهة أخرى أن توفر له المرافق الأساسية والضرورية.. وفي مقدمتها الفكرية والثقافية والرياضية.. لانفتاح عقله أكثر من انغلاقه !؟

ولهذا يمكن القول بأن اهتمامنا بالمعمار الإنساني في منطقة الغرب على العموم وفي مشرع ابن القصيري وضواحيه على الخصوص، يتمركز حول الاستفادة من التحولات والتطورات والتغيرات.. الإيجابية التي طرأت على المعمار البشري على جميع المستويات وفي جميع المجالات.. حتى نواكب التقدم الإنساني والحضاري والثقافي.. الذي بذل فيه الإنسان عبر كل مراحل التاريخ مجهودات جبارة..!؟!

يظهر من خلال ما تقدم، ومن خلال الواقع المعاش (حتى الآن) في مجال العمران/السكن، أن الغرب على العموم وسكان مشرع ابن

القصيري وضواحيه على الخصوص، لم يستوعبوا ولم يستفيدوا جيدا، من إيجابيات الحداثة لإقامة مجتمع مدني، يقوم في أساسه على العلم والمعرفة العلمية.. الهادفة إلى التغير والتطور.. إلى ما هو إيجابي ومفيد للإنسان في مجال السكن وفي المجالات الأخرى. ذلك لأن المعرفة العلمية تساعدنا على المعمار الصحي والاجتماعي والقيمي.. وعلى تجنب السلبيات والمخاطر التي تهدد الإنسان وقيمه وأبعاده.. النبيلة.

ومن غير شك، لقد عرف المعمار الإنساني تقدما ملموسا وخطا خطوات كبيرة إلى الأمام، وعدم الاعتراف أو الأخذ والاستفادة من هذا التقدم والتطور والتجدد.. لاعتبارات ضيقة أو متزمتة يضعنا في إشكالية عويصة ومتشعبة.. لا تخدم الإنسان – في الغالب – ولا تعمل على حل مشاكله، بقدر ما تساهم أكثر فأكثر في تعمق وتشابك.. الأزمة..!؟!

هكذا تكون الرؤية العلمية الهادفة، رؤية بناءة وواعية بأهمية الثقافة الناضجة في كل المجالات الهادفة إلى المصلحة الإنسانية العامة، في غناها وتنوعها بحسب الأهداف التي ترسمها والأبعاد التي تحددها.

إن كل ثقافة معبرة وهادفة بإمكانها أن تفرز نسقا للعلاقات والروابط والمعايير.. الذي تتشبع به الجماعة المتمسكة به قصد التماسك والتوحد والتضامن والتواصل.. أكثر فأكثر. وهذا الموقف لا يهدف إلى إقصاء الآخر، ولا ينبذ الإبداع والتطور وحرية التفكير والتعبير والاختلاف. فالثقافة المحلية أو الأصلية هي التي تمثل ثقافة المجتمع الذي أنتجها، ومن هنا تهدف إلى "المحافظة" على هويته، وذلك من خلال انتشارها وتجسيدها في مجالات : التربية والتعليم والحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والأخلاقية..الخ.

وهكذا، وبتواصل هذه الثقافة الهادفة مع ما هو داخلي، تصبح قادرة كذلك، على التواصل مع ما هو خارجي مفيد وإيجابي، وبذلك تبتعد عن النظرة الضيقة والمتحجرة والمتعصبة والمعادية لمنطق التغيير والتطوير والتجديد.

إن الثقافات الإنسانية المتنوعة والمختلفة، وكذلك ما يعرف بالتنوع الثقافي المحلي.. يلعب كل ذلك، دورا مهما وأساسيا في عملية التواصل الإنساني والحضاري والثقافي.. وإن كان الموقف السياسي المتحيز والمتسلط.. والإيديولوجي المتعصب والضيق لا يريان سوى مصلحتهما الذاتية؟ التي تضحي بما هو عام وإنساني، في الغالب..!؟!

هكذا نرى، بأنه لقد آن الأوان من أجل تبني الرؤية العلمية الموضوعية والمعقولية.. الهادفة والمتبصرة، لمعالجة إشكالية العمران/السكن التي نحن بصددها في هذه القراءة المتأملة. ومن غير شك، فإن واقعنا المتأزم في حاجة ماسة إلى ما قلناه. وهذا التصور شرط أساسي في عمليات الإصلاح والتطوير والتجديد والبناء.. ولا بد له من أخذ الوعي الناضج بعين الاعتبار في عملية المثاقفة. ذلك أن الاختلاف في مجال الثقافة يكسب المتلقي اختلاف المعارف والمهارات والوسائل.. التي تمكنه من إنجاز عمل من الأعمال أو مشروع من المشاريع، والحفاظ على الخصوصية في ضوء العمومية..!؟!

إشكالية أنماط السكن بمنطقة الغرب!؟!

عند تناولي العدد الأول من جريدة المنطقة. 5 نونبر 2003، وأنا أتصفحها، أثار انتباهي وشد اهتمامي وتركيزي، موضوع الصديق الباحث والمهتم بالتراث الغرباوي، إدريس الكرش، حول : "تطور أنماط السكن بمنطقة الغرب : قبائل التوازيط كنموذج".

وعلى الرغم من الأهمية التي يكتسيها هذا البحث القيم في مجال التراث البدوي الغرباوي، وعلى الرغم من الفراغ المهول الذي تعاني منه هذه الثقافة الغرباوية على مستوى البحث والدراسة والتوثيق.. فقد يجدر بنا استخلاص بعض الملاحظات، من هذه الدراسة القيمة، والتي ستغني، دون شك، مجال التحليل والمناقشة والتساؤل والنقد.. في حقل المعرفة العلمية، منها : اعتماد الباحث على الدراسة الوصفية المتداولة لدى العامة – في الغالب – والمنبثقة بدورها من الواقع الموضوعي المعيش البسيط. هذا لا يعفينا إطلاقا من أن لا نصغي بكل وعي وأن لا نستند بكل تركيز معمق على معطيات الواقع المتنوعة والمختلفة في مجال البحث والدراسة.. حتى نحقق الموضوعية النسبية. ولا يجعلنا لا نستفيد من الآخر، بدعوى التفرد بالمشروع الثقافي والفكري على مستوى البحث والدراسة، وعدم احترام حق الاختلاف والعمل المشترك. وإنما ما نهدف إليه هو طرح الإشكالية المتعلقة بالسكن/ العمران في منطقة الغرب، على المستوى الواسع، الشامل والعام، وذلك لتقريبها أكثر فأكثر إلى القارىء المهتم والبسيط على حد سواء.

لقد تناولت دراسة الباحث إدريس عنصر الطبيعة في جوانبه الإيجابية والسلبية، من بين هذه الأخيرة، جانب الحاجز الطبيعي الأساسي في عدم الاستقرار، والبناء/السكن الثابت بالطوب أو الحجر.. في القديم، في منطقة الغرب، وهو المتجسد في الفيضانات المترتبة عن الأنهار والأودية.. مثل : سبو، بهت وورغة..الخ. التي حالت دون الاستقرار، وبناء المساكن الثابتة.. ولكن ما القول بالنسبة لمجموعة من المساكن القارة التي بنيت بالآجور والإسمنت/الطين الطوب والقصب والأعواد والخشب.. في مراحل متعددة ومتنوعة قديمة في منطقة الغرب، مثل المباني : القديمة والرومانية الموجودة على سبيل المثال لا الحصر، في بناصا ووليلي وجهات غزباوية أخرى!؟ وما القول في المباني العربية الإسلامية، مثل، مدينة البصرة الموجودة بين سوق الأربعاء الغرب وحدكورت ووزان، والتي لا زالت آثاراتها تقاوم حتى الآن..!؟ وما القول في الآثار المبنية الإسماعلية المنتشرة هنا وهناك في منطقة الغرب!؟ وما القول في المباني الطوبية والإسمنتية التي كانت ملكا لقواد وأعيان وأغنياء.. المنطقة قبل مجيىء الاستعمار الفرنسي..!؟

لقد قلنا في كتابنا "من وحي التراث البدوي الغرباوي" الطبعة الأولى غشت 1999 (الجزء الأول) مطبعة أمبريال – الرباط – ص 198 : "فآثار بناصا أو سيدي علي بوجنون تضعنا أمام مراحل وحقب تاريخية متعددة ومتنوعة ومختلفة : قبل الميلاد وبعده، قبل الإسلام وبعده.. ثم قبل الاستعمار الفرنسي وبعده..الخ".

إن الحديث عن إشكالية السكن الثابت والمتحول/ القار والمتغير.. لا يرجع فقط إلى الظروف الطبيعية القاسية، بل كذلك إلى عوامل أخرى، من بينها وأهمها، الظروف الإنسانية والاجتماعية والاقتصادية.. التي لها علاقة متينة بعيش وحياة الإنسان الغرباوي البسيط والمهمش والمحتاج إلى الأمن والأمان.. على العكس من الإنسان الغرباوي الميسور والمحظوظ.. الذي كان – ولا زال – يتمتع بالاستقرار في المسكن وبالعيش الرغد وبحياة البدخ واليسر والغنى والطمأنينة والأمن.. حيث جاء في أقوال الباحث إدريس : "لم يكن اهتمام الإنسان الغرباوي بالسكن كبيرا، نظرا لطبيعة ظروف الحياة ونمط العيش المتنقل بحثا عن الكلأ، لذا فكر في إنشاء منازل متنقلة صنعها من الواقع المعيش فابتكر النوالة *(La Hutte)*.".

إن الحديث عن النوالة، وكما هي في الواقع، وكما يعرف جيدا الصديق إدريس العارف بحقائق البادية، كمسكن مصنوع من القصب أو الأعواد.. ومن الوحل/الغيس أو الطوب والديس والبردي.. لم يكن سكنا متنقلا أكثر مما هو قار وثابت. فكثير من القبائل والقرى والدواوير.. الغرباوية – وغيرها – قد تشكلت مساكنها من النوايل القارة، *(Les Huttes)* كما يثبت لنا ذلك الواقع الموضوعي المعيش، وكذلك كثير من الدراسات والأبحاث الأنتروبولوجية المصحوبة بالصور، كما هو الأمر في بحث جان لوكوز "الغرب : فلاحون ومعمرون" المعروف. وبذلك تصبح الدراسات والأبحاث.. المتعلقة بالماضي تتسم بالشمولية، في تعاملها مع الفترة التاريخية التي تهتم بها، تمكن القارئين والمهتمين والدارسين.. سواء الآن أو في المستقبل، من معرفة ما كانت عليه الأشياء

بالفعل في الواقع الموضوعي المتعلق بتلك المرحلة أو الفترة، التي يتحدث عنها البحث أو الدراسة..!؟!

نعم لقد نتفق مع الباحث إدريس الذي قدم لنا بحثا متميزا وهاما على مستوى التوثيق التراثي والثقافي.. في ظل ظروف وشروط صعبة جدا، أثناء البحث والدراسة لعدم توفرنا على الوثائق الكافية – والشبه المنعدمة – المتعلقة بهذه المنطقة المنسية والمهمشة، كما أشرنا في كتابنا السابق الذكر، أكثر من مرة، حين قدم إلينا مجموعة من الأسماء لمجموعة من الأشياء التي كانت – ولا زال البعض منها – موجودة في الواقع الموضوعي الغرباوي، وكيف استغلها هذا الإنسان الغرباوي النشيط والعامل والمبدع الخلاق، وذلك في سياق علاقة الدال بالمدلول أو الأسماء بالأشياء.. كما يقول اللسنيون المعاصرون. هذه الأشياء والأسماء القيمة، بدأت تختفي – أغلبها – وتضيع بضياع مكانة وظيفتها في الحياة نظرا للتحولات السريعة الطارئة على واقعنا الموضوعي المتحرك بصفة عامة، والواقع السكني بصفة خاصة. والدليل على ذلك جهل أبنائنا/أجيالنا.. لكثير من هذه الأشياء والأسماء : (البَرْدي، البرواك، السمار، الديس، الدوم، الطارفة، الشواري، البردعة..الخ.

وبفضل مثل هذه الأعمال والأبحاث والدراسات.. الجادة ستتمكن الثقافة الغرباوية وتراثها من إثبات الوجود وضمان الاستمرارية وكذلك تحقيق الأهداف المتوخاة تحقيقها بتحقيق التراكم الجاد والملتزم.. في هذا المجال وفي غيره من المجالات الأخرى. ولعل أهمية ما قلناه تكمن بالأساس في التساؤلات التالية : ما هي النسبة المحققة في

هذا المجال الدراسي التراثي والثقافي الغرباوي؟ وهل نحن أمام تراكم يسير نحو تحقيق الأهداف المتوخاة تحقيقها!؟

نعم إن محاولة الباحث إدريس الكرش هي محاولة جادة وهادفة ومهمة في مجال المعرفة والتوثيق والتدوين والبحث والدراسة.. الذي تفتقر إليه هذه المنطقة المهمشة وهذا التراث المنسي. ومشكل العمران/السكن كما تناولناه في الدراسة السابقة يمكن طرح إشكاليته على مستوى ثلاث مراحل مهمة، هي : المرحلة القديمة – المرحلة الاستعمارية. ومرحلة ما بعد الاستعمار. هذه المحاولة التصنيفية التقريبية تساعدنا على الطرح الإشكالي المعماري/السكني في سياقه العام والشمولي.. أكثر فأكثر، من سياقه الوصفي والخصوصي أو الانفرادي.

هذا الموقف/التصور لا يجعلنا نقف موقف الرفض وعدم الاستفادة من ثقافة الآخر/الأوروبي أو الغربي.. من جهة، ولا يجعلنا ننسى ما أنتجه الإنسان المغربي والغرباوي من جهة ثانية. فالإبداع والتفنن في صناعة الصوف، مثلا، عرفت قبل دخول الاستعمار إلى المغرب!؟!

إن محاولة الباحث إدريس جاءت واضحة من خلال لغتها وتعابيرها المتجسدة في تجميع والتقاط وتوظيف الأسماء والأشياء.. في المجال السكني. وهذه المحاولة لها أهميتها – كما قلنا – إذا ما وضعناها في إطارها العام وفي سياقها الفكري والثقافي والتاريخي.. لهذه المنطقة. لكن هل يمكن القول بأنها استطاعت أن تحقق الأهداف العامة والخاصة المرتبطة بإشكالية السكن في منطقة الغرب!؟ وهل استطاعت أن تسد الفراغ المهول الذي تعاني منه المنطقة في مجال البحث والدراسة على العموم وفي مجال السكن على الخصوص..!؟

إن ما اهتم به الباحث إدريس قد أفاد، بدون شك هذه المنطقة وسد ثغرة من ثغراتها بالرغم من أنه تناول إشكالية السكن من ما هو خاص ووصفي – في الغالب - !؟

إن اللجوء، مثلا، إلى أعواد الأشجار والأخشاب.. لصنع البيوت الخشبية الملفوفة بالكارطون أو بالطين أو الوحل أو الأعشاب مثل البردي أو الديس.. لم يكن تقليدا للفرنسيين أو الغربيين فقط، وإنما كان قبل ذلك، سواء في الحضارة العربية الإسلامية أو في الحضارات الأخرى، أو في الثقافة المغربية القديمة، وهذه ملاحظة أخرى، ندرجها ضمن ملاحظاتنا لهذه الدراسة القيمة والمهمة.. التي تفيد مجال البحث والدراسة والاهتمام بالثقافة الغرباوية. وهذا ما استدركه الباحث إدريس في الأخير، حين قال : "إضافة إلى هذه الأنماط التي ذكرنا، لم تخل المنطقة من مآثر عمرانية هامة عرفها مشرع الرمل ومنطقة دار سالم عهد المولى إسماعيل من قلاع وحمامات لا زالت شاهدة على حضارة هذا البلد التليد."

المنطقة : أقلام العدد الأول 05 نونبر 2003

تطور أنماط السكن بمنطقة الغرب :

قبائل التوازيط نموذجا

حالت الظروف الطبيعية دون استقرار بشري مبكر بمنطقة الغرب، التي كانت تغمرها المياه من جراء فيضانات نهر سبو، وانتشار المستنقعات الذي أدى إلى تفشي أوبئة متعددة.

واعتبرت المنطقة أرضا موحشة بأدغالها المتكونة من النباتات المائية "كالبردي"[1] "والبرواك"[2] والقصب و"السمار"، وتبقى الأرض مثقلة للوحل بعد تراجع مياه الفيضانات.

كل هذه العوامل، وإن لم تكن في مصلحة الاستقرار البشري، لعبت دورا محفزا في حياة الإنسان الغرباوي للبحث عن الأمن والاستقرار، مستغلا هذه الموارد الطبيعية لصالحه إبان تجفيف المستنقعات كبادرة أولى لاستصلاح الأراضي فترة الحماية الفرنسية التي أرادت أن تؤمن غذاء شعوبها من خيرات مستعمراتها.

لم يكن اهتمام الإنسان الغرباوي بالسكن كبيرا، نظرا لطبيعة ظروف الحياة ونمط العيش المتنقل بحثا عن الكلأ، لذا فكر في إنشاء منازل متنقلة صنعها من الواقع المعيش فابتكر النوالة « *la hutte* »[3] وهي مسكن ذو شكل مخروط متسع القاعدة، حاد القمة متكون من مواد طبيعية كالخشب و"الديس"[4] أو "البردي" وأشرطة الدوم و"حلالة"[5]، تحتضنه وأبناءه وتحميه من ظروف الطبيعة القاسية، سريعة التنقل عبر تفكيك عناصرها التي تجدد كلما دعت الضرورة لذلك الانتقال بحثا

عن الكلأ (العزيب/([6] الهرب إلى قمة التلال خوفا من جرف المياه.. وقد عرف هذا الشكل من المساكن اختلافات بسيطة وتنوعا على مستوى المواد، حسب الدواوير، كاستعمال الوحل "الغيس"[7] لتبليط السقف الخارجي، مثال : القبائل المجاورة لضفة نهر سبو اليمنى أو ما يعرف حاليا بـ "لمساعدة/دار العشلوجي/السواسيين/ أولاد بلخير/طناجة/لمطارفة.... أما مناطق الرمل، ونخص بالذكر بعض دواوير التوازيط بشطريها : بني فضل/أولاد سيدهم/ الشنانفة لبيض/الشنانفة لحمر/ لحلالبة/ أولاد بوشيبة/ الركابي/ ولاد بنعيش/أولاد حمودو.... فتميزت سكناهم بالتوايل المذكورة سالفا دون تبليط مع الاعتماد على الخشب و"حلالة" لاقترابها من الغابة.

وكان ظهور بوادر اهتمام بعض الدواوير بالسكن مرتبطا بتحسن الدخل الفردي الفرنسي بتشجير الغابة وجلبه لشجر الأوكالبتوس على يد "مناجي"[8] حيث اهتم بالمنابت لإنجاح التجربة بعدما تأكد له ذلك من خلال الظروف المناخية والتربة الملائمين ولعل ظهور مركز المعمرين على نمط الأوربي بمدينة سيدي يحيى الغرب سنة(*le village*)[5] 1919 إلى حدود منتصف الأربعينات الذي سدل تواجد الأمريكان، أخرج هذه الفئة من قوقعة البقاء على السكن التقليدي متأثرين بالنموذج الغربي، والاقتداء بالمنازل الغابوية لإدارة المياه والغابات التي أنشىء بعضها سنة 1917 لتبهر الساكنة المحلية. لكن هذه الفئة شكلت نسبة ضئيلة مقارنة مع باقي سكان المنطقة. ومن بين الدواوير التي اهتمت بالمسكن : دوار أولاد أبو رحمة" لاعتبارات شتى من بينها مبادرة الفرنسيين فترة

العشرينات، ما يسمى حاليا "ديور المخزن" ولتواجد شركة التبغ "الموازين" التي وفرت لهم مناصب شغل مكنتهم من تحسين ظروف عيشهم.

ومع تزايد اهتمام سكان التوازيط بتربية المواشي؛ ماعز/بقر/غنم/بغال/حمير/خيول.... تعاطت المرأة التازوطية كباقي النساء القرويات بالمغرب لفتل الدوم، كمرحلة أولى، حيث تفننت في صنع أنواع من الحبال (الشريط/9 الطارفة/10 الحبل) استعملت في حمل الحطب/ جلب الماء من نهر تيفلت/ ربط البهائم /عملية الحرث... أما الرجل فقد أبدع في توظيف الدوم و"السمار" لصنع حصائر أثث بها مسكنه، وأنشأ وسائل ساعدته في القيام بأعماله اليومية "كالشواري / 11 البردعة /12 القفة... لتنتقل إلى غزل الصوف وشعر الماعز في المرحلة الموالية التي عرفت من خلالها قفزة نوعية سواء على مستوى تحسين نمط اللباس الذي كان يعتمد على (الفراجية) 13 وانتعال جلود الحيوانات في أحسن الأحوال.

وبتنامي السكن في ظروف مناخية ملائمة أصبحت الصوف مادة طبيعية منافسا قويا للدوم، استغلها الإنسان التازوطي في تحسين مسكنه والانتقال من "النوالة" إلى الخيمة، وهي إحدى مظاهر تطور أنماط السكن بالمنطقة. لا زالت بعض المناطق تهتم بها كالخيمة الزمورية والصحراوية كرمز للأصالة المغربية وهي عبارة عن شرائط (فيج14 منسوجة من وبر الماعز والصوف ولفائف جذع الدوم "الليف" 15 تخاط مع بعضها وترفع بركائز من الوسط وتثبت على الأرض بأوتاد تدق بمطرقة خشبية "الرزامة". 16 وإذا كانت "النوالة" تخضع لتصميم الغرفة الوحيدة فإن الخيمة عرفت نظام الغرفتين لشساعة فضائها عبر فصلهما "بالرحل"

17 وهو عبارة عن صوان يحمل حاجيات المسكن يوثق بين الركيزتين. تختلف تسميتها حسب حجمها فيقال لصغيرة الحجم "عشة وهو مصطلح غير بعيد عن أصله اللغوي "عش" بمعنى الوكر والمسكن. ومن مكوناتها : " الطريقة / 18 الكليفة / 19 الخص / 20 الحمار / 21 الأوتاد" ويعتبر "الخص" سياجا واقيا يحيط بالخيمة لحماية ساكنيها من البرد، ودرءا للرمال والأزبال المتطايرة، وهو متنوع الاستعمال إذ يستخدم موسم جز الصوف لتجديد مكونات الخيمة أو الاكتفاء بصباغتها وذلك بطرحها أرضا وذبح كبش بحضور أفراد القبيلة.

إلى حدود اكتشاف الخيمة لم تكن نسبة الاستقرار تتجاوز نسبة "ولوج الوتد في الأرض، ولعل التزايد الطبيعي لعدد سكان قبيلة التوازيط وتكاثر عدد أفراد الأسرة الوحيدة جعلهم يفكرون في استقرار يضمن لهم قوتهم بممارسة النشاط الفلاحي موازاة مع تربية المواشي، حيث توزع المهام بين أفراد الأسرة، فئة تكلف باستغلال الأرض وهي التي توكل لها مهمة "بناء المسكن وأخرى تلتحق بالعزيب" المجال الرعوي الخارج عن دائرة الأراضي الفلاحية وغالبا ما يكون على هامش الغابة (الشط).22

بعد تنظيم المجالين الفلاحي والرعوي وفقا لأعراف قبلية، تولدت لدى الفلاح فكرة الاستقرار وحب التملك، وبدأ يفكر في مسكن تنغمس جذوره في الأرض أكثر من الوتد. فالتجأ إلى أخشاب الغابة وصنع بيتا خشبيا لف جدرانه بورق "الكارطون" الأسود "المزفت" 23 أطلق عليه اسم "البراكة" "*la baraque*" استعملها الجنود الفرنسيون، قبل ذلك، كمؤسسات تعليمية ومراكز للمراقبة ومحطات للقطار إبان

تواجدهم ببلادنا فترة الاستعمار. وهي بناء مفكك سريع التنقل يدخل في خانة نظام الغرفة الفريدة مثل "النوالة" واعتبر هذا النمط نواة أولى لمدن الصفيح في المغرب، ليتحول فيما بعد إلى أحياء قصديرية (البراريك 24، الزرايب 25، الكرينات (...126 أربكت حسابات المسؤولين عن قطاع الإسكان.

عرف المغرب فترة عصيبة على مستوى الأمن الغذائي، مما جعل سكانه في مد وجزر بحثا عن اكتفاء ذاتي، دفعهم إلى هجرات داخلية نحو مناطق آمنة، من بينها منطقة الغرب التي عرفت تدفقا بشريا من الجنوب "سكان الصحراء" وكان لهذه الهجرة عوالم إيجابية، وذلك بالتحاق أناس، مجربين محنكين صبورين، بذويهم. ساعدوا سكان الغرب على حفر الآبار وبناء مساكن جديدة على النمط الصحراوي "بالطوب" القلاع والقصور.. أوجد سكان التوازيط في هؤلاء سندا قويا والتحموا بأصلهم باعتبارهم منحدرين من أصل صحراوي إحدى فروع قبائل "تازوطة" 27 سيتم التخلي تدريجيا عن البراكة بالريف التازوطي للتشبث بالمنزل التقليدي الأصيل المبني "بالعجنة" 28 وهي خليط من الحمري والتبن والتراب، تصنع اللبنات في البدء على شكل قوالب مستطيلة "المقدار" 29 جانب النهر تفاديا لكلفة جلب الماء، وتترك لمدة تفوق خمسة عشر يوما (15 لتنتقل بعد ذلك لمكان بناء البيت. ويعتبر أساسه أعمق من أساسي "النوالة" والخيمة. وما يميزه هو الاهتمام بالتهوية عبر نوافذه الأمامية والخلفية مع وضع بوابة صغيرة في أعلاه كمدخل للمخزن. "السكنى" كبديل "للرحل" في الخيمة، يسقف بالقصدير. ويمنع دخول الحرارة يوضع سقف داخلي من القصب أو الخشب أو البردي يراه

الجالس من الداخل. ولما استأنس التازوطي بالبيت طويلا ووجد فيه ملاذا مريحا فكر في طلائه بالجير من الداخل كمرحلة أولى وزينه بصور لرموز وطنية وقومية؛ كالمرحوم جلالة الملك محمد الخامس، وجمال عبد الناصر وبعض الصور الفنية توحي ببطولات السلف الصالح "معارك للصحابة رضي الله عنهم رفقة علي بن أبي طالب" ولم تخل أبواب هذه البيوت من صفائح خيول درءا للعين.

ومن خلال هذا الجرد التاريخي والسوسيولوجي لنمط السكن بقبائل التوازيط سنلاحظ تغييب مرافق عديدة من بينها عدم الاهتمام بالمرحاض وذلك لتواجد المنازل وسط نباتات الغابة. أما مفهوم المطبخ فقد ظل حاضرا بقوة، إذ لا يمكن التمييز أحيانا بين غرفة النوم ومكان الطبخ سواء داخل "النوالة" أو "البراكة" أو البيت.

وسيظهر لاحقا مفهوم "الخالفة" 30 وهي المطبخ، وغالبا ما يتموقع خلف السكن كي لا يتسرب دخانه إلى فضاء البيت. ظهرت بوادر المطبخ ضمن مرافق السكن التازوطي مع الخيمة باستعمال "الخص" كجدار مؤقت لذلك – كما ذكرنا ذلك سالفا – وتبلورت الفكرة بشكل جلي عبر صيرورة تاريخية أفرزت فكرة السكن الرئيسي والثانوي. فبظهور الخيمة، واستنادا لمنطق الأفضل، أصبحت "النوالة" ثانوية لدى الأسرة التازوطية حيث استعملت مطبخا، كما ستتحول الخيمة فيما بعد إلى فضاء للطبخ بظهور "البراكة" وهكذا ذواليك، وقد عرف المطبخ أسماء متعددة بالمنطقة ذات أصول محلية؛ "الكشينة" "الكوزينة" (*la cuisine*) (*kitchen*) ومن بين التحسينات التي أضفاها السكان على بيوتهم "المشتة" 31 وهي سقف من "الديس" أو "حلالة" يبنى

على بوابة المنزل، يستغل للجلوس نهارا تحت ظله، وإن كان المصطلح مشتقا من الشتاء، لكونه يحمي من قطرات المطر أيضا، ليتطور فيما بعد إلى سقف قصديري. ونظرا لسرعة الرياح بالمنطقة سيعاني التازوطي من كلفة تغيير السقف المذكور كلما عصفت به رياح فصل الشتاء الهوجاء، ليهتدي في بداية الثمانينيات إلى نمط مستورد من شمال المغرب. وهي بناية من الأعواد مبلطلة بالحمري متعددة الغرف ذات سقف موشوري محكم التثبيت مع الجدران"الشمالية" أما البنايات الإسمنتية فلم تظهر بالمنطقة إلا عبر مؤسسات الدولة (مدارس) ولدى بعض الأسر الميسورة نسبيا. لم تكن بالشكل الحديث وإنما تم استبدال "المقدار" فقط بالآجور، مع الاحتفاظ بالسقوف القصديرية، وفي حالات نادرة شكلت المساكن اللائقة بمواصفات صحية نسبة. 0,5% وهناك نمط آخر، قد يعتبر من أقدم الأنماط بالمنطقة وإن ظهر مؤخرا في صفوف العاملين بأوراش غابة المعمورة ألا وهو "الكوربي" Gourbi 32 مسكن مؤقت يبنى بخشاش الأرض والأعواد وأوراق الأشجار، استبدل مؤخرا بالخيام البلاستيكية. وقد عرفت المنطقة أنواعا أخرى من الخيام العصرية ذات اللون الأبيض "القيطون" لكنها لم تتخذ مساكنا بقدر ما استعملت في المظاهر الاحتفالية كالأعراس والمواسم واجتماعات القبائل. إضافة إلى هذه الأنماط التي ذكرنا، لم تخل المنطقة من مآثر عمرانية هامة عرفها "مشرع الرم" 33 ومنطقة دار سالم عهد المولى إسماعيل من قلاع وحمامات لا زالت شاهدة على حضارة هذا البلد التليد.

إدريس الكرش

جريدة الغرب : عدد 10 ماي 2005

إشكالية التمدين والحواضر في جهة الغرب الشراردة بن احسن قبل الحماية : عبد القادر بوراس

إن الدارس، لتاريخ منطقة الغرب الشراردة بني احسن، يسجل ان استغلال المجال، عاكسته معطيات بشرية، أكثر من معطيات طبيعية؛ كالقيضانات والجفاف والجوائح والأوبئة... ذلك أن الإمكانيات الطبيعية جد ملائمة على العموم – باستثناء المستنقعات التي كانت تغمر بعض الأماكن – ولكن المنطقة عانت من عدم استقرار القبائل، بسبب تدخل المخزن أكثر من مرة لاقتلاع بعض القبائل، وإحلال الأخرى محلها، وذلك طيلة ثلاث عهود؛ (العهد المريني – السعدي – العلوي). وهذا ما ضيع على المغرب فرصة استغلال منطقة من أخصب مناطقه والتي أطلق عليها "الأزغار" بسبب خصوبتها. وسيتأخر هذا الاستغلال إلى بداية القرن العشرين، إلى أن توفرت الشروط البشرية وفي مقدمتها تثبيت الإنسان في الأرض، وتوفير الأمن ليتلاءم مع مجاله ويتفاعل معه، وقد طرح عدد من الباحثين إشكالية غياب الحواضر في هذه الجهة التي تعد المعبر الرئيسي نحو أوربا خاصة طنجة وإلى عواصم المغرب التقليدية (فاس – مكناس) فهل يعود ذلك إلى العوامل السابقة الذكر أو إلى طبيعة الأنشطة التي زاولها سكان المنطقة أم إلى الإهمال الذي تعرضت له بعض المراكز والتي لم تستمر في نشاطها مثل البصرة والمهدية..؟

وسنحاول في هذه الإطلالة المتواضعة طرح إشكالية التمدين وإنشاء الحواضر بالجهة.

أ – ظاهرة التمدين في الجهة خلال مرحلة ما قبل الإسلام :

عرف حوض سبو ظاهرة انتشار المدن الرومانية على الخصوص، إذ أن الفنيقيين لم يتوغلوا في الداخل حسب المصادر، ولهذا كانت طيمياتريون *Thymiaterion* أو طيمياتريا *Thymiateria* أهم مُركز فينيقي معروف عند مصب نهر سبو، وعلى أطلاله أنشئت القصبة (المهدية)، في حين إن المدن والمراكز الرومانية انتشرت في الحوض الأسفل لنهر سبو على ضفافه، ومن ذلك تاموسيدا *Thaumusida* التي تبعد ب 23 كلم عن مصب نهر سبو، ويعتقد أنها كانت مرسى عسكريا قبل أن تصبح مدينة. والتساؤل المطروح لماذا فضل الرومان هذا الموقع على موقع مدينة طيمياتيريون قرب مصب نهر سبو؟ هل يعود ذلك إلى وجود الحاجز النهري *La barre* الذي يعرقل الملاحة عند المصب؟ أم استخفاف الرومان بالحضارات التي سبقتهم لدرجة تخريب المدن الفنيقية في بعض دول البحر الأبيض المتوسط حسب بعض المصادر؟

وإلى جانب تاموسيدا، نجد بناصا *Banassa* في موقع محصن يحميها من الفيضانات. ويبدو حسب الحفريات أن هذه المدينة شيدت فوق اطلال بنايات أخرى ربما تعود إلى العهد القرطاجي.

وهناك عدة مراكز رومانية أخرى مثل (ريفا) على مقربة من سيدي سليمان، ويبدو أنها كانت مركزا لصنع الأدوات والأواني الفخارية مختلفة عالية الجودة. والجدير بالذكر أن هذه المراكز التي أقيمت على ضفاف نهر سبو وروافده لم تكن عنوانا لحضارة نائية عريقة تقوم على صيانة منظومة الري واستصلاح الأراضي إقامة المنشآت العمرانية التي تجند لها الآلاف من العبيد والفلاحين كما الشأن في

ضفاف وادي النيل حيث قام الفراعنة بصيانة منظومة الري وأقاموا الأهرامات العظيمة، أو حضارة بلاد الرافدين حيث تمكن البابليون والآشوريون والكلدانيون من إقامة مدن وشيدوا معالم حضارية مثل أبراج بابل، وعلى ضفاف أنهار الهند التي عرفت حضارة عمرانية عريقة تجلت في المعابد، أو في الصين أقيم سور الصين العظيم تم استصلاح الأراضي. أما الرومان في جهة الغرب فقد حصنوا مواقعهم بحدود "الليمس". كما أقاموا مدنهم التي تشبه القلاع العسكرية في أماكن محصنة. لهذا كانت حضارتهم في المغرب حضارة متواضعة، وهذا قد يساعدنا على فهم عدم استمرار المدن الرومانية في قيادة التمدين بالمنطقة إذ تدهور أغلبها ابتداءا من القرن الرابع الميلادي لما ضعفت الامبراطورية الرومانية. ولا يعرف متى اختفت هذه المدن التي كانت تحيط بمدينة القنيطرة، بل أن هناك فرضية مفادها أن هذه المدن وغيرها سقطت في يد أمازيغيين بعد انسحاب القوات الرومانية، فتحولت تدريجيا إلى قرى أمازيغية قبل أن تختفي في الواقع. وبدخول الإسلام إلى المنطقة ظهرت مدن إسلامية جديدة بعيدة عن المراكز الرومانية.

ب – المدن الإسلامية في جهة الغرب :

لقد ظهرت أغلب المدن والحواضر في المغرب بعد الفتح الإسلامي، وكان أغلبها يقع في ملتقى طرق تجارة القوافل إذ كانت المدن تقوم بدور الوسيط التجاري بين مجتمعات لا تعرف بعضها البعض، أي تربط بين منتجات يجهل كل من المجتمعين كلفتها بالنسبة للآخر، وهذا شأن سجلماسة مثلا أو مراكش الخ... أما بالنسبة للغرب فتشكل مدينة البصرة أقدم مدينة إسلامية بها إلى جانب المعمورة ثم وزان. وبالنسبة

للبصرة، يقول الحسن الوزاني: "... وقد تأسست مدينة البصرة على يد محمد بن إدريس الأزهر الإمام الثالث للدولة الإدريسية سنة 218 هـ موافق 833 م".

وتحدث صاحب الإستقصاء عن البصرة بقوله :

"البصرة كانت مدينة بالمغرب، تأسست مع أصيلا في أوائل القرن الثالث الهجري وعمرت وكان لها شأن وموقعها بقبيلة الغرب بنواحي حدكورت" وجاء في كتاب المسالك والممالك لأبي عبد الله البكري الأندلسي :

"البصرة مدينة كبيرة، وهي أوسع تلك البلاد مرعى وأكثرها درعا وتعرف ببصرة الكتان كما تعرف بالحمراء لأنها حمراء التربة"

ويبدو أن هذه المدن تأثرت بدورها بعدم الاستقرار البشري الذي عرفته المنطقة، لهذا فقد تدهورت هذه المدن. وفي هذا الصدد يقول الحسن الوزاني :

"هذا الاقليم (الأزغار) عبارة عن سهل أرضه جيدة، لذلك سكنته أقوام كثيرة، وقامت فيه مدن وقصور إلا أن هذه الأمكنة قد خربت بسبب حروب نشبت في الزمن القديم ولا يرى لها اليوم أثر باستثناء مدن صغيرة قليلة ما تزال قائمة مأهولة"

ومن المقاربات التي تفسر عدم استمرار الحواضر في الغرب في أداء وظائفها أن الصراعات بين القبائل من أجل استغلال المجال الفني، وعدم تدخل السلطة المركزية إلا من أجل اقتلاع القبائل من جهة إلى جهة أخرى كل هذا حال دون تجذر استقرار الفلاحين وعدم وجود فئة تجارية قادرة على المحافظة على استمرارية وحيوية هذه المراكز الحضارية.

وهكذا تحدث المؤرخون عن انكماش اقتصاد القرى بفعل العوامل السابقة الذكر وانعكاس ذلك على المراكز، حيث تحولت مثلا "حدكورت" إلى أطلال في نهاية القرن الحادي عشر. وكذلك كان شأن البصرة التي عرفت تدهورا بالتدريج، ويقول الحسن الوزاني :

"كانت البصرة كثيرة السكان والمساجد، وأهلها كرماء مشهورون لكن عندما زال حكم الأدارسة نهب أعداءها المدينة وخربوها، فلم يبق منها غير الأسوار، وكذلك بعض الحدائق التي أمست أشجارها البرية لا تثمر بسبب إهمال الأرض. وإذا كان اندثار وتدهور مدينة سجلماسة يفسر بتدهور تجارة القوافل التي كانت سببا في ظهورها ونشأتها، فإن تدهور مدينة سجلماسة يفسر بتدهور تجارة القوافل التي كانت سببا في ظهورها ونشأتها، فإن تدهور حواضر الغرب لا نجد له تفسيرا إلا في الأسباب السياسية ودعم نمو الفئة التجارية في هذه المدن ما عدا وزان التي مكنتها وظيفتها الدينية من الحفاظ على استمراريتها. ولهذا فإن تدمير وتدهور المراكز الحضارية في هذا الاقليم الغني : الذي يمد جبال غمارة ومدينة فاس بالطعام والماشية والخيل... " حسب ليون الإفريقي، فإن تدهور مدن وحواضر هذا الاقليم الغني الذي تمر منه طرق نحو أوربا قد فوت على المغرب فرصة الاستفادة من حيوية هذه الحواضر ولو استمرت في وظائفها التجارية والفلاحية كما كان شأن البصرة قبل تدهورها.

والخلاصة أن الوضعية في الأزغار قبل الحماية تميزت بعدم الاستقرار البشري، إذ أن القبائل كانت يؤتى بها لدعامة الدولة، وسرعان ما يتم اقتلاعها من طرف الدولة الجديدة. وقد حدثت هذه الظاهرة عند

قيام الدولة المرينية، ثم السعدية. كما أن الدولة العلوية نقلت الشراردة إلى المنطقة كقبائل.. ولهذا كانت المنطقة تخلو من استقرار بشري ومن وجود مراكز اقتصادية تستقطب أنشطتها.

وقد استغل جهاز الحماية هذا الفراغ النسبي لرسم المنظر الاقتصادي للنمطقة *physionnomie économique de la région* على الشكل الآتي :

أولا – على مستوى التسمية : أصبحت المنطقة تسمى الغرب *Le Gharb* نسبة إلى السهل الذي يغطي الجزء الأسفل لحوض نهر سبو، وبذلك تم طمس التسمية المرجعية أي (الأزغار) التي تعني المراعي الخصبة والمروج الخضراء، وتم استصلاح الأراضي بتجفيف المستنقعات ومحاربة حمى المستنقعات، كما تم خلق ضيعات عصرية تنتج مزروعات تسويقية وصناعية لفائدة المعمرين، وأصبحت جهة الغرب القطب الفلاحي بالنسبة لمغرب عهد الحماية.

ثانيا – على مستوى استقرار القبائل : جند الاستعمار علماء لدراسة القبائل في ماضيها وحاضرها أي صيرورتها التاريخية. وقد اعتمدت هذه الأبحاث لوضع تقسيم إداري للمنطقة يراعي التجمعات البلية. وأصبحت كل مجموعة تابعة لمركز من المراكز التي أنشأتها إدارة الحماية – وبذلك ضمنت الاستقرار سكان وربطهم مصلحيا بهذه المراكز.

ثالثا – على مستوى التمدين : منذ الوهلة الأولى تم اختيار ميناء القنيطرة لتعويض ميناء العرائش، والذي احتلته إسبانيا، وذلك ليكون منفذا لمنتوجات السايس والغرب، ونتج عن هذا الميناء نمو مدينة القنيطرة والتي أصبحت قطبا اقتصاديا بالنسبة للجهة (كما سنرى في مقال مقبل حول

القنيطرة) وبموازاة مدينة القنيطرة أقام نظام الحماية مراكز حضرية مكملة لدور مدينة القنيطرة في مختلف نواحي الجهة نذكر منها :

سيدي قاسم

قبل توقيع معاهدة الحماية كان في سيدي قاسم تجمع سكاني حول الزاوية وحول قصبة البواخر وذلك قرب باب تيزرا، وكان هذا المركز يقوم بدور ديني، وعسكري وتجاري وعلى إثر الحملة الفرنسية على العاصمة فاس تم تشييد قلعة "بوتي جون "*Forteresse de petit-jean*" سنة 1911 تحولت تدريجيا ما بين 1916 و 1920 إلى نواة لمركز حضري، يحيط بأراضي الاستعمار الرسمي، وتطور سكان عدد سكان سيدي قاسم من 5037 نسمة بينهم 719 أوروبي 33 يهودي مغربي سنة 1936 إلى 19468 نسمة1960.

كما تنوعت الأنشطة الاقتصادية بسيدي قاسم بعد استقرار الصناعات البترولية بها، كما لعبت المدينة دورا هاما في الحركة الوطنية المغربية.

سيدي سليمان

بسبب سيطرة المعمرين على أراضي شاسعة في محيط سيدي سليمان تحول هذا المركز بسرعة إلى نواة حضارية ووضع لها تصميم وتزايد عدد سكانه من 554 سنة 1931 إلى 1431 سنة 1936 وقد أقام فيها المعمرون بعض الصناعات المرتبطة بالفلاحة (الخمور) كما نشأت نواة الحركة الوطنية بالمدينة تجلت في حركة المدارس الحرة التي أشرف عليها السيد "بلامين" كما نمت المدينة بعد إنشاء القاعدة الأمريكية بها.

سيدي يحيى

في البداية كانت مدينة سيدي يحيى عبارة عن مركز صغير بلغ عدد سكانه 888 نسمة سنة 1936 إلا أن ازدياد النشاط الغابوي والفلاحي بصفة عامة انعكس على نمو المدينة والتي استقر بها عدد من المعمرين المتشددين والذين هاجموا المتظاهرين في القنيطرة أيام 9- 7- 8 غشت 1954 كما أن الحركة الوطنية بسيدي يجيى قامت بدور فعال في تأطير الجماهير.

سوق الأربعاء

ظهرت أول تجزئة في سوق الأربعاء سنة 1914 وهي تجزئة بواسي *Boisset* وقد استفاد سوق الأربعاء من موقعها في مفترق الطرق نحو منطقة الحماية الإسبانية ونحو فاس والرباط عبر القنيطرة ولهذا تطور عدد سكانها من 1882 سنة 1926 إلى 7836 سنة 1951 منهم 536 يهودي وعدد هام من المعمرين إلى 11624 سنة 1960 وقد عرفت مدينة القنيطرة أحداثا تاريخية هامة على المستوى الوطني نذكر منها وقوف ولي العهد المولى الحسن بسوق الأربعاء على إثر زيارة محمد الخامس بطنجة سنة 1947 ودشن إحدى مدارس الحركة الوطنية وألقى خطبة في الموضوع سنرجع إليها لاحقا.

مشرع بلقصيري

حولت إدارة الحماية قطعة أرضية من أراضي الجموع إلى تجزئة سنة 1916 ووضع فيها تصميم لمركز حضري يتوفر على الخدمات التي يحتاج إليها المعمرون الذين استقروا بكثرة في مشرع بلقصيري وبموازاة مع هذه النواة الأوربية ظهر حي يقطنه المغاربة "دوار كليطو" وتوسعت "مدينة بلقصيري"

بعد إنشاء تجزئة "طلعت جازية" لاستقبال مزيد من الوافدين، إذ شمل مشرع بلقصيري على كل الخدمات التي يحتاجها المعمرون.

بموازاة مع هذه المراكز الحضرية ظهرت مراكز قروية حول الأسواق الأسبوعية، نذكر منها :

سوق الثلاثاء سفيان، سوق الاثنين، الخنيشات، للاميمونة، سيدي علال التازي، دار الكدراي، سيدي الكامل، المكرن، سيدي عياش، جرف الملحة، حدكورت...

وتقوم بدور مكمل للمراكز السابقة الذكر. غير أن ما يثير الانتباه في ذلك الوقت المكانة التي كانت تحتلها جهة الغرب الشراردة بني احسن في النسيج الاقتصادي المغربي وهذا ما يطرح مجموعة من التساؤلات أثارها الباحثون والمختصون في أكثر من مناسبة.

ملحوظة : الاحصائيات المتعلقة بتطور السكان أخذت من كتاب لوكوز *Le Goz :Le Gharb : Felahs et colons*

رحلة عبر نهر سبو العظيم..!؟ .

بالرغم من كثرة الأوحال في فصل الشتاء وشدة القيظ في فصل الصيف وجمال الطبيعة في فصل الربيع وكثرة الغبار والرياح في فصل الخريف.. فالحياة كانت تزخر بما هو طبيعي أكثر. فكان الارتواء بدل العطش والجفاف الذي أصبح يغزو الحياة البدوية الغرباوية وتأتي رحلتي في إطار اكتشاف بعض المظاهر والظواهر والشواهد.. الإنسانية والاجتماعية والتاريخية الأثرية والطبيعية.. وعلى الخصوص آثار باناصا الموجود على يسار ضفة نهر سبو، وفي جنوب مدينة مشرع ابن القصيري، في أرض من أراضي الغرب القريبة من عدة دواوير ترجع إلى الأصل المغربي والعربي أغلبيتهم – إن لم أقل كلهم – تتحدث باللهجة العربية المغربية الدارجية بدلا من اللغة العربية الفصيحة العالمة القحة.

انطلقت رحلتي الشيقة من جبال الأطلس الشاهقة في اتجاه المحيط الأطلسي وبالتحديد في اتجاه المهدية بمدينة القنيطرة. وأثناء رحلتي هذه كنت أتوقف عندما تقتضي الضرورة ذلك، سيما عند الأماكن الأثرية والمشاهد والمظاهر والظواهر.. الغرباوية المثيرة للانتباه والتساؤل.. أستجوب الناس وأتناقش معهم حول : الماضي، التراث، الثقافة.. وأشياء أخرى. ومما أثار انتباهي واهتمامي كذلك، هو مشاهدتي لبعض الظواهر الشعبية القديمة، المعبرة عن مدى ارتباط الإنسان بالواقع الطبيعي الموضوعي المعاش وعن مدى ارتباط وعي بعض السكان بالحياة البدوية المتجسدة في الفلاحة وتربية المواشي والعمل على ترك روثها معرضا للشمس حتى يجف ويصبح مستخدما للوقود.. وعلى تجميع الحليب وترويبه حتى يصبح صالحا للبن والسمن.. وتنظيف الصوف وتصنيعه وتحويله إلى

ألبسة وأغطية وأفرشة.. راعني منظر البادية الغرباوية المغربية واستلهمني مشهد النساء اللائي كن يحملن على ظهورهن الجرات المملوءة بماء نهر سبو العظيم.. وأنا فوق ظهر المركب الخشبي البسيط الذي يشبه مركب أحمد ابن القصيري المشهور، كنت أشاهد بيوتا إسمنتية وقد استفادت من الكهرباء ولم تستفد من الماء الصالح للشرب بالرغم من وجود المياه السائلة الفوقية والباطنية الجوفية.. وأخرى بيوتا طينية وأخرى قصبية بسيطة. بقيت على هذا الحال، حتى وصلت المدينة الأثرية المعروفة بـ "باناصا" التي لم تصمد بناياتها أمام شراسة وقساوة الطبيعة التي حولتها إلى أحجار متناثرة هنا وهناك باستثناء بعض المعالم والأشياء، مثل : الحمامات والباب المقوس المطل على ضفة نهر سبو العظيم.. بالإضافة إلى الأواني والقطع النقدية... التي أتلفها الزمان أو هربها أو أفسدها الإنسان.. قلت مع نفسي لقد عايش الغرب عدة عصور وحضارات وثقافات.. بالرغم ما يعانيه من التهميش والإهمال والضياع وعدم التدوين.. توقفت بعض الوقت في هذه المدينة الرومانية الأثرية لأتفقدها وأتعمقها أكثر فأكثر، حيث كان يرافقني أحد السكان العارفين بها كدليلي وشارحي.. شعرت بفرحة عارمة تغزو جسمي وهو لا زال يقدم لي شروحات وتفاسير.. حول هذه الآثارات وما اختلط بها من الظواهر الأخرى، مثل ظاهرة الأولياء، مثل الولي سيدي علي بوجنون.. وأخرى أسطورية وخرافية، تتبدى لك في تعليق بعض الأطراف من الثوب الملون على أغصان الأشجار هناك..!؟

المتجول في منطقة الغرب، سيشاهد امتداد نهر سبو من الأطلس إلى المحيط، يتلوى كثعبان لفتحته حرارة القيظ الشديد أو كقطار سريع يشق السهول والجبال والأنهار.. سبو الذي كان مصدر قوت السكان قبل

تعرضه لسموم التلوث القاتل.. سبو الذي كان المعبر الرئيسي لكثير من الحضارات والثقافات.. سبو الذي أصبح اليوم يئن تحت وطأة الأمراض السرطانية التي تنخره يوما عن يوم..؟!

بعد ذلك امتطيت المركب واستأنفت الرحلة في اتجاه مدينة القنيطرة، وأنا أحس بتمزق باطني عميق وبحيرة مدهشة ومتسائلة عن : لماذا لم يستفد الغرب من تأثير الحضارات والثقافات الإنسانية ولم يعرف تطورات وتحولات مهمة تقوده إلى التمدن والتحضر..؟!؟ ولماذا ظل بعيدا عن السياحة وسياسة السياحة وقت أصبح الكل، هنا في المغرب يراهن على السياسة السياحية.. باعتبار الغرب البدوي غني بمآثره المغربية والعربية الإسلامية والإفريقية والإنسانية..؟!

وبعد قضاء بعض الساعات الجميلة في عبور نهر سبو وأنا أمتطي المركب الخشبي.. وبعد إحساسي الواعي بالقرب من مدينة القنيطرة تذكرت قصة "السمكة والأميرال" لعبد الرحيم المودن، والتي كان إبني يقرأها بجانبي بصوت مرتفع.. وبدأت أتأملها وأتأمل الواقع، حيث جاء فيها بكل اختصار واقتضاب : "لو زرتم يوما، تيماتريا قديما، أيام حانون القرطاجي عند ملتقى النهر والبحر ستجدون آثارا غريبة يقذف بها البحر أثناء الجزر!! اقتربوا منها وأمعنوا النظر، فستجدون صخورا مفتتة.. بعضها مثل أصابع مبثورة. وأخرى أقرب إلى رؤوس الأسماك أو ذيولها الشبيهة بذيول الشابل أو الشابلوس الذي أصبح مجرد ذكرى."

كما عدت بدوري إلى قراءة بعض الجرائد الوطنية "بيان اليوم" ووقع بصري على أحد المقـالات حول مدينة القنيطرة – حـلالة – قبل

ارتباطها بمينائها النهري، ارتبطت بالقصبة التي شيدت بأمر من السلطان عبد العزيز، وانتهت بها الأشغال سنة 1895م.".

هذه الآثار التاريخية الإنسانية والحضارية.. ذكرتني في مدينة "البصرة" الإسلامية المندثرة، والقائمة بدورها في سيدي عمر الحاضي بمنطقة الغرب بالقرب من حدكورت وعين الدفالي وجرف الملح.. التي لا تخلو بدورها من مواقع أثرية : آشولية قديمة ورومانية..الخ. وقد اتضحت لي الصورة أكثر فأكثر عندما بادرت إلى القيام برحلة قراءة في كتاب : "**تاريخ الغرب عبر مواقعه وآثاره** – مصطفى مشيش العلمي – القنيطرة.

1 – **مقدمة**

تعد المدن والمواقع التاريخية المتعددة التي رجع عهدها إلى العصور القديمة، من بين ثروات منطقة الغرب، فمنها ما يرجع تاريخه إلى ما قبل الرومان ومنها الرومانية والإسلامية. فهي الدليل المادي القاطع لوجود الحضارات ما قبل الرومانية والرومانية في جميع أنحاء سهل الغرب الذي كان يعتبر جزءا من "موريتانيا طنجية" على نهر سبو أو "سوبريبوس" الذي وصفه الكاتب اللاتيني، بْلِينْ، في القرن الأول قبل الميلاد بالنهر الرائع والصالح للملاحة، توجد على ضفافه مدينتي "تاموسيدا" (10 كيلو مترات شمال القنيطرة) و"باناصا" (الواقعة بين سيدي علال التازي ومشرع بلقصيري على بعد 14 كيلو مترا من هذه الأخيرة). كما تقع على ضفاف نهر بهت مدن "غيغا" (أو "جليدا") وضيعة "بربو" (قرب سيدي سليمان). كما توجد ثكنات عسكرية بسوق الأربعاء وبسيدي سعيد (سيدي قاسم) وسيدي موسى. وفي الأخير، فإنه توجد ما يفوق مائة وخمسون موقعا آخر، موزعة على مجموع تراب منطقة الغرب (أبراج المراقبة،

وحدات صناعية ومؤسسات قروية أو فلاحية) من تاموسدا إلى عرباوة ومنها إلى سيدي سليمان ثم سيدي قاسم للالتحاق بوليلي وأبواب مكناس. إنه لا يوجد في أي منطقة أخرى من المغرب مثل هذا التمركز من المواقع التاريخية والنادرة.

يمكن أن يتبادر إلى ذهننا عدد من التساؤلات حول هذه الفترة الما قبل الإسلامية. كما يحق لكل منا، فعلا، أن يتساءل عن سر اختيار هذه المنطقة الجغرافية لهذا الحضور التاريخي. إذ كان من الممكن دخول الرومان إلى المغرب عن طريق نهر ملوية، عوض نهر سبو، تفاديا قطع أكثر من 700 كلم بحرا. كما كان من الممكن الدخول عبر نهر اللكوس، أو أبي رقراق أو أم الربيع إلخ.. لكن الرومان فضلوا احتلال سهل الغرب عن طريق نهر سبو على الخصوص. كيف تم هذا الاحتلال في الزمان والمكان ؟.

---

* - محتوى هذا البحث كان هو موضوع المحاضرات التي ألقيت بالقنيطرة وباقي مدن الغرب في فبراير ومارس 1997

** - تضم منطقة الغرب كلا من إقليمي القنيطرة وسيدي قاسم

عند وصولي إلى المهدية، حاولت أن أستريح من تعب رحلتي الطويلة لمنطقة الغرب الشاسعة الأطراف والمتشعبة الأوضاع.. جلست في إحدى المقاهي الشاطئية المكتظة بالسكان المحليين والزائرين.. بدأت ألاحظ في تلك اللحظة ارتفاع نسبة الطلب على المشروبات الكحولية وعلى أوراق القمار المتعددة والمتكاثرة.. وبدأت كذلك، أتساءل حول هذه الظواهر الاجتماعية الخطيرة عن : من أين يأتي هؤلاء الناس "المبلين" بالنقود بالرغم من الأزمة التي مست بشكل كبير الأغلبية من شرائح المجتمع..!؟ همس من ورائي أحد الجالسين في المقهى بصوت خافت وخائف : يصعب الآن قول الحقيقة والبحث فيها وفي أسبابها وعواملها المتشعبة والمتداخلة بعمق ودقة. فهذه المنطقة الغرباوية مهمشة ومنسية ومستغلة.. يحرسها بشدة أخطبوط خطير، ولا يجرؤ أحد على مواجهته.. لأنه هو الوحيد (الآن) القادر على تحرير الحقيقة من سجنها بالرغم من بدء انتشارها شيئا فشيئا بين سكان المنطقة والمدينة.. وهناك حالات متعددة تشبهها في كل المناطق المغربية الأخرى، بالرغم من اختلافها في الدرجات.

اكتشافات أثرية عظيمة وحجرية في منطقة الغرب ترجع لعهود متعددة ومختلفة قديمة؟!

ريما يكون من المناسب وكذلك من المنطقي والعقلي والواقعي في هذه القراءة التراثية المتواضعة، قبل أن نبدأ رحلتنا الأنثروبولوجية والتاريخية.. لمنطقة الغرب الشاسعة الأطراف الغنية الموارد والتراث والثقافات.. البسيطة الحياة والمهمشة الاهتمامات..أن نطرح بعض التساؤلات والأسئلة حول أهمية التراث الغرباوي الفارق في القدم والمتجسد بالأساس فيما هو مادي مثل المآثر العمرانية والاكتشافات الأثرية الحجرية والعظمية.. وسنركز هنا بالدرجة الأولى على بعض الاكتشافات الأثرية والعظمية القديمة جدا في التاريخ الإنساني، في كل من : عين الدفالي ومشرع ابن القصيري وباقي الأماكن الأخرى. نظرا للأهمية الكبيرة التي يكتسيها المأثور التراثي المادي، من غير نسيان التراث الفكري والرمزي، وذلك بواسطة عنصري المادة والموقع، الصامدين أمام شراسة الطبيعة وغطرسة الإنسان. والأهمية الخاصة بالمكان/ الموضع/ الموقع \أو الكم/الآثار المادية، ما بإمكانها أن تعطي لهذا التراث المادي المنسي والمهمش. قيمته الحضارية والثقافية والتاريخية والتراثية.. مثلما هو الأمر على سبيل المثال لا الحصر بالنسبة للتراث العمراني، الذي يتمّ تحديده ومعرفته بواسطة الموضع والكمية والمكان والزمان.

وبهذا يكون الاكتشاف الحديث/الراهن للتراث الحجري والعظمي الغرباوي، عملية مهمة في إثراء الثقافة الإنسانية والمغربية والغرباوية الحديثة والمعاصرة، بالمأثور القديم المهم والمثير في الواقع البدوي الغرباوي وتراثه. وقد أدت هذه الاكتشافات الحديثة، في رأينا، إلى تغيير

وتفنيد.. النظرة إلى ما كان شائعا وسائدا ومنتشرا في الواقع الغرباوي المعاش وفي ثقافته، باعتبار أن الغرب كان "خاليا" ومتكونا من مجموعة من البرك المائية التي تعقد الاستقرار والإقامة والعيش فيه..!؟!، غافلة (النظرة) بذلك ما يحتوي عليه المغرب والغرب من خيرات متنوعة ومتعددة ومن مآثر مختلفة وكثيرة ترجع إلى حقب تاريخية إنسانية وإلى حضارات وثقافات متعددة ومتنوعة.. ومن هنا تطرح أسئلة أخرى حول إشكالية المعمار.. بالنسبة للقبائل المستوطنة في منطقة الغرب.. أليست هناك أسباب وعوامل.. حالت دون تحقيق ذلك، كما هو الأمر مثلا بالنسبة للرومان الذين استوطنوا في منطقة الغرب وتركوا فيها آثارا متنوعة!؟

وهكذا يكون الحديث (الآن) عن هذا التعدد والتنوع.. الحضاري والثقافي والتراثي الغرباوي، محفزا ودافعا.. لإقامة مجموعة من الأبحاث والدراسات والنظريات.. العلمية، التي ستنمي المعرفة العلمية والوعي والتي ستضفي الجديد للمسيرة العلمية ومعارفها ومناهجها وأبحاثها ودراساتها؛ وهذا يؤثر بشكل أو بآخر، كذلك على الحياة الإنسانية وفهمها لطبيعة حقيقة الواقع الغرباوي الذي يعاني من التخلف في كثير من المجالات.

ومن هنا تكون أهدافنا الأساسية والجوهرية في هذه القراءة العمل على البحث والدراسة والتوثيق للتراث الغرباوي ونشره قصد المعرفة والاطلاع من طرف العامة والخاصة، كما التزمنا بذلك.

إن اكتشاف بعض الآثار القديمة جدا، في منطقة الغرب، والمتجسدة – كما قلنا – في وجود بعض العظام (مقبرة) والأحجار المخدومة من طرف الإنسان القديم، والتي كان يستخدمها لصيد

الحيوانات وأشياء أخرى، مثل السكاكين.. ترجع إلى العصر الحجري البرنزي في مشرع ابن القصيري بالضبط بدوار البعابشة الرمل الذي يبعد عن المشرع بثلاثة كلم تقريبا، وكذلك وجود مقبرة. وإلى الحضارة (الآشولية) بعين الدفالي، ومآثر أخرى ترجع إلى ما بعد التاريخ كالحضارة الرومانية مثلا (باناصا) والحضارة العربية الإسلامية مثل (البصرة) الموجودة بضواحي سيدي عمر الحاضي ما بين سوق الأربعاء الغرب ومدينة وزان.

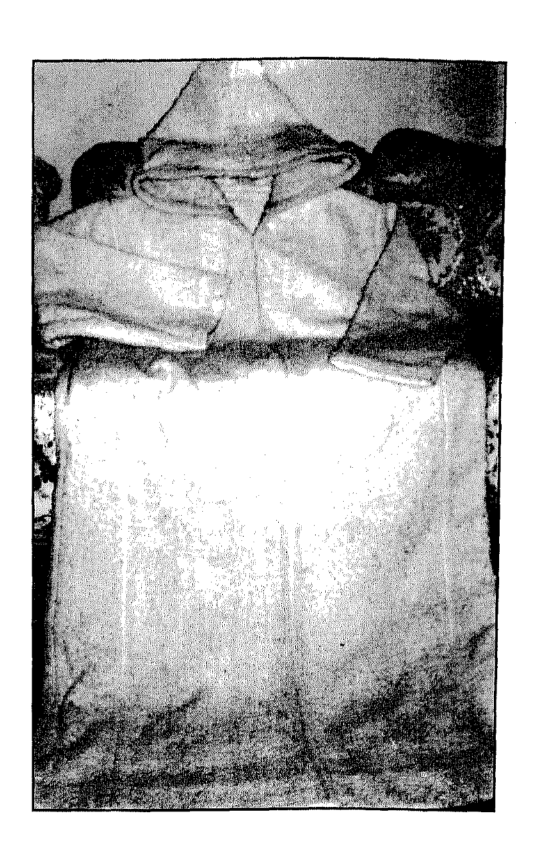
هذا إن دل على شيء، إنما يدل على أن مناطق المغرب ومنطقة الغرب على الخصوص، هي مناطق غنية بأراضيها وآثارها ومآثرها وثقافاتها وتراثها المتنوع والمتعدد، ولكن الشيء الذي يسترعي الانتباه ويثير الاندهاش والاستغراب، هو أن هناك تهميشا وإهمالا على مستوى البنيات التحتية..!؟!

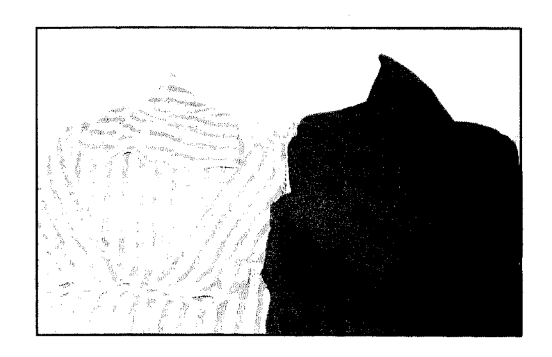
وهكذا يكون أهم شيء ينبغي التركيز عليه في أية دراسة أو بحث لأي موضوع من المواضيع في مجال التراث أو غيره، هو ما يتعلق بالظاهرة المدروسة "الحادثة" بمعنى الشيء الذي حدث أو يحدث في موقع معين عند لحظة معينة. ومن هناأهمية العلاقة الدياليكتيكية القائمة بين عدة عناصر المكونة لهذا الشيء أو ذاك في إطار مفهومي الزمان والمكان. وهذه العملية تقربنا وتساعدنا على استيعاب وفهم ومعرفة.. ما نحن بصدده؛ وهذا يؤدي بنا من جهة أخرى إلى عملية الضبط والتقنين والتوضيح والتحكم.. وكذلك إلى التطوير والتجديد والإبداع..الخ.

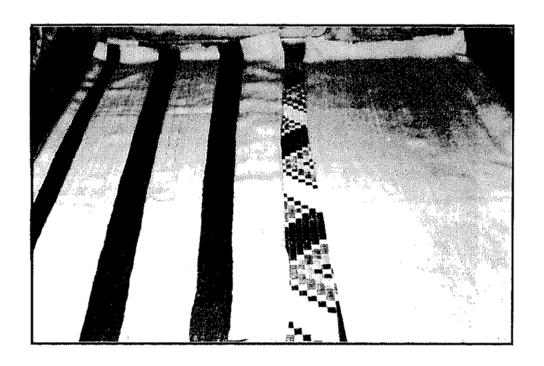
ومن غير شك، فإن الدراسات العلمية الحديثة والمعاصرة الدقيقة التي أجريت على هذه الآثار التراثية الغرباوية وغيرها، قد دلت وأكدت على مكانة المغرب على العموم ومنطقة الغرب على الخصوص، في التراث الإنساني بالرغم من تهميش هذه المنطقة الغرباوية، مثلا على مستوى البحث والدراسة والتوثيق والصيانة والترميم..الخ. كما أظهرت قيمة الغرب وأهميته في التاريخ الإنساني والمغربي. بالإضافة إلى ذلك، توضح هذه الاكتشافات العلمية على أن الاهتمام بتراث هذه المنطقة والمناطق الأخرى المغربية يؤدي إلى تغيير في العقلية وفي الواقع المعاش، نظرا لما يلعبه العمل أو الإبداع الإنساني المتنوع في بناء الحضارات والثقافات.. في كل زمان وفي كل مكان.

كما يمكن أن نستخلص من أهمية هذه الاكتشافات وغيرها بأن نجاحها قد أسهم في فهم ومعرفة.. واقع منطقة الغرب الغنية بثرواتها ومآثرها وطاقاتها.. على أساس أن يهتم بها وبسكانها الذين لعبوا ولا زالوا يلعبون أدوارا مهمة وأساسية في حياة المجتمع المغربي خصوصا وفي الحياة البشرية عموما. فكلما ازداد الاهتمام بالإنسان ازدادت أعماله وإبداعاته وإنتاجاته..الخ. ولعل ما يثير الانتباه كذلك، في هذه المنطقة المغربية الغرباوية هو وجود كثير من الوديان أو الأنهار وفي مقدمتها نهر سبو الذي يصب في المحيط الأطلسي، مما سهل تنقلات الإنسان والحضارات والثقافات المختلفة والمتنوعة، عبر المراحل التاريخية منذ مرحلة/مراحل ما قبل التاريخ... إلى الآن!؟!. ومن هنا أهمية الاهتمام بنهر سبو مكمن الأسرار والحقائق الكثيرة، والأنهار الأخرى، في عمليات البحث والدراسة

والمعرفة والاكتشاف والتنقيب..الخ. وهكذا كذلك، ينبغي أن تتجاوز وتتحرر اهتماماتنا وبحوثنا ودراساتنا.. ما هو وصفي وشكلي وظرفي ومناسباتي ورسمي وأن تتحلى بالمناهج العلمية.. حتى يتم رصد الظواهر المدروسة رصد علميا. كما يجب أن نتخلص ونحارب التلوث الفكري لمحاربة التلوث البيئي الذي أصبح يهدد الكائنات الحية والكائنات الجامدة بما في ذلك التراث!؟







الجزء الرابع :

أهمية الحركة في التراث الغرباوي :

(الإنسان والحيوان والطبيعة والرياضة)

أهمية الحركة في التراث الغرباوي

تقديم عام :

عند تناولنا للتراث الشعبي البدوي الغرباوي قد وجدنا عدة مظاهر وظواهر وقضايا ومعطيات.. متشابكة ومتداخلة.. في هذا الواقع الموضوعي المتحرك.. منها ما هو مرتبط بالإنسان الغرباوي وبواقعه، وذلك من خلال النشأة والتكوين.. على المستويين النظري /الإبداعي والعملي/التطبيقي.. ومنها ما هو مرتبط في أساسه على جميع المستويات في واقع آخر، لكنه مارس تأثيره البليغ إيجابا وسلبا على ثقافة هذا المجتمع البدوي الغرباوي وعلى وعي هذا الإنسان الغرباوي وهو يواجه الحياة بكل ما لديه من الإمكانات والوسائل المختلفة والمتنوعة..!؟!

وهذا جعلنا نخلص إلى نتيجة هامة مضمونها أن التراث الغرباوي ينتمي إلى مجالات وحقول معرفية متنوعة ومتعددة، لكنه ظل مرهونا إلى حد كبير بمستوى الوعي السائد وبنوعية الثقافة السائدة.. وكذلك بطبيعة السياسة العامة المهيمنة والمتجسدة في كل المجالات الإنسانية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية والفكرية..الخ. وهكذا تكونت ونشأت الثقافة البدوية الغرباوية – التي تحدثنا عنها في الأجزاء السابقة – في نسقها المتنوع والمتعدد.. بمظاهرها وبتحولاتها المادية والروحية.. الظاهرة والباطنية.. الشعورية واللاشعورية.. الواضحة والرمزية.. على أسس وركائز متنوعة ومختلفة ومتعددة بدورها، حددت ملامح خصوصية هذه الثقافة ورسمت لها مساراً في اتجاه التراث المغربي والإنساني معا.. مما دفع بهذا التراث الغرباوي المهمش أن يستفيد من هذا التراث الإنساني إيجابا وسلبا من جهة، وأن يعاني من الإهمال والتهميش والنسيان المحتمل.. في واقع

متخلف ومريض ومأزوم على جميع المستويات وفي جميع المجالات، من جهة أخرى.

وما كنا نهدف إليه منذ البدء، هو أن نجعل من هذا التراث الغرباوي تراثا منفتحا أكثر منه منغلقا، وذلك لإعطائه الفرصة من أجل أن يتطور ويتبلور ويتجدد.. ليضمن استمراريته ووظيفته.. ضمن التراث الإنساني الهادف.

وكلما حاولنا الغوص والتعمق أكثر.. في هذا التراث الغرباوي وجدنا مفهوم الحركة قد شكل مبدأ أساسيا وصورة واضحة لمكونات ومحددات وتجليات.. ظواهره المختلفة والمتنوعة بصفة خاصة وثقافته الإبداعية.. الفكرية والمادية بصفة عامة، نظرا لتواجده كمبدأ جوهري وأساسي.. في هذا التراث الغرباوي المتنوع.. والدليل على ذلك، أن هذا المفهوم/الحركة.. يبرز بشكل واضح في هذه الثقافة الغرباوية.

وفي سياق التحولات التي عرفها التراث البدوي الغرباوي في كل مجالاته -تقريبا- سواء كانت فكرية أو مادية.. شفوية أو كتابية، لايمكن أن نغض الطرف عن هذه العملية التي لا تخلو بدورها من الحركة والحركية، والتي كانت نتيجة عوامل متشابكة ومتداخلة.. ساهمت بشكل أو بآخر في وجود نسق ثقافي مناهض ومطارد ومتناقض مع الثقافة الشعبية ومع التراث الوطني، وكان ذلك مع دخول الاستعمار، واستمر مع ذيوله وأتباعه.. هؤلاء الذين أفرزتهم مرحلة الاستعمار وظلوا مرتبطين ومخلصين.. لهذه الثقافة الاستعمارية والإمبريالية..!؟!

هذه الثقافة الاستعمارية المؤسسة على أهداف محددة ومرسومة ستعمل بكل الوسائل والطرق والأشكال على ترسيخ سياسة الهيمنة

والتبعية..للحفاظ على هذه الثقافة الاستعمارية التي ظلت جزءا لا يتجزأ من شخصيتهم وتكوينهم، وحاضرة في علاقتهم وسلوكاتهم.

إن الحركة في رأينا، هي عملية دينامية كان لها التأثير البالغ الأهمية في إبداع الثقافة الشعبية شكلا ومضمونا.. شفاهيا وكتابيا، ذلك أنها تبعث فيه حيوية ونشاطا.. وتحرره من السكون والجمود والثبات.. وهذا ليس غريبا عن الإنسان البدوي الغرباوي الذي ارتبط بالأرض التي تقوم هي الأخرى في عمق أساسها على الحركة وعلى الأنشطة الفلاحية والثقافية المتحركة والمتطورة والمتغيرة... باستمرار .

الفصل الأول :

من الدلالة إلى الإشكالية لمفهوم الحركة

وإذن ما هي الحركة، كما وردت في بعض المعاجم..!؟! وما هي دلالاتها !؟! وهل بإمكاننا أن نتحدث عن إشكالية إبستمولوجية ناجمة أو مترتبة عن تنوع وتعدد دلالات مفهوم الحركة..!؟! وماهي المجالات التي سنخوض فيها من أجل إبراز أهمية هذا المفهوم ووظائفه وأدواره..!؟! وما هي طبيعة المشاكل التي بإمكانها أن تعترضنا ونحن نقرأ ونحلل ونناقش.. أهمية مفهوم الحركة...!؟!

نجد في **لسان العرب** لابن منظور، ص 844 : «حرك – الحَرَكَةُ : ضد السكون، حَرُكَ يَحْرُكُ حَرَكَةً وحَرْكاً وحَرَّكَهُ فتَحَرَّكَ، قال الأزهري : وكذلك يَتَحَرَّكُ، وتقول : قَدْ أَعْيَا فَمَا به حَرَاكٌ، قال ابنُ سيدَهْ : وما به حَرَاكٌ أي حَرَكَةٌ، وفلان ميمونُ العريكة والحريكة»[1]

فبالرغم من أن «الحركة» في لسان العرب لابن المنظور قد اقتصرت على حركة «الإنسان» بالأساس، فاهتم بها على هذا الأساس، مما أمكنها أن تشكل نوعا من الإبداع وأن ترسم طريقا للإنسان الذي سنهتم به وبقيمته الإبداعية المتنوعة والحاضرة في التراث البدوي الغرباوي الذي ظل وقتا طويلا يتداول وينتشر.. بين سكان هذه المنطقة الغرباوية وغيرها.

وفي هذه الحالة يكون ابن منظور، في اعتقادنا، وهو يتناول مفهوم أو مصطلح.. الحركة، قد ربطه بالإنسان –كما قلنا– دون غيره. ويكون بذلك قد قلل من وظيفة الحركة، حين قَصَّرها على الإنسان دون غيره من الكائنات الحية الأخرى مثل الحيوان والنبات، وكذلك المادة.. الخ. وبهذا يكون كذلك ابن منظور، غيّب حضور الحركة.. لصالح الإنسان المتحرك أصلا إما بالإرادة أو بغيرها.. ومن هنا نتساءل : ما الذي

يبرر ظهور ووجود.. الحركة عند الإنسان وحده.. في هذا التعريف الذي اقتطفناه من لسان العرب لابن منظور !؟! أليست هناك دلالات أخرى لمفهوم الحركة..!؟! ثم أليست هناك دلالات ومواضيع أخرى يرتبط بها مفهوم الحركة ارتباطا عضويا ووظيفيا..!؟!

نجد كذلك، في **الموسوعةالفلسفية** ص 163 : «الحركة *Mouvement*» صفة أساسية وحالة لوجود المادة. وتشير الحركة إلى العمليات التي تجري في الطبيعة والمجتمع. وبالمعنى الواسع، الحركة هي تغير العالم، وأي نوع من التفاعل بين الموضوعات المادية. ولا يمكن أن توجد مادة في العالم بدون حركة ولا حركة بدون مادة. وحركة المادة مطلقة. بينما حالة السكون نسبية ومجرد لحظة من لحظات الحركة.».[2]

يتناول هذا التعريف لمفهوم الحركة، في هذه الموسوعة الفلسفية إشكالا فلسفيا واضح المعالم والأهداف.. يمكن إدراكه وفهمه انطلاقا من المعالجة الفلسفية النظرية التي تستدعي بوضوح المادة وربط الحركة بالعالم المادي الموضوعي/الطبيعة وبالمجتمع المعيش.. وذلك من خلال جدلية الأفكار والمفاهيم والتصورات.. في علاقتها بمختلف المجالات والمستويات التي تؤطر وجودها في الواقع الموضوعي المتحرك باستمرار، كما تعمل على المساهمة في تحديد وظائفها وأهدافها وفي تحديد وتحويل دلالاتها ومعانيها وأدوارها.

وهكذا، فمن الصعب أن تفهم دلالة أو وظيفة.. مفهوم من المفاهيم أو مصطلح من المصطلحات.. بتحديد ودقة، دون معرفة علاقته الجدلية الدينامية. هكذا نجد بأن الأقوال الواردة في الموسوعة الفلسفية لا ترى أي حرج في الدفاع عن المرجعية الفلسفية المادية على المستوى الإنساني

والاجتماعي.. الخ. كما تدعو إلى الاستفادة من هذه النظرة المادية إلى الأشياء..!؟!. لكن إلى أي حد يمكن الاقتصار على هذا التعريف المادي وحده أو على الذي رأيناه قبله لابن منظور، إذا ما أردنا المساهمة في بناء نسق شامل وموضوعي -نسبيا- للوصول إلى إدراك حقائق الأشياء ومعرفتها المعرفة العلمية النسبية والتقريبية..!؟! ألا يمكن اللجوء إلى تعريفات أخرى بجانب ما رأيناه لتحقيق الأهداف والأبعاد والغايات التي نتوخاها..!؟!

نجد في موسوعة **لالاند الفلسفية**، ص 843 : «حركة *Mouvement*

أ- بالمعنى الحقيقي، تبدّل متصل للموقع في المكان، منظوراً إليه من زاوية الزمان، ومن ثمَّ تكون له سرعة محددة. التَّغيُّرُ الموقعي العادي، في المكان، بصرف النظر عن الديمومة، يسمّى انتقالا.

(...)

بالمعنى المجازي

ب- انفعالات ونزعات. «هذه الاشتهاءات، أو هذه الكراهيات والاشمئزازات تسمى حركات النفس، لا بمعنى أنها تبدّل مكانها أو تنتقل من مكان إلى آخر، بل بمعنى أنها مثل الجسم الذي يقترب أو يبتعد وهو يتحرّك، وكذلك مثل النفس التي تتحدد بالأشياء أو تبتعد عنها، بالاشتهاءات أو بالكراهيات. ».[3]

يستقي هذا التعريف مادته المعرفية والتعريفية من رؤية محددة وواضحة لصاحب الموسوعة الفلسفية (لالاند). وقد اعتمد في ذلك على بعض المواقف المختلفة والمتنوعة.. فيها ما هو مادي وكذلك ما هو روحي/فكري.. محاولا قدر الإمكان أن يلتزم الطريقة أو الرؤية الشمولية

-نسبيا- وذلك للابتعاد ما في وسعه عن الموقف الواحد أو البعد الواحد.. المألوف في الإنتاجات الفكرية والإبداعية والفلسفات المتعصبة.. وذلك بغية التحرر من النظرة الضيقة والدجماتية..الخ. غير أن هذا لا يعني كذلك من وجهة نظر الموضوعية العلمية بأنه التعريف «التام» و «الشامل».. الذي لا يحتاج إلى مناقشة وتحليل ونقد..!؟! ذلك أن الهدف الأساسي للبحث العلمي هو الدعوة إلى الموضوعية واحترام مبادئ : الاختلاف والتفكير والتعبير.. والأسلوب الديمقراطي المناسب والمطابق للواقع الموضوعي.. لأن سياق أو معنى أو دلالة مفهوم الحركة، مثلا، يمكنه أن يختلف باختلاف الاستعمال والمجال.. مما يعطي لهذا الاختلاف حق المشروعية، وحق الوجود.. في إطار النسق الديمقراطي، إذا ما كنا ننظر إلى الحياة -من مبدأ البداهة- بأنها في تطور مستمر، لا تكف عن الصيرورة والسيرورة.. تظهر وتستجد فيها أشياء وتختفي وتنتهي أخرى، وفق منطق مبدأ الحركة والتطور والتغير والتجدد.. الخ.

وفي ضوء ما سبق تظهر أهمية وظيفة ودور.. مفهوم الحركة المتجسد في مجالات ومستويات.. متنوعة ومختلفة بالرغم من أن دلالة الحركة هي دلالة مدققة ومعينة، بمعنى أن مفهوم الحركة لا يدل إلا على هذا المفهوم في إطار سياقاته واستعمالاته.. المتنوعة والمتعددة.. المتداخلة والمتشابكة والمتفاعلة.

ومن هنا فإن ما نهدف إليه من خلال اهتمامنا بدلالة الحركة وتعيين مدلولاتها ومدى قدرتنا على فهم ومعرفة واستيعاب العلاقة الجدلية النشيطة القائمة بينها وبين العناصر التي تكون لنا التراث الشعبي الغرباوي الذي نحن بصدده من جهة، ومن جهة أخرى إدراك أهداف

وغايات هذا الارتباط القائم بين الحركة والتراث الشعبي الغرباوي من جهة ثانية. وهذا النوع من البحث والدراسة يقربنا في حقيقة الأمر، من إمكانية فهم ومعرفة.. الواقع الموضوعي المتحرك.. الذي يكون محطة اهتمام دراستنا أو بحثنا.. وذلك في إطار تجلياته ومعالمه.. الفكرية والمادية.. الحضارية والثقافية.. الخ. لكن ينبغي -دائما- الانتباه والاحتياط أثناء كل بحث ودراسة..!؟! ثم ألا يمكن أن نجد تعريفا آخر أكثر توسعا وإحاطة..!؟!

نجد في معجم **(لاروس)**[4] ص 441 : «**الحركة**: انتقال الجسم من مكان إلى آخر أو انتقال أجزائه، كحركة الرّحى. «الحركة الدائمة» حركة مستمرة لا تسكن ولا تحتاج إلى محرّك، وهي مستحيلة الحدوث. «الحركة المنتظمة» : حركة جسم تكون فيها المسافة المقطوعة بنسبة الزمان اللازم لقطعها. «الحركة المنتظمة التسارع» : حركة تكون فيها المسافة المقطوعة تابعة للزمان من الدرجة الثانية. «الحركة البرونية» : حركة مستمرة معلقة في سائل نتيجة لاضطراب الجزئيات. «الحركة الإرادية» : الحركة التي تخضع لإرادة الإنسان واختياره. «الحركة الاضطرارية» : الحركة التي لا تخضع لإرادة الإنسان. «الحركة الانتقالية» : الحركة التي ينتقل فيها الجسم من مكان إلى مكان، مثل حركة الأرض حول الشمس، عكس الحركة المكانية. «الحركة الانعكاسية» : رد الفعل أو الاستجابة إلى منبّه. «الحركة التذبذبية» : الحركة التي ينتقل بها الجسم دوراً من اتجاه إلى الاتجاه المعاكس ماراً دائما في الأوضاع ذاتها. «الحركة الدّورانية» : حركة جسم حول محور

ثابت، كحركة دولاب العجلة أو حركة الأرض على ذاتها. «الحركة الممتدة الزمن» : الحركة التي تتعادل أزمتها، كحركة نابض الساعة.»[4]

تنوعت وتحددت وتعددت.دلالات مفهوم الحركة حسب تنوع وتعدد واختلاف المجالات والمواضيع والوضعيات والمكوّنات المعرفية والفكرية والعلمية والثقافية.. الإنسانية والنفسية.. التي ارتبطت بها الحركة في سياق التفاعل والتداخل معا. من هنا نستطيع إدراك ومعرفة أهمية وظائف وأبعاد وأغراض وأهداف ومسارات.. الحركة كمفهوم لها حضور ضروري وأساسي في حياتنا العامة، وفي التراث الشعبي الغرباوي – على الخصوص- الذي نجد فيه الحركة تشكل الإطار المرجعي الذي بإمكانه أن يثير انتباه الباحثين والدارسين.. ويساعدهم على تحديد رؤيتهم في مجال التعمق أثناء البحث والدراسة لهذا الحقل التراثي الشعبي الغرباوي الذي نال اهتمامنا المتواضع بحكم أهميته كجزء لا يتجزأ من التراث المغربي والإنساني معا، كما قلنا، أكثر من مرة.!؟!

وإذن، يتأسس النسق المعرفي في الواقع الموضوعي الغرباوي وتتجلى طبيعة إشكاليته من خلال الاهتمام بثقافته المتضمنة في تراثه المتنوع والمتجسدة في واقعه الموضوعي المتحرك. ومن ثم تتبدى أهمية الحركة وتتجسد وتحدد وظيفتها من خلال علاقتها بالواقع والإنسان والحيوان والنبات والجماد.. الخ.

فالإنسان يتميز عن باقي الكائنات الأخرى، في وجوده في هذا العالم بحقيقة وعيه وعقله وإبداعه وعمله.. وهو يتحرك بوعي وبإرادة وحرية واختيار، وهكذا وبفضل حركته الواعية والإرادية.. يستطيع هذا الإنسان أن يغير نفسه وواقعه، وأن يحوّل مجموعة من الأشياء في الزمان

وفي المكان لأنه مطبوع على الحركة التي تعتبر عنصرا ضروريا للحياة وللحفاظ على الوجود الإنساني القائم في جوهره على مبدأ الحركة.

إن الإنسان هو الكائن الأكثر وعيا ومعقولية وحركية في هذا الواقع الموضوعي المتحرك.. وهو الذي يعي بعمق حقيقة الأشياء المتغيرة والمتطورة والمتحولة والمتحركة.. لأنه الكائن الذي يتأمل ويتساءل.. عن حركية الأشياء وثباتها وتغيرها وتحولها.. كما يساهم بحيويته وعمله وحركيته في تغيير وتحويل وتسخير.. الطبيعة والأشياء.. لصالحه ومصلحته.. وهذا ما لمسناه، على سبيل المثال لا الحصر، في دراستنا للواقع البدوي الغرباوي ولتراثه.

وهذا ما يجعلنا نقف عند أهمية الحركة الإنسانية كضرورة لا يمكن الاستغناء عنها في هذه الحياة.. وذلك لإيماننا بعدم ثبات وسكون هذا العالم المتحرك وهذه الحياة المتغيرة دَوْماً.. وعدم العيش وفق نمط واحد رتيب وثابت.. على مستوى الفكر وعلى مستوى الواقع المعيش..!؟!

إن أهمية الحركة في الفكر الإنساني –على الخصوص- وفي الواقع الموضوعي المتحرك والوعي بمقدرة واستطاعة الإنسان على استغلالها واستخدامها في مجالات الحياة المتنوعة والمتعددة، وكذلك في طبيعة العلاقات الإنسانية والاجتماعية والفكرية والثقافية والحضارية.. الخ. تبرز بشكل واضح في وظيفة مفهوم الحركة ومدى وعي الإنسان بها وهويحاول أن يبدع ويعمل.. من جهة، وأن يفهم ويعرف هذا التراكم الإنساني الإبداعي والعملي .. من جهة أخرى، وهذا ما ساعده في إنشاء تراثه الإنساني وثقافته وحضارته.. –كما قلنا- علاوة على مدى قدرته على إدراك طبيعة علاقته بالوعي والحركة والتجدد والتطور والتحول..

هذا الواقع المتحرك الذي تلعب فيه الاختراعات والتقنيات والتكنولوجيا والعلم بالإضافة إلى الأدوات والوسائل الأخرى التي لا تخلو من أهمية هي الأخرى، في هذا التراكم الإنساني الكمي والكيفي، الذي ظل شاهداً على تطور وحركية عقل الإنسان وغاياته وأهدافه ووسائله وتصوراته ومفاهيمه وطموحاته..!؟!

وهكذا، إذا ما انطلقنا من القضايا الأكثر حضوراً في التراث الشعبي البدوي الغرباوي، من خلال مظاهره وظواهره وتصوراته وثقافته، وموضوعاتها وتصوراتها على مستوى الوعي والممارسة.. فقد انصب وانكب اهتمامنا منذ البداية على الظواهر الشعبية بما في ذلك الظواهر الطقوسية والدينية والفكرية والثقافية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية.. الخ. وقد ارتبطت ارتباطا وثيقا ودياليكتيكيا بالحركة كمفهوم أساسي وضروري في كل ما تطرقنا إليه من وحي التراث الغرباوي القائم على الحركة ذات الدلالات المتنوعة والمختلفة.

وقد قامت الحركة بدور رئيسي في نشأة وتكوين جميع الأنشطة البدوية الغرباوية.. الفكرية والمادية على حد سواء، كما ساهمت الأدوات والأشياء الأخرى بدورها مساهمة فعالة في عمليات النشأة والتكوين والتبلور والتطور.. وفق منطق الحركة كذلك، المنسجم مع وعي الإنسان البدوي الغرباوي.

إن الحركة بمفهومها العام، والتي اعتبرناها مبدأ أساسيا وضروريا في تكوين وتطوير.. هذا التراث الغرباوي الذي استند عليها استنادا كليا، قد أعطته دافعا قويا لإخراج هذا التراث من الوجود بالقوة إلى الوجود بالفعل -كما يقول أرسطو- ولتحقيق الأهداف والغايات..

التي كان يصبو إليها، وذلك في سياق أساليب فكرية وفنية متنوعة في مجال التعامل مع الظواهر والمظاهر والأشياء.. مما مكّنهم، هم الآخرون من إنجاز ثقافة متميزة من جهة، ومشاركة من جهة أخرى. كما تجلى ذلك، مثلا، في ظاهرة الهيت وظاهرة اعبيدات الرما، وفي المجال الرياضي وفي الظواهر الطقوسية الأخرى. والغريب في الأمر أنهم كانوا يقومون بتجسيد هذه الحركة/الحركات المتنوعة التي تحدثنا عنها، دون الوعي بأهميتها ومن غير أن يتمكنوا من إدراك طبيعة العلاقة الهامة المرتبطة بهذه الأشياء.

لقد ارتبط الإنسان البدوي الغرباوي، هنا، لأول مرة، منذ وجوده في هذه المنطقة الغرباوية بالأرض الفلاحية التي اعتمدت بدورها على الحركة كمرجعية أساسية، وقد ترتب عن ذلك، وجود حركة اجتماعية نشيطة وواعية وهادفة. ولقد كان لهذا الوضع أثر كبير على حركة الثقافة والتراث عموما.. وبذلك يكون التراث البدوي الغرباوي قد ارتبط في جوهره بالأرض الفلاحية وبالماشية.. مرتكزا في ذلك على الحركة الفاعلة.. التي ساهمت -كما قلنا- في تحريك وتنشيط وتفعيل الثقافة السائدة إيجابا وسلبا.. فأبدع الإنسان الغرباوي أدوات الحرث والأكل والشرب وكذلك أدوات النسيج التي ساعدته في الحصول على اللباس الصوفي بالدرجة الأولى، والأغطية والأفرشة..الخ. كما أبدع الأمثال والخرافات والحكايات والأساطير.. وساهم في ممارسة الطقوس والرياضة وفي الظواهر الشعبية والدينية.. الخ. يتضح ذلك في ما خلفه لنا الإنسان الغرباوي من ثقافة وتراث. وهدفنا الأساسي الذي أعلنا عنه منذ البداية، هو محاولة المساهمة قدر الإمكان في تجسيد التواصل بين التراث

البدوي الغرباوي «القديم» والأجيال المعاصرة والمقبلة.. التي ستقرأه وتحلله وتناقشه وتنتقده وتتساءل حول قضاياه الفكرية والثقافية والتراثية.. وذلك في إطار سياق مجموعة من الدراسات والأبحاث الجادة والجديدة والمتجددة.. لأن المنطق الإنساني الواعي والسليم والهادف.. هو المنطق الجدلي الحركي.. الذي يطالب بالتجديد والتطوير والتغيير.. على ضوء الاستفادة والاجتهاد والنقد والتقييم والتقويم على جميع المستويات وفي جميع المجالات..!؟!

وحسب هذا المنطق الحركي الدياليكتيكي، نرى أنه أصبح من الواضح التأكد على الحركة والتجديد والتفاعل.. في الواقع الموضوعي الغرباوي المتحرك، وذلك لما أصبحت تمليه وتفرضه علينا الأوضاع المتشابكة والمتشعبة والمعقدة.. في عصر السرعة والعلم والتكنولوجيا والتقنية..الخ. هذا العصر الذي أصبح الإنسان فيه تائها وهائما.. لا يتمتع بالاستقرار وبالسعادة.. ولعل مفهوم الحركة من المفاهيم الأكثر تداولا واستخداما واستعمالا.. في الحياة الإنسانية العامة، كما يتخذ حيزا مهما في المجال العلمي وفي كل المجالات الأخرى، وتستعمل الحركة وتستخدم وتوظف.. في الأجسام الحية والأجسام الجامدة.. فنقول بحركة الإنسان والحيوان والنبات، كما نقول بحركة الأرض والكواكب والسيارة والطائرة والقطار..الخ، وإن كانت هذه الحركة تختلف من جسم إلى جسم.. حسب الإرادة والاختيار والاضطرار.. وحسب الحركة الذاتية والموضوعية، والحركة الداخلية والخارجية والإرادية واللاإرادية..الخ.

وهكذا وكما نلاحظ من خلال عرضنا لبعض دلالات الحركة، أننا حاولنا التدرج والاهتمام في المعنى والوظيفة من الحركة عند الإنسان إلى الحيوان والنبات.. إلى الطبيعة والأشياء.. فكانت الخلاصة التي استخلصناها من ذلك، هو أن الحركة توجد وجودا ضروريا في الحياة العامة ولا يمكن الاستغناء عنها إطلاقا..!؟!

وإذا ما أمكن أن نبحث عن حركية الموجودات وحركتها وعن مميزاتها وأهدافها وجدنا أن الإنسان لا يمكن أن يعيش في هذه الحياة بدون حركة ولا يستطيع الاستمرار في غيابها عن جسمه.. فهو في حاجة ماسة إلى الأكل والشرب واللباس.. وإلى التفكير والمعرفة والفهم والتعلم.. ويستحيل تحقيق ذلك وغيره بدون أن يتحرك وأن يعمل ويبحث.. ومن هنا ضرورة الحركة للإنسان ولكل الأجسام الحية الأخرى، لكن الإنسان إلى جانب هذه الضرورة/ضرورة الجركة الذاتية.. يستطيع أن يخلق حركة/حركات بينه وبين الأجسام الأخرى.. فالإنسان البدوي الغرباوي، مثلا، يحرث الأرض بالمحراث العتيق أو العصري .. وعملية الحرث كلها حركات.. سواء تعلق الأمر بالأرض أو بالأدوات أو بالآلات.. كما يمكنه أن يربط علاقة حركية بينه وبين الحيوانات، مثل البحث عن الكلأ والماء.. لها، وهذا ما يعطيه ميزة خاصة تميزه عن باقي الكائنات الأخرى.

وإذا كان الإنسان يتميز بحركة خاصة ومتميزة، وهو يعمل وينتج ويبدع ويفكر.. أي وهو يتحرك بوعي، فأين تتجلى هذه الحركة/الحركات.. فيما أنتجه هذا الإنسان الغرباوي..!؟!

حين نتحدث بوعي عميق ومعمق وناضج.. عن خاصية الحركة الإنسانية فإننا لا نقصرها على إنسان معين يعيش في زمان ومكان

محددين، وإنما نقصد بها وحدة الحركة الإنسانية الحاضرة لدى الإنسان أينما كان وفي أي وقت عاش ويعيش.. هذه الحركة التي تظهر على شكل بعدين : بعد إرادي واختياري.. وبعد اضطراري وموضوعي.. بُعْدٌ يتجلى في مدى قدرته على إحداث حركة في جسم آخر يربط معه علاقة معينة.. علاقة واعية وهادفة.. وهذا يبدو واضحا في مجال الثقافة وفي مجال التراث وفي المجالات الأخرى.

علاقة التراث الغرباوي بالحركة، والاهتمام بالواقع الموضوعي المعيش والتواصل معه بالطرق والوسائل التي تلائمه وذلك من خلال الظواهر والمظاهر الإنسانية والاجتماعية والثقافية.. هذه الأشياء وغيرها، ما دفعنا إلى الاهتمام به والحث على تطوير وتغيير.. ماهو إجابي فيه، وإلى نقد وفضح ونبذ.. ماهو سلبي ومضر.. فيه. هذا التراث الذي أصبح في حاجة ملحة إلى التوثيق -كما قلنا- والتجديد من أجل إعادة علاقته المتينة بالناس وبحياتهم، ولكن من غير نسيان الدور الذي لعبه الإنسان البدوي الغرباوي في عمليات إنتاج وإبداع.. هذا التراث الحركي المتضمن للتراكمات المتنوعة التي زودها هذا الإنسان الغرباوي بصور جمالية وأخرى معتادة وبسيطة لكنها متقنة، كما هو الأمر بالنسبة للنسيج وصناعة الطين.. الخ. هذا الإنتاج النسيجي والطيني، مثلا، الذي تجلى فيه لفن التشكيلي الطبيعي والمكتسب والحركي والتقليد والتجديد.. هذا لإنتاج الذي تم إخراجه من الوجود بالقوة إلى الوجود بالفعل بفضل وسائل بسيطة لعبت فيها العلاقة الحركية بين الإنسان وبينها دوراً منسجما مع لأهداف والغايات التي كان يصبو إليها هذا الإنسان البدوي الغرباوي..!؟!

إن أهمية الحركة في الحياة الغرباوية وفي ثقافة وتراث المجتمع البدوي الغرباوي الناتجين عنها وعن المجهود الإنساني الذي استخدم بفضل نشاطه وحركيته مجموعة من الوسائل لإنتاجهما.. هذا التراث وهذه الثقافة.. يتعايش فيهما الشفاهي والمكتوب.. العقلاني واللاعقلاني.. العلمي والديني وكذلك الأسطوري.. الجاد والهزلي.. الشعبي واللاشعبي.. الخ.

وبجانب العمل الجاد والجدي الذي يتميز به الواقع البدوي الغرباوي الموضوعي، نجد الفرجة التي حققتها الظواهر الشعبية.. قد احتلت مكانة مهمة في حياة هذا المجتمع الغرباوي، ويكون مفهوم الحركة الذي احتل بدوره مكانة أساسية وضرورية في تلك الظواهر الشعبية الغرباوية قد أدّى إلى إثارة المشهد التراثي والثقافي الغرباوي، الذي بعث حماس الممارس والمتفرج معا.. لذلك تسعى قراءتنا هذه إلى توضيح وتفكيك وتحليل.. أهمية هذه الحركة وتجلياتها وتأثيرها وإثارتها.. في ظواهر هذا التراث الشعبي الغرباوي...!؟!

المراجع:

1- لسان العرب لابن منظور، الجزء الثاني.

2- الموسوعة الفلسفية : م. روزنتال وب. يودين. ترجمة : سميركوم. دار الطليعة بيروت. الطبعة الأولى 1974م.

3- موسوعة لالاند الفلسفية. تعريب خليل أحمد خليل. منشورات عويدات بيروت – باريس. الطبعة الأولى 1996م. الجزء الثاني.

4- معجم لاروس. تأليف الدكتور خليل الجر. مكتبة لاروس 1987م.

الفصل الثـاني

١-الحركة الاجتماعية والمجتمعية من خلال ظاهرة الهيت

أهمية الحركة في ظاهرة الهيت الغرباوي

لقد حاولنا من خلال قراءتنا السابقة للحركة أن نستخلص بأن معنى أو دلالة.. الحركة هو «انتقال الجسم أو أجزائه من مكان إلى آخر...»[4]، وهذا يعني كذلك بأن مفهوم الحركة يعني القيام بفعل من الأفعال في حالة الانتقال هذه، لأن كل فعل نقوم به إنما يعني ويفسر.. القيام بحركة معينة ومحددة. ومن هنا نتساءل عن الكفية التي تمكننا من تحديد وتوضيح أهمية الحركة في ظاهرة الهيت الغرباوي الذي كان محطة اهتمامنا في الجزء الأول من كتابنا «من وحي التراث الغرباوي»[5] وكيفية وضع بعض المحددات والتجليات للعلاقة القائمة بين الإنسان والإنسان والآلة والحيوان.. داخل مجتمع يتميز بالحركة والحركية والنشاط.. مما يؤدي إلى التحول والتغيير - كما قلنا- لهذا المجتمع أو ذاك في كل مجالاته المادية والفكرية/الوعيية.. هذه الحركة وهذا التحول والتطور والتغير.. هذه المميزات والخصائص والسمات قد لازمت الإنسانية منذ وجودها حتى الآن.. لأنه لا يمكن الحديث عن حياة الجنس البشري واستمراره وعطائه... في كل المجالات بدون فعل أو حركة أو عمل.. بطريقة واعية وتفاعلية دياليكتيكية...!؟!

الحركة الاجتماعية، إذن هي حركة تفاعلية واعية قائمة بين الأفراد داخل مجتمع من المجتمعات من جهة، ومن جهة أخرى هي تعبير وتوضيح وتفسير لمدى قدرة الإنسان الواعي والمنتج.. على تحديه للطبيعة ولكل أنواع الكسل والتقاعس والجمود والاتكالية.. مما يؤدي بدوره إلى التحولات والتطورات والتغييرات الحاصلة والمتحققة.. في المجتمعات

الإنسانية، مما يترتب عليه كذلك مدى قدرة المجتمعات البشرية على السيرورة والصيرورة والتجديد.. الخ.

إن ظاهرة الهيت كظاهرة شعبية وثقافية وتراثية.. وكرقصة إنسانية شعبية كذلك، حين نتمحصها ونتأملها.. نجدها تفيد هي الأخرى الفعل والحركة وتفاعل الأجسام الحية والجامدة (الإنسان والإنسان والأداة..)، ومن هنا فقد ارتبطت بالتراث الغرباوي على الخصوص والإنساني على العموم، وهي تمارس في حياة هذا المجتمع الذي يهتم بها مثلما هو الأمر بالنسبة للمجتمع البدوي الغرباوي الذي اهتم بالهيت القائم في جوهره وأساسه على الحركة والفعل. وتقتضي هذه الظاهرة الشعبية وجود مجموعة من العناصر المتداخلة والمتفاعلة.. في إطار نسق بنيوي كلي، يلعب فيه الإنسان الفاعل/المتحرك.. الدور الأساسي في عملية التفعيل والممارسة.. من خلال الوعي والإبداع والعمل.. وفق أهداف إنسانية واجتماعية وثقافية، قائمة بدورها على الحركة العامة للمجتمع البدوي الغرباوي الذي تتجلى فيه العلاقات الإنسانية في أبهى صورها وغاياتها.

من هنا تأتي أهمية ظاهرة الهيت في حركية المجتمع والإنسان الغرباوي معا، وذلك من أجل تنشيط الإنسان والمجتمع من خلال صور فنية جميلة ومثيرة وهادفة.. مبرزة إلى أي حد يمكن للجهد البشري ولإبداعه أن يخلقا على مستوى التنظير والمضمون دينامية متميزة تتبدى بوضوح من خلال العلاقات القائمة بين الإنسان والإنسان من جهة، ومن جهة أخرى بين الإنسان والحيوان والجماد/الآلة.. -كما قلنا- . هذه الحركة الإنسانية والاجتماعية.. الفكرية والمادية.. تتميز بالوعي الإنساني الهادف وبالتعمق والتبصر في أهمية هذه الحركة ذاتها وهي تسري في الأجسام منشئة

علاقات وروابط أساسية وضرورية.. بين هذه الأجسام الساعية إلى التجديد والتطوير والتغيير..الخ.

وهكذا وعندما يُعْلَنُ عن العرس، مثلا، في المجتمع البدوي الغرباوي والذي يَتَّخذُ ظاهرة الهيت قاعدة أساسية له بصحبة الجوق الموسيقي.. ومن باب العادات والتقاليد.. هنا.. ومن باب التماسك والتعاون والتعايش.. يقوم أصحاب العرس بدعوة كل الأسر الموجودة في الدوار، وكذلك الأحباب والأقارب..الموجودين خارج الدوار.. وهذا يدخل في إطار العلاقات والقيم التواصلية الإنسانية والاجتماعية. وهذا الأمر يستدعي حركة إنسانية واجتماعية واقتصادية.. وذلك من خلال المساهمة الفعلية لإنجاح العرس.. إنها حركة الحياة البدوية الشعبية التي يشارك فيها الكبار والصغار بحب وإخلاص. وهذا دليل على مدى استغلالهم لنشاطهم وحيويتهم الإنسانية والاجتماعية.. الجسمية والعقلية/الوعيية.. للمحافظة على تماسك المجتمع وعلى سيرورته وصيرورته.

وبالرغم من مشاركة جميع أفراد الدوار أو القبيلة.. في حركية وحركة المجتمع البدوي الغرباوي، إلا أن التميز والتفرد.. في إطار هذه الحركية الاجتماعية والإنسانية، وذلك من خلال القيام ببعض الأدوار أو الوظائف لبعض الأشخاص كما هو الأمر بالنسبة للغياطة والطبالة والهياتة والراقصين.. وللعريس والعروسة..الخ. ما يدفعنا في هذه القراءة التركيز عليهم أكثر من غيرهم من المشاركين والمساهمين في جميع المجالات بفعل إرادة الفعل الإنساني لإنجاح العرس وللمحافظة على العادات والتقاليد والتمسك بها ما أمكن.. إنها حركة الإنسان الحي المرتبطة بالحياة والإنتاج والإبداع.. إنها الحركة الإرادية والغير إرادية.. الاختيارية

والاضطرارية.. الشعورية واللاشعورية.. إنها حركة التفاعل بين الإنسان والأشياء الأخرى، كما تتجلى في الوظائف المتنوعة والمختلفة التي يقوم بها الإنسان، مثل حركة النفخ في الغيطة أو الناي.. أو حركة الضرب على الطبل أو البندير أو التعريجة أو المقص.. أو حركة العزف على الكمان أو الكنبري ..الخ. لكن تبقى حركة الإنسان متميزة، كما يبدو بوضوح في حركة وحركية الجسم البشري بأكمله : العقل والقلب والبصر والرئتان واليدان والرجلان والشفتان.. الخ. وكذلك في تفاعله مع أجسام أخرى، مثلما هو الأمر بالنسبة للأدوات والآلات المستعملة هذا التفاعل الحركي/الدينامي الذي تنتج عنه أشياء أخرى، مثل الغناء والطرب والموسيقى والألحان والذكر والإنشاد والترتيل.. الخ، في إطار وحدة متناغمة ومتماسكة وهادفة.. تقدم للمستمعين والمشاهدين المتفرجين.. في إطار صور حركية جسمية وصوتية وغنائية وموسيقية راقصة.. جميلة ومثيرة.

إن الجوق الموسيقي في ظاهرة الهيت لا يقتصر على حركات العازفين مع أدواتهم الموسيقية والتي من خلالها يظهر التناغم المتماسك والمنظم، كما هو الأمر بالنسبة للغياطة والطبالةوالهياتة.. وإنما كذلك تتجلى في حركات أخرى، مثل الذهاب عند الراقصين والانحناء أمامهم قصد الطلب منهم التوجه عندهم. وهكذا وفي جو جميل ومنظم.. يتبع الراقصون الغياطة والطبالة الذين يرجعون إلى أماكنهم.. والكل يرقص/يتحرك.. في نفس الوقت...!؟! كما أنه بإمكان الغياط أو الطبال وهو في حركة العزف أو الضرب.. أن يتوجه إلى أحد الناس المتفرجين من

أهل العرس وبانحناءة خلفية يقدم له رأسه من أجل أن يعلق أو يلصق له ورقة مالية على جبهته كهدية..!؟!

وإذا كان الجوق الموسيقي يلعب الدور الأساسي في هذه الحركات/الرقصة الشعبية الجميلة، وذلك من خلال التناسق والانسجام الحاصل بين عناصر ومكونات هذا الجوق على المستوى الموسيقي، فإن الكلمات المعبرة في ظاهرة الهيت يرددها أفراد الجوق سواء بأفواههم أو بآلاتهم.. لها مدى التأثير في نفسية العازفين والمتفرجين والراقصين.. حيث تقول بعض المقاطع منها :

وتعالى وتعالى ياك حبيبي
وتعالى ياك غرّب الليل وطلعو نجومو
وكل حبيب يحوز حبيبو
وتعالى تعالى ياك حبيبي
و«ولكني من تماكْ.. أنا عيشة مرْت بّأك»

وإذا كانت الكلمات تنسجم مع نغمات الغيطة، فإن كلمات « قَدْ قَدْ قَدْ قَدْ..» تنسجم مع دقات الطبل، الدالة على النظام والتنظيم واحترام قواعد اللعبة/الهيت.

وإذن، كل أعظاء الجسم عند أفراد الجوق الموسيقي تتحرك وتفعل وتنفعل.. تتأثر وتؤثر.. محدثة بذلك جوّاً متميزا ورائعا وجميلا في ظاهرة الهيت الغرباوي الذي هوحديث موضوعنا هنا.. كما لا يمكن إغفال وظيفةالضاربين على البندير والتعريجات والمقص.. هم بدورهم وبحركات كل أعضاء الجسد.. يقدمون مشاهد وصورمتنوعة ومتماسكة وموحدة يسودها النظام والانتظام واحترام العادات والتقاليد.

وكل القيم الإنسانية والاجتماعية والدينية والأخلاقية.. التي يقوم عليها المجتمع البدوي الغرباوي كقاعدة أساسية التي لايمكن التخلي عنها أو التسامح فيها..!؟!

إن حركية هذه المجموعة الراقصة والضاربة والطاربة.. هي حركة إنسانية واجتماعية وثقافية.. جسدية وروحية.. تتناسب ومعطيات المجتمع البدوي الغرباوي.. وتجسد بالفعل طبيعة هذه الحركةالاجتماعية والثقافية على جميع المستويات وبالخصوص، على المستوى الفني، كما يبدو ذلك جليا في رقصة الهيت الجميلة والمثيرة والمعبرة.. إنها الحركة التي تتحرك فيها كل أعضاء العازفين والضاربين والراقصين والمتفرجين.. كما تتحرك أرواحهم في غمار نشوة لا يمكن أن يدركها ويحس بها.. إلا الممارسون والفاعلون الحقيقيون.. ويظهر ذلك من خلال القيام بحركة الأيادي الضاربة على الطبل أوالبندير أوالتعريجة أوالمقص.. بوعي وبدقة ونظام.. تنعدم فيه الفوضى وعدم احترام قوانين رقصة الهيت والضرب. وكذلك بحركة الأكتاف والرؤوس الراقصة والأرجل الضاربة على الأرض والأصوات شبه الغامضة.. كل ذلك في إطار نسق بنيوي متماسك ومنسجم ومتناغم.. مع مبادئ وقوانين الرقصة المنسجمة بدورها مع روح المجتمع البدوي الغرباوي ومع حركته وحركيته الهادفة إلى تنشيط كل الأفراد المساهمين بدورهم في تنشيط وتحريك هذا المجتمع..!؟!

وفي إطار هذا التواصل الواعي والهادف والقائم بين كل المساهمين في هذه الظاهرة وبين مبادئ وقوانين رقصة الهيت.. يخرج أحد الضاربين أو الراقصين (من المتارف)، وفي الغالب ما يكون ممن يحظون باهتمام واحترام وحب.. سكان الدوار.. وبطريقة محترمة تتجلى من خلال

انحناءته أمام الراقصين (داخل الدائرة) لتحسيسهم بضرورة التوجه.. في اتجاه أصدقائه.. فيستجيب الراقصون وفي مقدمتهم رئيسهم /المقدم ليقدم بذلك صورة صادقة وحية لجو التفاهم والانسجام والتكامل الموحد.بين المشاركين والمساهمين في الرقصة الجميلة بهدف الحفاظ على نظامها وأهدافها.. هكذا يشرع هو الآخر بالسير وهويرقص أويضرب.. والراقصون يتبعونه حتى يصل إلى مكانه في جو جميل تسوده حركةالإنسان الفرد والجماعة والمجتمع.. وعند وصول الراقصين(رجل ونساء) أمام الضاربين أوالراقصين من الرجال.. تعلو الأصوات وهي تعيش في غمرة فرحتها ونشوة سعادتها، كما ترتفع دقات الآلات بدورها!؟!

ولعل ما يثير الانتباه أكثر، ونحن نشاهد و نعيش أجواء هذه الرقصة الشعبية الجميلة هوأن وظيفة الراقصين داخل الدائرة.. العارفين والمتقنين والمحبين.. لهذه الرقصة أكثرحركة وتحركا وتحريكا.. من العناصر الأخرى التي سبق ذكرها .. لأنهم يعتبرون المحور الأساسي والجوهري لتحريك وتنشيط.. العازفين والضاربين والراقصين والمتفرجين.. لما تمليه ظروف وقيم تكوين.. المجتمع البدوي الغرباوي.. كما نجدهم واعين كل الوعي بمهمتهم الأساسية والصعبة.. هذه، ومدركين لأهميتها.. من محافظتهم على قوانين الرقصة وإنجاحها، وذلك من خلال الاستجابة الفورية الغير قابلة للتجاهل أو التغافل.. لكل من تقدم إليهم طلبا في تلبية رغبة أفراد جماعته..!؟!

اعتماد الراقصين- وفي مقدمتهم النساء –على حركةالجسم بأكمله بهدف التنشيط والتحريك والتفاعل.. وكذلك بهدف تحقيق أهداف وأبعاد.. الرقصة على الخصوص والعرس على الأخص، وذلك من

خلال تلبية رغبات الكل بطريقة عادلة.. كما يبدو ذلك، حين تتوجه الفرقة الراقصة نحو «المتارفْ» أي المجموعة المتكونة من الرجال والشباب.. والراقصة بالأكتاف والأرجل الضاربة بقوة على الأرض.. مما يجعل الغبار يتصاعد من الأرض إلى السماء مكونا بذلك كتلا مثل السحاب من الغبار الخارقة بقوة ضوء المصابيح الزيتية الضئيلة والقوية الناصعة.. باعتبار أن رقصة الهيت في الغالب تكون في الليل الهادئ الجميل..!؟!

وهكذا، فقد بدت لنا العلاقة بين الحركة ورقصة الهيت وثيقة وعميقة جدا، ومهمة وأساسية وضرورية لايمكن التخلي عنها أوإغفالها.. في كل ما يقوم به الإنسان وينتجه في هذا الواقع الموضوعي، على مستوى الممارسة والفعل بالرغم من فعل الاختلاف والتناقض..الذي يبدو بوضوح في كثير من الظواهر والطقوس.. التي أنشأهاوأبدعها هذا الإنسان الغرباوي..!؟

إشكالية التراث بين الوحدة والكثرة

- الهيت كنموذج-

إن دراسة الهيت، تكونه وأصالته وأهدافه وأبعاده، ومدى تأثيره في المجتمع الغرباوي الذي نحن بصدده، ما تزال بحاجة ماسة إلى توضيح وإضاءةوعمق وتعميق، فليست الظواهر الإنسانية والاجتماعية والتراثية المتنوعة والمختلفة واضحة وهامة إذا لم تحظ بدراسات متعمقة ومتخصصة، ومع ذلك عملنا على تناول هذه الظاهرة الشعبية، نظرا لأهميتها في البنية الثقافية الغرباوية وفي الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية.. هادفين إلى تقريبها إلى الإنسان/ القارئ والمهتم.. الذي يعيش أو يعايشها من غير نسيان الإنسان الذي يعرفها أو عايشها وعاشها..!؟!

ومن المبدعين والمهتمين الذين على وعي تام وإدراك عميق ومعرفة معمقة بهذه الظاهرة الشعبية الجميلة والهادفة.. نجد الزجال والباحث محمد الراشق الذي يقول في قصيدته «الهيت» :

«ماني سلعة مهربة
ماني عشة مخربة
أنا غرسة مزربة
أنا مدية مطرية
وكلت الله فلي ارْمَاني
ونا قطة امْغَمْضة»

إن أهمية البحث في دراسة المكونات والمحددات والنشأة وأصالة.. ظاهرة الهيت في هذه الفترة المتميزة من تاريخ حضارتنا الإنسانية، تتضح بجلاء عندما يكون الدراسون والباحثون والمبدعون.. قريبين

ومتمكنين منها أشد التمكن انطلاقا من الواقع الموضوعي المعاش الذي تمارس- أوكانت تمارس- فيه هذه الظاهرة، متخذا مقاييسه العامة والخاصة في مجال المعرفة والبحث والدراسة.. هذا الواقع المعاش، وهكذا وجدنا محمد الراشق انطلاقا من الواقع المعاش . على ضوئه يوضح موقفه من إشكالية النشأة والهوية الأصيلة لهذه الظاهرة الصلبة القائمة في الواقع، ومشيرا من ناحية أخرى، إلى أن تهميشها أوعدم الاهتمام بها يرجع إلى الذين تخلوا عنها وزموها ولم يعيروا إليها أدنى اهتمام.. وبذلك فالمسؤولية ملقاة عليهم بالدرجة الأولى..!؟!

إن تأثير الباحثين والمفكرين والمبدعين والعلماء.. في توجيه الرأي العام إلى الاهتمام بشيءمن الأشياء أو بظاهرة من الظواهر، يكون عميقا وشاملا وهادفا.ولكن تأثير المسؤولين في الحياة الاجتماعية والثقافية والاقتصادية.. لايخلو بدوره من أهميته، نظرا لأنه يتوفر على الإمكانية والقرارات والمسؤولية.. في إطار الاهتمام والمحافظة والتغيير والتطوير..الخ.

ظاهرة الهيت ظاهرة إنسانية واجتماعية وثقافية.. والاهتمام بدراستها والبحث فيها.. محاولة حديثة العهد، كما نرى، بالرغم من أن جذورها موغلة في الثقافة الإنسانية القديمة، باعتبارها كذلك رقصة، والرقص جزء لا يتجزأ من التراث الإنساني القديم.. فالإنسان بطبعه يتحرك/ يرقص، كما هو الأمر كذلك بالنسبة للحيوانات والنبات..!؟!

إن المبدع الزجال المغربي .. محمدالراش، في قصيدته «الهيت» لا يوجد بعيدا عن هذه الاهتمامات والمشاغل والمميزات والخصائص والتنوع والتعدد.. وهويغوص في مجال التراث الغرباوي، بل اهتم بكل العناصر الأخرى التي تشكل النسق العام لهذا التراث الغرباوي.. محددا وكاشفا

عن العلاقة الأساسية الموجودة بين هذه العناصر المكونة لهذا التراث، كما يبدو واضحا من خلال كلامه هذا:

«هذي كرمة مكرمة

بلادالهيت والرما

واغبار الخيل فسما

ديما يانا محزمة»

فثمة اختلافات ومميزات وخصائص يمكن الكشف عنها حتى على مستوى التراث الإنساني العام أو التراث الوطني المغربي.. وهذه الاختلافات هي مصدر حركية الإبداع والتنوع والخصوبة.. فبجانب الهيت، كما جاء في الأبيات السابقة، نجد الرمى والخيالة والحصادة.. الخ.

والحقيقة أن محمد الراشق استطاع أن يقدم مجموعة من الظواهر والمشاهد والصور الموجودة في الواقع الموضوعي الغرباوي المعاش، مما يدل على استفادته من هذا الواقع الذي ساعده كثيرا على إبراز أهمية أبعاد وأهداف ووظائف.. هذه الظواهر الشعبية التراثية الغرباوية.. مستندا في ذلك على الإبداع الزجلي ذي اللغة العامية الشعبية التي يشارك فيها كل الناس بالفعل.. ومن هنا أهمية القصيدة الزجلية الشعبية، التي تعتبر جزءاً لا يتجزأ من التراث الوطني العام، حيث يضيف قائلا في قصيدة الهيت :

«حنا بتلاتة خوت

وعل بلادنا نموت

أحيدوس، الرمى، ولهيوت

والحاسد يبات مسهوت

زمور زيان وزعير على بلادي نغير»

وإذا أردنا أن نفهم ونعرف نسق الظواهر الشعبية وقواعدها وأبعادها وأهدافها ووظائفها، فإن ذلك، وكما نرى، يتم عن طريق نسق دلالي /لغوي، لأن نسق الظواهر.. الشعبية يكون مصاغا وواضحا في لغة شارحة ومفهومة لدى الأغلبية من معتنقي هذا التراث أو ذاك، ومن هنا أهمية اللغة /لغة الإبداع والتواصل التي تقوم بتحديد وتوضيح أهداف وحقائق الظواهر الشعبية أولا، وعبارات الإبداع المستخدمة ثانيا.. وبهذه الطريقة تكون اللغة المعبرة والواصفة والمصورة قادرة على أداء وظيفتها/وظائفها المتنوعة والمتعددة .. من خلال ماهو موجود في الواقع الموضوعي المعاش.. وقابلة للفهم، لأن فهم الكلمات والعبارات والظواهر.. الخ..، مرتبط بالأساس بما هو موضوعي واقعي وحقيقي. وهذا الوعي بأهمية توظيف اللغة من خلال العبارات والدلالات والكلمات.. قد حصل لدى الزجال محمدالراشق في إبداعه الزجلي بصفة عامة، وفي قصيدة الهيت بصفة خاصة.

ومن خلال العلاقة القائمة بين اللغة العامية الشعبية والإبداع الزجلي تتبدى وتتوضح العلاقة بين المجال التعبيري والوصفي.. والحياة اليومية المعيشية.. ومن هنا، إذا أردنا أن نتعرف على أهمية الصلة التي تقوم بين كل هذه العناصر المكونة للواقع الموضوعي الغرباوي المعاش، والمشكلة من الواقع المتحرك ومن اللغة المتداولة، وكذلك من الناس القائمين في هذا الواقع والذين يشاركون في إنتاج هذاالتراث الشعبي، ومن الإبداع والمبدعين..فلا بد من النظرة إلى أي إبداع كعنصر من العناصر التي تشكل النسق العام،أي كجزء لايتجزأ من الكل.

فالحديث عن الهيت كرقصة شعبية غرباوية متميزة.. لا ينبغي أن يجعلنا نتغافل أونتجاهل أو نقصي .. الرقصات الشعبية المغربية الأخرى، مثل أحيدوس، النهيري، العلاوي، الكدرة.. الخ

ومن جهة آخرى، فإن أهمية اللغة/لغة الإبداع والتداول والتواصل.. تعتمد كما نرى، على أهمية التواصل والانشار والاستعمال.. بين الناس داخل واقع معين ومحدد.. فإذا كنا بصدد اللغة العامية الغرباوية، مثلا، فمن الواضع أن تحقيق الأهداف المختلفة والمتنوعة.. لايمكن أن يتأتى إلا انطلاقا من حياة التواصل والفهم والمعرفة.. لدى الناس، وهذه الإشكالية يجب أن تكون حاضرة بقوة لدى المبدع والباحث والمهتم والممارس..!؟!

وهذا لايعني كذلك، أن اللغة/اللهجة المحلية لمنطقة من المناطق داخل المغرب مثلا، لا علاقة لها باللغة العامية الوطنية العامة، بل بالعكس إنها جزء لا يتجزأ منها، وعنصر أساسي وضروري، من بين العناصر الأخرى التي تشكل النسق العام للغة التداول والتواصل.. بصفة عامة، وإن بعض الكلمات أوالعبارات أوالدلالات.. تختلف باختلاف المناطق أثناء الاستخدام والتداول والتواصل..!؟!

وإذا كانت المعطيات الاجتماعية واللسنية والتاريخية والحضارية المختلفة تؤكدعلى أن اللغة كأداة تواصل وإبداع.. تشكل نسيج كل ثقافة من الثقافات الإنسانية المتنوعة والمتعددة في سياقه الجماعي العام،فالعلاقة بين اللغة والإبداع.. من جهة وبين المبدع والمرسل.. والمتلقي/المرسل إليه.. تبدو ضرورية وأساسية في كل عملية إنتاجية إنسانية من جهة أخرى.. !؟!

أهمية الحركة في أغنية/ قصيدة.. (الحلوفي) وهي كما كتبها لنا السيد (المقدم) لمجاهدي لحسن أحد العشاق والممارسين لها:

الصلا على النبي حطيناه تم
كتب آسيد الفقيه دير جر القلم
لعيونك أيا وحيده بهم ليهودي سلم
حبك ماد يتلو غاية دازني كيف الوحم
صاحب زروالة ݣالُو لي عدم
جري حتى تعياي حقي راه تم
الصلا على النبي فقلبي حلات
واللي كال شي كلمة فمو بقات
نْتْسَوَّق خميس الرميلا في البعابشا نبات
غادي نبات في دوار الهايجات
تاويتو على فراقي أنت وأمك جايات
البيضا والحمرا جاو مداعيات
أنا خليفة وعْليًّا متراضيات
الحمرة نقطة العسل الداوي المجرحات
البيضا حتى هي شاوروها يلا بغات
ناري يتلمواليا خليو الشيخ يبدا
ما وْلَدْت ولاد ما ربيت كبده
نهودها مَزِّيِنْهُم بشدة
صاحب آوحيده مريض ما ياكل غيرالزيده
الصلا على النبي في قلبي تحير

قيلي عليك الواد وزكي من البير
قيلي عليك الشايب وخودي الصغير
كولي لو فلوسو واش ما بيدو ما يدير
الصلا على النبي في قلبي حضر
واجي نعاود ليكم على ليلة القبر
شدتني الموت من رجليا ولّى وجهي صفر
ضاقت لي بصدري ما قديت نهضر
جابو كتان جديد حزموني بدوم خضر
قراو عليا الطلبة هزوني من الدراع ليسر
ميمتي كبْلُو بيا حطوني فالتراب لَخْضَر
ها صاحب السوال جا بلماس والشواقر
كالي قربت ليك زمانك
كنتي كدير غير المنكر
دارت عيني لودني
ولساني كان يْهْضَر
حط الميزان والصروف
طاح يقصص ويعبر
الله يخليك الدنيا
انت معدن لغدر
كالوالصلاة على النابي قلت نيتو
هادي طريك الزين هادي ليعتو
فيما تشوف الزين ناري كيتو

الزين الظرافا ظاهر من تحزمتو
دارتلو جليليبة حد ركبتو
حنى غيصلي بانت ليه فضيحتو
ايلا كان كمح وزريعة يضوي كاعتو
الصلا على النبي وزيد وعليه
هذا زواج الذل واش بغيت بيه
ماقبلتو ماحملتو غابا كلفني عليه
الغيوان بهدل كلامي يعطيك دود فيه
الصلا على التبي فقلبي تحير
قيلي عليك الواد وزكي من البير
قيلي عليك الشا يب وخودي الصغير
الصلا على النبي وزيدوعليًا
آجي نْعَاوَدليكُم هاد القصيدة جرت ليا
مشيت نزور الهادي والناس دايرين بيا
هيت أنا حتى عييت رانا عركن شوية
غوت المقدم على الماعمر غراف مدو غير ليا
تقبت لمصران الكبير بقاو يشوفو غير فيا
جيت عند المرا تخاصم غير عليا
كالت لي انت يامريض مابغيتي تكولها غير ليا
جابُوني عند الطبيب دارو بيا الفرمليا
رَامِّي كاعدا كتبكي بكاتلك جيبوه ليا
حمدتك هالعالي رزق الوليدات باقي فيا.

أما محمدالحريشي أحدالمولوعين بقصيدة (الحلوڤ) والممارسين لها كذلك فقد كتبها لنا كما يلي:

تعالي لي تعالي
كويتوني ويلي ويلي
واحادة الكبيدة
واعلاه أطفلة سوم شربيلك
جاني غالي..
حبيبي نشوف الزين
ناري ندي ليعتو
البنات كيف السراتة
خيي كلها وكيتو
العيون يبانو كحل
النيف بشمامتو
فمها براد تاع أتاي
مشحر بيڤَامْتُو
كيف يدير مول الزين
سيادي حتى يفارقو
****
كالت لك غادي لسوق .
جيب لي درة وشد
كانتسارى ڤ الكياطن
ساعة عكلني وتد
آه كيتي ڤ كلبي

ما كلتها لحد

كا نعرفك آطفلة كانحقك من القد

****

سولت على سميتك كالو لي حادة رانارك شاعلة

دكتني دكت الحنة

صرت غبرة

راسك مطلي بالحناني

لشموالمريض يبرا

شوف الطفلة كيف سرتت

وتكولومن خيل عبدة

كالت ليك ماناكل مانضوك

الاّجبتي لي الزيدة

آهزي وليدك

حطي وليد الهوى

بنت الشهبة ماتجي

عاكعبية كي مّها

الصلا على النبي وزيد وعْليًّا

الكلام لتديريهش علاش تكوليه ليا

تسوقت خميس رميلة

شدوني المخازنية

جا عمي تيبري كالهم طلكو ولد خويـــــا

أنا مسرقت فلوس مادازو عليا

طلكوني نمشي حاولولي على يْديًا
فاطنة والعود براكة عْليًا
وبيعي الدفينة عاونيني على الخطية
كلتها لمك بقاي عنتي
آه لمن كلتو لمن عودتو
واللي بغى يكول يكول عليه معولين.
****
حلفت ورغة على سبو كالتلو في بوك لابقات
الدالي قصرية طعام
باقة بحرا كّي تسكات
ويلي المخير في الدّوَارْ
في الزّبّالة كيبات
صاط الشّرْكِي من قدام
حتى كرنينة لوات
خرجو لها الحاجبات
بجناويهم حافيات
ناري ماس الحسانة
على الكَرّاطة صفات
سالو مكتوبي
****
مولاي بوسلهام هو كواد البحر
سيدي عبدالجليل الطيار
هو يعطي الأخبار

الأولة على السادات
أودي مَزْوار راه شريف
وهو راه ينادي
ياكل تمرة بالخمر
ولد سيدي جلول
أعبد الله مولا كلا
****

عينين مك عجبوني
عينين ختك طيحوني فالنار
وإلى بيد كش علي
رميني فالنار حتى نحمار
أنا وصيتوعلى المزوق
وهوجاب لي مريكان
مريكان حرموه الطلبة
مايدوزشي في الغيوان
الفخاد كالو كِتان
على ربي نهود قوالب
العيون كالوكيسان
سعدات ليعطاتو يامو
ياخذ البنات بَاقْنْ ما صامو
ويلي عريبة م عقل أنا مانكسابو
****

سباب الخطية والرزاية

هما دوك الشارفاء
يظلو يدور في المدء
ويجيو كاع الخبر
بنيتي نتي زوينة وما عندكش الوليدات
أجي نوريك واحد الفقيه مجودو بدقات
جمعي ميات كديدة وكديدة
وديري شي عشيبات
شوفي كلب كحل وجيبي منو شي زغيبات
من كانت الشّكّارة عامرة
كانت العفريتة باغياني
الحالة ديمة نقية
وتصبن لي حتى توابي
من عادت الشكارة خاوية
عادت العفريتة راكلاني
تجيبني لساعة النعاس عابظهرها عطياني
لحكت ضربتها ضريبةجمعت عليا الدراري
بلا حشمة بلا حيا
قدام الحاكم بركاني
عندومخزني عروبي
ضربني بضربة كفاني
****
رفودالخامس أُخوتي
كاع بكيتو عليه

هزو سيدي مع التلاتة
تمو غادين سايرن به
لصانص دارلها قليل
والشيفور مكري عليه
اسمع المطور تيخرخر
كالو ولدي قلبيه
هادراه جاري
قلبي علمني عليه
حط تسبيح على المطور
مول شي قاد بشيه
راه الرجال آخوتي
هما لحزنو عليه
****
رفود الخامس آسيادي
عيني بالدمعة بكات
ياك الحرية التامة
أصلها من كازا بدات
الدار البيضاء حبيبة
ماليها غاوليدات
نسمعو فيها غالقنبول
والمسدس آخوتي كحل
مجودو بدقات
حلوف في السّما قامة

بعيني شوفت بيضاتو
بيضات حمرات صفرات
واش الحلوف تيبيض
أعرك الكذابة
****

آبنتي آبنتي
هذا العام شدادة
شدي بنتك أدادة
العزبة بغات الشهادة
****

الفم احمر بالسواك
ولا خليقة هاك هاك
قبري بين النهود
مايحتاج عود
حليب نهود
مايكلل مايروب
حيدي اللثام
خلي القنوفة تبان
الدوار دواري
ولا لي حدود
الخيمةحدا الخيمة
وحديتي إلرجل
حردي ومردي

را القور كبالتك
البندير بو خرصة
تكلم في الرملة
كسكاس خبيزة ولا كمح الرهوط
بيني وبين باك وانت مارماك

إن ما يميز أغنية (الحلوف/الحلوفي) بجانب أغنية الغابة والهيت التي تطرقنا إليها في الجزء الأول من كتابنا السابق من وحي التراث الغرباوي الطبعة الأولى غشت 1999م مطبعة أمبريال أن لها علاقة جدلية أساسية بما هو إنساني واجتماعي وثقافي وسياسي وديني، وكذلك بالنظام البنيوي العام للمجتمع البدوي الغرباوي، كما يبدو من خلال صياغتها الإبداعية والتنظيرية.. القائمة بدورها على أسس الحركة الحركية.. الكامنة من كونها تجسد وضعا إنسانيا معينا، في فترة زمنية معينة.. للإنسان البدوي الغرباوي، المتحرك باستمرار من خلال طبيعة أعماله الدينامية، كما يؤكد الواقع الموضوعي المتحرك المعيش.. ذلك. إنها نتائج المجتمع الغرباوي وبذلك اعتبرت فنا شعبيا لأنها تعبر عن كل أفراده وعن واقعهم المعاش والمعيوش باعتبارها قصيدة يؤديها الفرد أو الجماعة جاءت لتطرح بشكل تعبيري وصفي وغنائي حماسي.. كثيرا من الحالات العاطفية والغرامية.. الإنسانية والاجتماعية.. الفكرية والثقافية والتراثية.. وذلك في إطار رؤية متماسكة ومنسجمة –في الغالب – مع النظام العام للمجتمع البدوي الغرباوي، وإن ظهرت فيها بعض التعابير والأبيات الجنسية «الساقطة» - كما رأينا، التي يمكن إرجاعها إلى تلك

الشحنة القوية الداخلية والرغبة الباطنية الاندفاعية المكبوتة.. التي انفجرت بقوة ولم تسعفها العادات والتقاليد والرقيب الجمعي.. وهذا ليس غريبا حتى عن معنى أودلالة لفظ عنوانها (الحلوف) الذي يتضمن دلالة العنف والقوة والثورة.. التي يتميز بها الحلوف/ الخنزير الذي لا يرحم من اعترض طريقه إذا ماثار أوهوجم من طرف الصيادين في الغابة..!؟!. ولكن هذا لا يعني من جهة أخرى أن كل ماجاء في هذه القصيدة/الأغنية هو ساقط ومميع.. لايحترم الأسس العامة للمجتمع البدوي الغرباوي، بل على العكس من ذلك إنها قصيدة تحمل في أحشائها صورا إنسانية واجتماعية ودينية وثقافية وأخلاقية وسياسية.. جميلة وواعية وهادفة.. إنها تعبير عن العلاقات القائمة بين الإنسان ومحيطه بلغة شعبية متميزة وصادقة، وإن صاغها ناظمها/ نظامها.. من وجهة نظر نزعتهم الذاتية التي تغلب عليها العاطفة والإحساسات الرقيقة. فقد جاءت كذلك معبرة عن الحياة اليومية للمحيط الموضوعي كما يعيشه الناس ويتصورونه وهم يتحركون هنا وهناك..

وبذلك حاولت أن تحافظ على مكانتها وأهميتها ووضعها الاعتباري المتميز داخل المجتمع الغرباوي، بحيث أن الذي يغنيها في الحفلات والأعراس والمناسبات.. يحافظ على الطابع الإنساني والاجتماعي والأخلاقي والثقافي.. وذلك بحذف الأبيات «الساقطة» منها إذا لم يكن الوسط يسمح بذلك...!؟!

إن وجود مثل هذه الأبيات والتي بإمكانها أن تحدث (خللا) في واقع قيم الحشمة والخجل والاحترام.. بين أفراد الأسرة أو العائلة.. مثل كما يقول محمد الحريشي :

«الفم حمر بالسواك

قبري بين النهود

مايحتاج عود

حليب نهود

مايكلل مايروب»

لا يمكنها أن تُغَنَّى _ كما قلنا _ إلا في الوسط الذي يسمح لها بذلك، _ بل هناك من يعتبر هذه الأبيات وغيرها محشوة ودخيلة على هذه القصيدة_ وذلك للحفاظ على القيم الأخلاقية والروابط الاجتماعية المشتركة والعادات والتقاليد السائدة.وهكذا لا تصبح تشكل خطرا على النظام العام للمجتمع الغرباوي، أنذاك. أما اليوم فقد أصبح المشاهد لمجموعة من القنوات البصرية معرضا لغزو سياسة جنسية مميعة وخطيرة..فقدت كل معايير الأخلاق القائمة على الاحترام والحشمة والوقار.. وأصبح المكياج/ وسائل الزينة.. ضروريا لدى الأغلبية بطرق سافرة ومفضوحة.. أكثر بكثير مما جاء في الأبيات السابقة الذكر من قصيدة الحلوفي. إنها إشكالية الجنس التي كانت تعتبر من «المحرمات» في الحديث والمناقشة والإبداع.. والتي أصبحت مع الإيديولوجيا الليبرالية المؤسسة في عمقها على حرية القول والفعل والتعبير... دون مراعاة القيم الأخلاقية والدينية والإنسانية والثقافية.. التي تحرم الميوعة وعدم اتزان الشخصية الإنسانية التي بإمكانها أن تتحول إلى حياة حيوان وهو يسلك سلوكا ساقطا ومبتذلا ومنحطا...!؟!

إن وعي المغني/المغنين لقصيدة الحلوفي واهتمامهم بالثقافة الشعبية وبمكوناتها ومحدداتها وأبعادها يعتبر مبدأ أساسيا في حياة المجتمع

البدوي الغرباوي وفي مطالبه بنوعية الحياة التي يعيشها واحترام نظامها العام. وهذا مايجعل _ كما قلنا_ المُغَنِّي حتى الآن، أن يكون واعيا بهذا الطرح الإشكالي وذلك باعتبار واحترام الوسط الاجتماعي الذي يغني فيه وهو يعزف أويضرب.. وهي كلها حركات متنوعة ومتعددة تجلب الأنظار إليها ولاسيما حين تسكت الآلات وتبقى حركة الأجسام البشرية وهي تضرب بالأرجل بقوة على الأرض أوترقص أو تصيح..!؟!.. إنها أغنية الجماعة والفرد وللجماعة.. !؟!

الاهتمام بهذه الأغنية/الحلوفي، كذلك نعتبره إحدى الدعائم الأساسية التي ساهمت مساهمة فعالة في نشأة وتكوين وبناء.. الثقافة البدوية الغرباوية إذ تركز هي الأخرى، على مبدإ أو مفهوم الحركة المتنوع، وذلك من أجل تحقيق الأهداف المتوخاة تحقيقها والتي تنسجم وتتلاءم مع الواقع المعيش.. الواقع الإنساني والاجتماعي والثقافي.. وهذا ماجعل هذه الأغنية هي الأخرى، كما قلنا_ قد حظيت باهتمام كبير من طرف كافة شرائح المجتمع الغرباوي لأنها نابعة من واقعهم وموجهة إليهم ومعبرة عن واقعهم، سواء في حالة فرحهم ونشاطهم.. أوفي حالة حزنهم ومآسيهم ومظالمهم.. كما يبدو مثلا في هذه الأبيات كما يقول لحسن المجاهدي :

« الصلا على النبي وزيد وعليّا

الكلام اللي تديرهش

علاش تكوليه ليا

تسوقت خميس الرميلة

شدوني المخازنية

جاعمي تيبري
كالهم طلكو ولد خويا
أنا مسرقت فلوس
مادازو علـــي
طلكوني نمشي
حاولولي على يدي»

إن الحديث عن كل حركة إبداعية أو فكرية أو ثقافية.. يقتضي توفير مجموعة من الشروط، منها ماهو موضوعي، وما هو ذاتي.. وهذا كله يتم في إطار الواقع الموضوعي المعيش.. الذي يستقي منه المبدع.. إبداعه للتعبير عما يواجهه في هذا الواقع، وكذلك مايحدد شروط عيشه كإنسان نشيط ومتحرك.. وهذا بدوره يحدد العلاقة الدياليكتيكية بين ماهو ذاتي وماهو موضوعي.. ماهو إنساني وماهو واقعي وتراثي وديني وأخلاقي.. كما جاء ذلك على سبيل المثال في وصف لحظات وسكرات الموت كما يقول لحسن المجاهدي:

«الصلا على النبي في قلبي حضر
واجي نعاود ليكم على ليلة القبر
شدتني الموت من رجلي ولّى وجهي صفر(...).»

ونحن نقرأ هذه الأبيات الزجلية المتعلقة بالموت وما ينتظره الميت يوم القيامة.. قد وجدنا أن هناك وعيا بأهمية الدين والحساب والعقاب.. في الوعي الشعبي وذلك من خلال ذكر النبي (ص) في البداية، وكذلك من خلال تقديم أمثلة معاشة أثناء وصف لحظات الموت. فالراوي/الناظم يحكي لنا عن القبر وعن الموت التي تبدأ الإنسان من رجليه فيصفر وجهه

ويضيق صدره ويعجز عن الكلام.. ثم كيف يأتون له بالكفن/الثوب الأبيض.. وكيف يقرأون عليه القرآن الكريم.. !؟! ثم كيف يحملونه إلى المقبرة.. !؟! ومن الفيزيقا إلى المتافيزيقا.. يشرع في الحكي عن وصف كيف يأتي صاحب/ملك الأسئلة/الحساب والعقاب.. بسكاكيته وشواقره مذكرا الميت بأعماله/جرائمه في الدنيا التي يتهمها ويصفها الميت بدوره بالغدر والمكر.. باعتبارها ذميمة وخسيسة.. !؟!. وهكذا يزن صاحب/ملك الأسئلة.. الحسنات والسيئات التي قام بفعلها الميت في حياته.. فيجازى أو يعاقب عن ذلك..!؟!

وفجأة يعود بنا الناظم إلى الحب والحبيبة وانشغاله بجمالها.. وإلى الشيخ الذي تزوج ببنت صغيرة في سن بنته وكيف أصبح مميعا يلبس لباسا قصيرا يفضحه أثناء الصلاة..!؟!

هذا الكلام الوارد في القصيدة يدعونا في الحقيقة إلى الواقع الحي المعيش الذي انبثقت منه هذه الكلمات والأوصاف والتعابير وذلك لفهمها واستيعابها ومعرفتها.. من خلال ماهومعطى ومعاش. فالحكي في سياق الواقع المتحرك المعيش.. يقدم إلينا صوراً تعبيرية للوعي البدوي الغرباوي بلغة بسيطة وبلهجة محلية.. وهذا يقربنا بدوره إلى استيعاب مضمون أهمية هذه القصيدة/الأغنية المتداولة في الواقع الموضوعي الغرباوي.. إنها تلك الأغنية المرتبطة بالجانب الإبداعي المحكي في التراث الشعبي باللغة العامية المحلية_كما قلنا_ التي تقوم على الارتجال والعفوية.. وهذا ما يعطي للتراث الشعبي سمة خاصة به تميزه عن غيره، كما ترتبط بالغير، من غير فقدان خصوصيته، وهذا يعطيه قيمة إنسانية متعددة الجوانب والأبعاد ومختلفة الأبعاد!؟!

«الصلا على النبي وزيد وعليّا
هذا زواج الذل واش بغيت بيه
ماقبلتو ماحملتو عابا كلفني عليه»

ولا شك أن الحديث عن موضوع الزواج ومشاكله.. له دلالته وأهميته في الواقع البدوي الغرباوي. ويقودنا هذا الحديث إلى إدراك الحقيقة التي يوضحها الناظم من خلال حديثه عن زواج الذل والمهانة الذي لايتحمل مسؤوليته الزوج/الرجل.. الذي يرفضه ويكرهه.. ولكن أباه هوالذي فرضه عليه!؟! وهذا يعني أن الزواج في البادية_ كما جاء في القصيدة_ لا زال يفرض على الولد والبنت.. معا، من طرف الذين يملكون السلطة عليهما. كما ينتقل الناظم إلى موضوع آخر لايخلو من أهمية في الواقع الغرباوي المعيش.. إنه موضوع زيارة الأولياء الصالحين للشفاء من المرض أو لقضاء حاجة من الحاجات!؟!

وفي ضوء رؤية الواقع الموضوعي الغرباوي يجسد ناظم هذه الأبيات وعيه بما يجري في هذا الواقع المعيش، وذلك من خلال تقديم مجموعة من الصور والمشاهد..الإنسانية والاجتماعية والثقافية.. التي تجسد بدورها نمط الوعي الشعبي والثقافة الشعبية.. هنا في هذه المنطقة المغربية. كما ذهب الناظم إلى توضيح إشكالية أزمة علاج المرضى سواء تعلق الأمر بالأولياء أو بالنسبة للأطباء.. إنها إشكالية الغياب.. !؟!

إن هذه الأبيات وغيرها كقصيدة تراثية في الثقافة البدوية الغرباوية، هي طريقة من الطرق المعبرة عن الرؤية الأنسانية الناقدة والفاضحة لما يجري في الواقع الموضوعي، كما توضح قصور الوعي الإنساني والاجتماعي والفكري.. لمواجهة المشاكل، مثل المرض والفقر..

الخ كما تساعدنا على التمكن من الكيفية التي صور بها الناظم في ذلك الوقت هذه الإشكالية، محاولا اختراق هذا الصمت الذي خيم على التراث البدوي الغرباوي، وفاتحا لنا ولغيرنا المجال من أجل القراءة والتحليل والتساؤل والمناقشة.. لما واجه هذا الإنسان الغرباوي في مراحل تاريخنا المغربي الذي لازال في حاجة ماسة إلى الكثير من الدراسات والأبحاث والاجتهادات.. الواقعية الموضوعية!؟ حيث يضيف المجاهدي لحسن قائلا _كما رأينا_

«الصلا على النبي حطيناه تم

كتب آسد الفقيه دير جر القلم

لعيونك أيا,وحيدة بهم اليهودي سلم(...) .»

تحتوي قصيدة/ الحلوفي_ كما قلنا_ في سياقها النظمي تصورات وعي الإنسان البدوي الغرباوي، وتحتل الحبيبة فيها مكانة أساسية، حيث نجد لفظ المرأة يتكرر باستمرار في هذه الأغنية الشعبية، وهوتنبيه واع لتلك المشاعر والمحبة التي يؤججها حب خالص للمرأة من طرف الرجل في الحياة الإنسانية البدوية. وهكذا فإن هذه القصيدة/ الأغنية تؤكد بوضوح أهمية الحب عند الإنسان البدوي بالتعبير والتصوير.. الغرباويين.. حيث يحمله حب المرأة إلى عالم النشوة والنشاط والمتعة والجمال... !؟!

كما نلاحظ في هذه القصيدة، كذلك، البدء بذكر النبي وذلك بالصلاة عليه في كثير من المرات، قبل تمرير أي شيء آخر يريد قوله الناظم أو المغني.. وبهذا تأتي هذه القصيدة/الأغنية الشعبية على ذكر بعض جوانب الحياة الإنسانية والدينية والإجتماعية والنفسية..الخ.

لقد اهتم الإنسان البدوي الغرباوي بواقعه الموضوعي المتحرك.. وحاول جاهدا أن يعرفه ويعبر عنه بشتى الوسائل والطرق، وأن يهتم بسلوكه الإنساني وأنشطته المتوعة والمتعددة.. وهذا ما حاولنا بدورنا أن نستخلصه من قراءتنا للتراث الغرباوي. وهكذا يكون اهتمامنا الأساسي بالبحث فيه.. ليس مجرد وصف مظاهره وظاهراته، بل عملنا على قراءتها وتحليلها ومناقشتها وتساؤلاتها ونقدها وتفسيرها وتوضيحها.. ما أمكن وذلك لتيسير الطريق على من سيأتي من بعدنا بدافع البحث والتعمق والدراسة.. أكثر فأكثر، في تراث هذه المنطقة الغرباوية المغربية المهمشة على مستوى كثير من الجوانب والمجالات..!؟!

إن النظام/الناظم في هذه الأغنية الشعبية ذات الطابع البدوي الغرباوي يستخدم في نظمه/شعره.. مفردات اللغة اليومية، مما جعلها تتميز -كما قلنا- بالكلام اليومي العفوي المباشر الذي لا يتصنع ويتكلف في الوصف والتعبير.. إنه الإحساس النابع في عمق بواطنه والمعبر بالفعل عن واقعه المباشر والمعاش وذلك من أجل التواصل مع الذين يخاطبهم بكلمات وتعابير مألوفة مستقاة من عمق الحياة اليومية المعاشة الشعبية البدوية. هكذا تتحرك اللغة الشاعرية بتحرك وجدان الناظم والمغني.. فتتحرك معه الجماعة بكل أعضاء أجسادها من رجلين ورأس ويدين وكتفين.. وهي تجذب وتصيح.. مكونة دائرة متماسكة فيما بينها!؟!

ونحن نقرأ بتريث قصيدة الحلوفي -كما كتبها لنا كذلك محمد الحريشي- يطالعنا النظام/الناظم بنار حبه ولوعة الفراق والبعد عن حبيبته "حادة" واصفا إياها بأوصاف جميلة.. مما يدفعه إلى الحيرة والتساؤل وعدم القدرة على فراقها..!؟!

هذا الوصف الحواري لم يكن في البداية مباشرا مع الحبيبة، وإنما كان وصفا كلاميا متداعيا.. تظهر فيه الصور الجميلة المحلية بشكل منساب وحر، دون شرط أو قيد (عيون سوداء، أنف وسيم وفم يشبه فم براد الشاي المنعنع...) دون ميوعة أو انحطاط أخلاقي يسيء إلى العادات والتقاليد ومكونات المجتمع البدوي.. وهذا ما جعل وصفه يتسم بالنظرة الجمالية وبالتعبير الفني الصادق...!؟!

"العيون يبانو كحل

النيف بشمامتو

فمها براد تاع أتاي

مشحر بليقامتو."

وبعد هذه الصور الإنسانية/الغرامية والحسية ينقلنا الناظم إلى مجال الدين وذلك بالصلاة على النبي (ص) كما يشرع في لوم الذين يقولون ولا يفعلون ثم يصف لنا محنته مع السلطة/المخازنية.. إنها صور إنسانية وإجتماعية وثقافية.. يستقيها من عمق الواقع الموضوعي المعيش..!؟!

معاناة الناظم/الشاعر وهو يتحرك بحرية في مجال الطبيعة البدوية الغرباوية.. يستقي تجربته الإبداعية من الحياة اليومية ومن الإحساس المباشر الصادق صورة محبوبته وحبه لها، جعل منه شاعرا/ناظما ملهما ولهانا وحائرا.. يعيش معها ويخاطبها ويتحدث إليها وعنها بالإلهام الشعري لا بالحضور الفعلي..!؟!

ثم ينتقل بنا الناظم إلى وصف الطبيعة ومكوناتها وكوارثها.. وهو يحكي ويصف.. الفيضانات المهولة التي كان يسببها نهر سبو

والخسائر الفادحة التي تتجم عن ذلك، وعن الجفاف/الشركي.. الذي يحول الطبيعة الخضراء المعطاءة.. إلى الجفاف والجوع والمآسي..

"حلفت ورغة على سبو
كالت لو في بوك لا بقات
دالي قصرية الطعام
باقه بحراكي تسكات
ويلي المخير في الدواور
في الزيالة تيبات
صاط الشركي من كدام
حتى كرنينة لوات"

ومن المثير للانتباه أن ظاهرة الأولياء الصالحين -كما قلنا- تحظى بإحترام واهتمام سكان المجتمع البدوي الغرباوي، نظرا لتعدد وظائفها داخل عقلية الإنسان الغرباوي. وهكذا وجدنا الناظم لأغنية الحلوفي ووعيا منه هو الآخر بهذه الأهمية ومدى تأثيرها على نفسية السكان واقتناعا منه هو الآخر، كذلك، بكون ظاهرة الأولياء تشكل حضورا أساسيا في حياة السكان وفي مواجهة المشاكل.. فإنه لم يبخل بذكر مجموعة مهمة منهم.. حيث حاول في تلك الأبيات المتعلقة بهم.. ملامسة بعض كراماتهم..!؟!

وكثيرة هي المجالات والمواضيع.. التي تحدثت عنها هذه القصيدة.. هكذا فمن موضوع الحب والقيم الأخلاقية والعادات والتقاليد البدوية الغرباوية والظواهر الإجتماعية والطبيعية.. إلى موضوع نفي جلالة الملك محمد الخامس وموقف المقاومة وكل الرجال الأحرار.. الذين حزنوا

عليه وبكوا.. وفضح كل الخونة والإنتهازيين الذين باعوا ضمائرهم ووطنهم.. للإستعمار..!؟!

"رْفُودْ الخامس آسيادي

عيني بالدمعه بكات

ياك الحرية التامة

أصلها من كازا بدات

(...)

راه الرجال آخوتي

هم للي حزنو عليه".

نعم لقد ناهض ناظمو قصيدة الحلوفي الإستعمار وشتموه وهزئوا منه.. بشتى الطرق.. وهذا ما جعله (الإستعمار) بدوره أن يسميهم ويطلق عليهم وعلى فرقتهم/فرقهم بـ (الحلوف).. احتقارا لهم واستهزاء منهم كذلك..!؟! .. كما يقول أحد المهتمين بهذه القصيدة (الحلوفي) والممارسين لها في هذه المنطقة الغرباوية..!؟!

ولقد جاء في (العلم الثقافي السبت 11 أبريل 1998 على لسان "د. عبد العزيز خلوق التمسماني) عن "مقاومة منطقة الغرب من خلال البحوث الفرنسية والإسبانية.(...)

في البداية أشير إلى أن موضوع المقاومة في منطقة الغرب ما زال بكرا، لم يحظ بعد –فيما أعلم – بما يستحقه من عناية من لدن المؤرخين المتخصصين – من المنظور المغربي عدا النزر اليسير مما كتب عنه – فهو بحاجة إلى المزيد من الأعمال الجامعية التي تجلي معالمه وتكشف الغموض عنها، والكثير منها ما زال خافيا علينا.

أولا : حول البيبلويوغرافيا الفرنسية : 1 أبدأ بالمؤرخ Pierre Berthier الذي أنجز منذ 1985 دراسة جامعية موضوعية وعلمية عالجت بعمق، مختلف الجوانب العسكرية لمعرفة وادي المخازن، تحمل عنوانا دقيقا ولافتا :

« La bataille de l'oued el Makhazen dite bataille des trois rois (4 août 1578) »

وهي منشورات المركز الوطني للبحث العلمي في باريس، تطرق فيها – استنادا إلى المصادر التاريخية كمؤلفات الزياتي –إلى مساهمة قبائل الغرب في حماية حوزة الوطن من الأعداء، وفي أعمال حركة الجهاد، حيث تضمن الجيش السعدي فرقا من المتطوعين الذين التفوا حول السلطة المركزية لإيقاف المد الإستعماري ومنازلة الغزاة البرتغاليين، فكان الفرسان والمشاة من أهل الغرب معبئين من طرف أئمة الزوايا وشيوخها في القلاع المنتشرة عبر الهبط لمواجهة الأطماع الأجنبية التي كانت تهدد البلاد.

2 - أنتقل إلى المؤرخ Jacques cagne الذي ركز في بحوثه على أشكال المقاومة المغربية الشعبية والرسمية وأصول الحركة الوطنية، نشر العام 1988، الأطروحة التي ناقشها، في باريس، منذ حوالي عشرين عاما تحت عنوان : *« Nation et nationalisme au Maroc »* في هذا السياق خصص المؤلف فصلا تمحور حول الدعوة إلى الجهاد، تحدث فيه اعتمادا على المصادر التاريخية المغربية – عن رجال الغرب المصلحين المجاهدين الذين استقطبوا، في تلك الفترة الحرجة، القرويين للمواجهة العسكرية مع المحتلين. في هذا الفصل بالذات نقل لنا الدارس الفرنسي أبياتا شعرية معبرة عن ملحمة الجهاد والشعور الوطني في العهد السعدي عن الترجمة الفرنسية التي قام بها الأستاذ الجليل الدكتور محمد حجي في أطروحته

فيها إشارات *« L'activité intellectuelle au Maroc à l'époque sadide »* مقتضبة إلى "أسود الغرب" وأتباعهم ومريديهم الذين بثوا الحماس الوطني، وهم يجوبون بوادي الغرب.

بعد هذا التقديم، أستسمحكم الآن لقراءة الأبيات في الترجمة الفرنسية : *« Ô triomphateurs, habitants de notre Gharb, on vous cite en exemple dans chaque ville ! Vous êtes les héros en vérité. »*
« Les envahisseurs convoitent votre pays, occupant un village après l'autre... »
« Où sont donc les lions du Gharb et ses hommes aux coursiers fougueux »

3 – من الدراسات الأكاديمية الفرنسية التي استرعت نظري عمل الباحث : *A. Louis de prémare* حول موجة التصوف الشعبي في بلاد الهبط، متخذا سيدي عبد الرحمان بن عياد الصنهاجي الشهير بالمجدوب نموذجا، محللا أوضاع مغرب القرن 16 في دراسته :

« Sidi abd-er-Rahman el Mejdub. Mysticisme populaire société et pouvoir au Maroc au 16ème siècle. » « La tradition orale du Mejdub. Récits et quatrains inédits. »
- *« Le Gharb, Fellahs et colons, étude de géographie régionale. »*

فهذا العمل يقدم مادة وثائقية ذات قيمة تاريخية كتبها عالم عاين المنطقة وشاهد ربوعها، فسجل، بصدق، أحداثها ووصف واقعها المعيشي.

ثانيا : حول البيبليوغرافيا الإسبانية : أنتقل الآن إلى الكتابات الإسبانية المتمحورة حول الغرب. 1- نشرت وثيقة إسبانية مخطوطة حول عهد مولاي سليمان، وهي رحلة الراهب بطريسيو خوصي دي لاطوري إلى المغرب في ربيع 1800، دون فيها المراحل التي اجتازها من طنجة إلى مكناس. اهتم فيها بتسجيل ما وقعت عليه عينه في الغرب الذي كان

يشهد وباء الطاعون الفتاك، راسما صورة حية لدواوير المنطقة والسهول التي مر منها.

2- استفدت، في المدة الأخيرة، من عرضين قدما في الدورة الثامنة لجامعة مولاي علي الشريف الخريفية المنعقدة في دجنبر 1997، وهما : - "مغرب نهاية القرن 19 وبداية ق 20 في كتابات وتقارير أعضاء الجمعية الإسبانية الجغرافية بمدريد، للأستاذ عبد الغفار بن إدريس العلمي.

- قراءة في الرحلات الإسبانية للمغرب في عهد مولاي عبد العزيز" للأستاذة ميلودة الحسناوي.

(...)

ثالثا : مقاومة منطقة الغرب من خلال الأرشيف التاريخي المغربي :

إن ما ينقص الكتابات التي أشرت إليها هو خلوها من مادة الأرشيف المخزني. في هذا السياق أسعدني الحظ فتمكنت من الوقوف على وثائق وطنية موجهة إلى أعيان الغرب. منها مثلا، الرسالة التي بعث بها المولى عبد العزيز (1894 - 1908) إلى أعيان قبيلة مالك في موضوع فتنة بوحمارة التي أثارت بالإضافة إلى الإضطرابات والقلاقل بلبلة فكرية حول شرعية أو عدم شرعية الحركة التي تزعمها الروكي الجيلالي الزرهوني. وكنت قد لاحظت أن ثورته شكلت ظاهرة جديدة في تاريخ الثورات التي عرفتها البادية المغربية. فقد سبق أن عرف المغرب عدة ثورات نجمت أساسا عن عسف العمال أو الإرهاق الضريبي، إلا أن الثورات كانت محلية وكان يسهل على المخزن قمعها غير أن فتنة

بوحمارة امتدت في المكان والزمان من 1902 إلى 1909، لذا وجه المخزن الرسائل إلى مجموعة من القبائل، منها إلى منطقة الغرب".

من غير شك إن هذه الأقوال الهامة والمهمة ستدعم موقفنا إزاء ما قلناه عن منطقة الغرب ورجالاتها لا في مجال المقاومة فقط، ولكن في كل المجالات الأخرى، مثل، مقاومة الإستعمار بكل أنماطه المتسلطة ومقاومة الحياة والطبيعة...الخ.

وقد جاء في كتاب محمد حجي "الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين" الجزء الأول 1396 – 1976. منشورات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر سلسلة التاريخ (2). ص 198 : "ومثلت معركة وادي المخازن أبرز حدث عسكري في وسط ذلك العهد، حيث رجع الفضل الأكبر لفوز المغرب إلى المجاهدين المتطوعين الذين توافدوا من جميع الجهات ملبين نداء عبد الملك المعتصم وأخيه أحمد"

من غير شك إن هذا الكلام الذي استشهدنا به لدعم موقفنا ونحن نبحث في دور المقاومة وأهميتها في الواقع الغرباوي.. لدليل آخر وشهادة من باحث كبير، هو الأستاذ محمد حجي، على أن جهة الغرب لم تكن غائبة عن الدفاع عن الوطن وعن محاربة العدو المستعمر – كما يعتقد البعض – بل إنها كانت ولازالت حتى الآن بفضل أبنائها المنخرطين في الجيش الملكي تساهم بكل ما لديها من وسائل وإمكانيات.. في الدفاع عن الوطن الحبيب.

وكما حكى لنا رجل نبيه ومتقدم في السن، هنا في ضواحي مشرع ابن القصيري، كذلك، أن مجموعة من سكان إحدى القبائل الغرباوية.. قد ناهضوا المستعمر الفرنسي الذي أراد السطو على أراضيهم

فهاجموه بالسلاح الأبيض "المناجل" وسميت هذه الإنتفاضة الغرباوية بإنتفاضة "المنجل".

ونجد في كتاب "الزاوية الدلائية" لمحمد حجي، كذلك، في ص 154 من الأقوال والشواهد.. التي تؤكد على أن منطقة الغرب – كما قلنا – لم تكن غائبة في مجال المقاومة والدفاع عن الوطن.. كما لم تكن غائبة كذلك، في كل المجالات الأخرى المتعددة والمتنوعة الأهداف والأبعاد.. وبذلك استطاعت هذه المنطقة أن تؤدي دورها الإنساني والإجتماعي والحضاري والتاريخي والثقافي والسياسي..الخ، وهكذا استطاعت، هي الأخرى، أن تسجل اسمها في المحطات التاريخية المغربية، شأنها شأن كل المناطق المغربية الأخرى، حيث يقول الأستاذ الباحث محمد حجي "المجاهد العياشي هو محمد(بفتح الميم) بن أحمد المالكي الزياني (بفتح الزاي وتشديد الياء) العياشي السلاوي. أصله من قبيلة بني مالك بن زغبة من العرب الهلالية المستوطنة في بلاد الغرب، وفصيلته القربى بنوزيان القاطنون اليوم بأحد أولاد جلول بدائرتي القنيطرة وسوق أربعاء الغرب. كان العياشي من أخص تلاميذ الشيخ عبد الله بن حسون الذي أشار إليه بالجهاد في سبيل الله.

بدأ يظهر على مسرح السياسة في أوائل العقد الثاني من القرن الحادي عشر للهجرة (أوائل القرن 17 للميلاد(كمجاهد متطوع في بلاد دكالة يرابط فيها لقتال البرتغاليين في الجديدة. وبلغ خبر تضييقه على

- الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين. محمد حجي. الجزء الأول 1396- 1976 منشورات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر. سلسلة التاريخ (2)
– الزاوية الدلائية ودورها الديني والعلمي والسياسي محمد حجي. الطبعة الثانية 1409- 1988. مطبعة النجاح الجديدة.

النصارى المحتلين و انتصاره على جيوشهم في وقائع حربية متعددة إلى بلاط السعديين بمراكش، فكافؤوه بعمالة مدينة آزمور، ..."

ويضيف الباحث محمد حجي في ص 159 قائلا : "وكتب الشيخ محمد بن أبي بكر الدلائي رسالة أخرى في نفس الموضوع إلى أحد رؤساء بلاد الغرب من ذوي العصبية القبلية والسلطة الروحية، وهو الشيخ أبو زيد عبد الرحمان العايدي من أعيان أعراب سجير يحثه على نصرة المجاهد العياشي وندب القبائل إلى الإئتمار بأمره ودعوتهم للإئتلاف حوله والعمل معه يدا واحدة." ويضيف في ص 170 : "حاول عبد الله العياشي أن يثأر والده المجاهد القتيل فحشر لذلك أنصاره من قبائل الغرب، ولقي جيش الدلائيين بقيادة محمد الحاج على ضفاف وادي الطين بالقرب من مركز أحد كورت الحالي، في أوائل ربيع الأول عام 1643/1053. وجرى بين الفريقين قتال شديد كان التفوق فيه للدلائيين، وطارد محمد الحاج أنصار العياشي وجاس خلال ديارهم، فعمت الفتنة قبائل الغرب وفشا فيهم القتل والنهب." ويضيف كذلك في ص 184: "والنصوص الصريحة المتقدمة تعد هذه المدينة من جملة مناطق نفوذ محمد الحاج والمعاهدة التي أمضاها سلطان الدلاء في 8 ذي القعدة عام 19/1067 غشت 1657 مع الحكومة الإنجليزية تؤكد أنه صاحب النفوذ في تطوان. وظلت هذه المدينة وفية للدلائيين حتى بعد قيام الثورات ضدهم في بلاد الغرب. ولم تستسلم تطوان إلى الخضر غيلان إلا بعد أن انحدرت أمامه جيوش محمد الحاج في وقعة "وادي بوحريرة" بالقرب من ساحل مولاي بوسلهام عام 1660/1070."

يحتل موضوع "المقاومة" موقعا هاما ومتميزا في الواقع البدوي الغرباوي منذ القديم إلى الآن، حيث شارك الإنسان المغربي الغرباوي في

الحروب المحلية والجهوية والوطنية والعربية الإسلامية والعالمية.. غير أن هذا الموضوع ظل بدوره "مهمشا" وغير مهتم به هو الآخر في مجال البحث والدراسة والقراءة..الخ، شأنه في ذلك، شأن كثير من المواضيع التي أشرنا إليها في السابق.

وإن وجدت بعض المراجع والمصادر.. من طرف بعض المهتمين والمتخصصين قد اهتمت بهذا الموضوع، كذلك في منطقة الغرب، فإنه دون شك، لا زال في حاجة إلى التوسع والتعمق والتدقق.. أكثر فأكثر، حتى نعطي لهذه المنطقة هي الأخرى حقها في مجال البحث والدراسة والمعرفة..الخ، بجانب المناطق المغربية الأخرى التي نالت اهتماما أكثر من هذه المنطقة الغرباوية، كما يؤكد الواقع الموضوعي ذلك...!؟!

وهكذا نريد لفت الإنتباه، كذلك، إلى أن الواقع الغرباوي – في مجمله – يعاني من إشكالية التدوين والتأريخ والتوثيق.. لا في مجال هذا الموضوع فقط ولكن في كثير من المجالات والميادين.. الأخرى، نظرا لمجموعة من الأسباب والعوامل قد سبق لنا أن ذكرنا البعض منها...!؟!

كما تنطوي هذه الإشكالية من جهة أخرى، على سياسة لا تخلو من أبعاد وأهداف متنوعة ومتعددة.. تتعامل بها مع سكان هذه المنطقة المهمشة على المستوى الفكري والثقافي والسياسي..الخ. بالأساس. ومثل هذا التعامل في رأينا، يشجع على "اتهام" هذه المنطقة بعدم لعب دور في مواجهة الإستعمار كيفما كانت طبيعة هذا الإستعمار.. وذلك من خلال إصدار أحكام مسبقة وذاتية وسطحية.. لاعلاقة لها بالواقع الموضوعي الحقيقي.. المعيش والمتحرك...!؟!

- الزاوية الدلائية ودورها الديني والعلمي والسياسي. محمد حجي. الطبعة الثانية 1409- 1988. مطبعة النجاح الجديدة.

ولكي لا نتيه في متاهات مثل هذه الأحكام الغير موضوعية والغير علمية في مجال هذا الموضوع الغرباوي.. بحثا ودراسة وقراءة.. في جميع المجالات وعلى جميع المستويات وفي كل المراحل.. بطرق متنوعة ومختلفة.. وبرؤى متعددة ومتعمقة.. جميعها تتوخى الدراسات والأبحاث والقراءات.. العلمية والموضوعية.. قصد توضيح وتدقيق.. الحقائق الحقة والموضوعية.. بالأساس!؟!

لقد شارك الإنسان الغرباوي بجانب أخيه المغربي أينما كان..! في مواجهة الإستعمار، وذلك للدفاع عن الوطن –كما قلنا – كما شارك في كل الحروب العالمية، وفي مقدمتها الحرب العالمية الأولى والثانية، والدليل على ذلك هو وجود (حتى الآن) مجموعة من القدماء المحاربين.. كما شارك في الحروب العربية وفي مقدمتها حرب أكتوبر 1973 التي استشهد فيها ابن المنطقة – على سبيل المثال لا الحصر – الكولونيل العلام من مدينة سيدي قاسم، بالجولان في سوريا.. كما شاركت مجموعة من الأفراد الغرباويين في بناء طريق الوحدة التي شارك فيها كثير من أبناء الوطن.

كما جاء كذلك في مجلة "أبحاث"[1] : "السلطلة وإشكالية العصرنة (دراسة للأدوار والعلاقات من خلال الأدب الشعبي بالغرب" لإدريس كرم. ص 63.

"(...). ومن أمثلة ذلك التاريخ السياسي، ونذكر بأمثلة منه على ما ذهبنا إليه، هجوم قبيلة سفيان على قائدها بعد حرب تطوان "حيث تحالفت مع بني مستارة، وهجموا على القائد عبد الكريم بقريته وقتلوه

1 – أبحاث. العدد : 9 – 10. السنة الثالثة – شتاء 1986م

سنة 1862" أما في عام 1908 فقد "أعلن أعيان فاس وأئمتها بخلع مولاي عبد العزيز، وكانت المآخذعلى هذا السلطان المغربي كثيرة، وأكثرها حقا، إذ كان طيشه وكلفه بالملذات قد يسر لرجال المال الأوربيين أن يضعوا يدهم على إمبراطوريته كمقدمة للإحتلال السياسي الذي قامت به فرنسا" وقد نتج عن ذلك كما هو معروف تولية أخيه المولى عبد الحفيظ، بيد أن هذا الأخير تعرض لثورة عليه من طرف القبائل بعد أن تبين لنا عجزه عن رد الأجانب، وهكذا "ثارت قبائل اشراردة وبنو امطير في شمال وجنوب مكناس، وكان من أحداثها الزحف على فاس للاستلاء عليها وعزل السلطان عبد الحفيظ، فكان أن تدخلت القوات الفرنسية بقيادة الجنرال مونييه عام 1911 باسم إنقاذ السلطان الشرعي، واستولت على مكناس، وأسرت مدعي السلطنة ووقعت مع مولاي عبد الحفيظ معاهدة الحماية."[1]

نعم لقد عانى الغرب من تسلط المتسلطين والقواد وبطشهم واستغلالهم واستعمارهم.. ونهبهم وإرهابهم.. وهذا الموقف زاد في تعقيد وضعية الغرباويين أثناء مواجهة الإستعمار الفرنسي، الذي وجد الغرب "سهلا" في التغلب والسيطرة عليه وذلك بمساعدة العملاء/الخونة.. الذين تحكموا في المنطقة قبله وأثناءه وبعده. وهذه الحقيقة ليست خافية على الذين يعرفون تاريخ منطقة الغرب على الخصوص والمغرب على العموم؟!

1 – نفس المرجع السابق

3- أهمية المقاومة الغرباوية في مواجهة الأخطار والدفاع عن الإستقرار في عهد سيدي محمد بن عبد الله.

يعتبر موضوع المقاومة في منطقة الغرب، قديما وحديثا، موضوعا هاما وأساسيا في تحديد بنية النظام السياسي المغربي، لكونها عنصرا مهما في عملية الحفاظ على أوضاع الأمن والإستقرار.. داخل المجتمع والدولة. كما أن دورها في الإستقرار والمواجهة يرتبط مباشرة بالنظام السياسي الحاكم، وذلك للمكانة التي كانت تحتلها القبائل الغرباوية في الحرب لكونها متخصصة في المواجهة والحماية والإستقرار.. وقد اهتم المؤرخ المغربي المشهور الناصري في أجزائه "الستقصا"[1] انطلاقا من تتبعه لدور المقاومة في منطقة الغرب والإعتماد عليها من طرف مجموعة من السلاطين العلويين في الحرب والإستقرار والأمن مثلا.. بالرغم من تهميشها وتغافلها من طرف مجموعة من الباحثين والدارسين والمؤرخين المعاصرين..؟!

يقول الناصري في ص 57 من الجزء السابع : "ثم بعث السلطان كاتبه أبا عبد الله محمد بن العياشي المكناسي إلى قبائل الغرب وبني حسن وأمره بجمع العبيد الذين بها فمن لا ملك لأحد عليه يأخذه مجانا، ومن كان مملوكا لأحد فليعطه صاحبه ثمنه ويحوزه منه". ويقول كذلك في ص 166 : "لما انهزم المولى المستضيء من مكناسة بعد إيقاعه بأهلها خرج إلى حلة بني حسن وأقام بين ظهرهم..."[1] ونجده يقول كذلك في ص 168 : "كان المولى المستضيء في هذه المدة مقيما عند بني حسن كما قلنا، ولما بايع العبيد السلطان المولى عبد الله واجتمعت كلمتهم عليه خرج في طلبه وطلب شيعته من بني حسن..." و"جاء بنو حسن يهرعون إلى

السلطان طالبين عفوه. فأمر بالكف عنهم ورد عليهم سببهم وترك لهم خيلهم"..

قبل الحديث عن العلاقة المتينة في إعادة بناء سلطة الدولة/المخزن، وتقوية مكانتها السياسية والعسكرية والأمنية في عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله الذي تميزت مرحلة حكمه بمجموعة من التحولات والتغيرات في كثير من المجالات السياسية والفكرية والاقتصادية.. حيث أطلق عليها مجموعة من الباحثين والدارسين والمؤرخين والمهتمين بالتاريخ المغربي "التجربة الإصلاحية" لما تضمنته من إصلاحات مهمة وأساسية مست تطور الحياة المغربية بصفة عامة والحياة السياسية بصفة خاصة، كما أطلق عليها آخرون "مرحلة الحداثة والتحديث في المغرب" حيث يقول الأستاذ عثمان أشقرا في "العطب المغربي"[2] ص 11 : "فلقد تحول هذا الجيش إلى شبه قوة مضادة مدمرة للنظام من الداخل وعربون انحلاله التام. فعلى امتداد ثلاثين سنة فقط (1727 – 1757) تعاقب على الحكم سبعة سلاطين. بل إن السلطان عبد الله بن إسماعيل. مثلا. خلعه العبيد ثم عَادُوا و"بايعوه" أربع مرات. ولعل هذا ما سيدفع ابنه محمد –وقد أصبح سلطانا" ليس فقط إلى التنكيل بهم وتشتيتهم، ولكن – خصوصا – إلى إعادة التفكير بكيفية جديدة ومتجددة فيما يخص عموم السياسة التي سيستند إليها في حكمه. ومن هنا انخراط هذا السلطان في تجربة إصلاحية جعلت منه – على حد تعبير الأستاذ عبد الله العروي – "منهدس المغرب الحديث".". كما تتجلى كذلك في قوله في ص 15 " أولا: إعادة بناء سلطة الدولة/المخزن السياسية والعسكرية (="التنكيل بعبيد البخاري –خاصة".

ثانيا : اعتماد التجارة الخارجية باعتبارها المورد الرئيسي لمداخيل بيت مال الدولة/ المخزن (= بناء مرسى/مدينة الصويرة).

ثالثا : مبادرات إصلاحية في مجال القضاء والتعليم."

وإذن، لا بد من القول بأن قبائل الغرب قد لعبت دورا مهما في تاريخ المغرب السياسي والاقتصادي والثقافي والأمني.. قبل الحماية وفي عهد الاستعمار وكذلك في عهد الاستقلال[2]

وهكذا فإن حركات المقاومة في المغرب لم تكن حكرا على منطقة دون منطقة أخرى من مناطق المغرب، بل إن الشعب المغربي بكل جهاته وسكانه قد ساهم مساهمة فعالة في الدفاع عن الوطن على امتداد تاريخه الطويل المليء بالكفاح والتضحية، من أجل العيش في الحرية والأمن والأمان والإستقرار. وهناك قبائل غرباوية في بلاد سفيان وبني حسن ساعدت وشاركت السلطان سيدي محمد بن عبد الله في الحد من سلطة جيش/ عبيد البخاري، التخريبية والفوضاوية والفاسدة. وحين حاصرت قبائل الغرب وبني حسن جيش البخاري وسلطتهم وقيدوهم وتحكموا فيهم بإتفاق مع السلطان، وتكسرت شوكتهم وتقلصت قوتهم وضعف نفوذهم (جيش البخاري)، ولم يعودوا يشكلون خطرا على البلاد وعلى دولة المخزن.. كانت بذلك هذه القائل الغرباوية قد ساهمت هي الأخرى بجانب السلطان في مشروع الإصلاح والتحديث. وكانت كذلك من بين القبائل الرائدة للحركات الإصلاحية في المغرب قبل الاستعمار. كما ساهمت في مقاومة الاستعمار حين استعمر المغرب، وقد تجلى ذلك

[2]- العطب المغربي – بحث في أصول التحديث وإعاقاته بالمغرب الدكتور عثمان أشقرا. الطبعة الأولى 2003. الناشر : الملتقى. مطبعة : النجاح الجديدة. الدار البيضاء.

في المواجهات المباشرة معه، وفي الإبداع الفكري والثقافي والفني.. وها هم أبناء الغرب يشاركون إخوانهم المغاربة في كل المجالات بما في ذلك محاربة أعداء وحدتنا الترابية في الصحراء المغربية.

ومن غير شك، لقد ساهمت مجموعة من الأسباب والعوامل في تكوين المقاومة الغرباوية وفي تطويرها وفي الدفع بها لكي تقوم بمجموعة من الوظائف والأدوار في القديم حتى الآن وذلك لبناء مجمتع مغربي مستقر وحر آمن.. من بينها : وجودها في أراضي خصبة انتزعت منها في عهد الاستعمار من طرف المعمرين وفي عهد الاستقلال من طرف المتسلطين..!؟!

إنها قبائل تعودت على الصبر والتنقل/ الترحل والمواجهة والمقاومة بكل أشكالها، باحثة عن السلم والاستقرار بكل الطرق والوسائل!؟! كما استفادت من دعم سلطة المخزن لحمايتها كلما تعرضت إحدى القبائل لعدوان أو هجوم أو ظلم.. من طرف قبيلة أخرى، كما رأينا في السابق وكما جاء أيضا واضحا في الجزء السابع من "الاستقصا" للناصري في ص 178 : "ذكر السبب الذي هاج بعث السلطان المولى عبد الله الجيوش إلى أهل الغرب ومراجعتهم طاعته.

وفي سنة ست ومائة وألف أثناء حرب الودايا لأهل فاس قدم جماعة من عرب بني حسن على السلطان مولى عبد الله شاكين إليه عرب الغرب، وأنهم لما انقلبوا راجعين بمجموعهم إلى بلادهم مروا بحلة بني حسن فأغاروا عليها وانتهبوها، فحركوا من السلطان ما كان كامنا في صدره عليهم، وبعث إليهم جيشا كثيفا من العبيد والودايا وأمرهم بالفتك بأهل الغرب ونهب أموالهم وأن لا يبقوا لهم على سبد ولا لبد، فخرج الجيش يؤم بلاد الغ ب"[3] ونجد كذلك في ص 176 للناصري : "إجلاب

محمد واعزيز على السلطان المولى عبد الله وانتقاض أهل فاس والقبائل عليه (...)

(...) ثم كتب واعزيز بمثل ذلك إلى عرب الغرب من سفيان وبني مالك وكبيرهم يومئذ حبيب المالكي، فقالوا: "نحن لكم تبع وحربنا حربكم وسلمنا سلمكم"."[3]

لا يخفى الدور الذي لعبته قبائل الغرب في عمليات الحماية والاحتماء بالسلاطين وقت الحرب والتعرض للظلم وكذلك في استتباب الأمن في البلاد، ومن هنا تتجلى العلاقة المتينة كذلك، بين هذه القبائل وسلطة المخزن آنذاك. بالإضافة إلى موقعها استراتيجي في الخريطة المغربية، بحيث تعتبر نقطة تلاقي وتقاطع لكل المناطق المغربية الأخرى في الشمال والجنوب والشرق، مما زاد في أهميتها عند المسؤولين، بالإضافة إلى الدور الاقتصادي الذي لعبته ولا زالت تلعبه في دعم الاقتصاد المغربي، سيما في مجال الفلاحة على العموم والفلاحة الصناعية على الخصوص.

لقد شكلت المقاومة في منطقة الغرب أهم هاجس شغل سكانه بصفة عامة، والنخبة الواعية بصفة خاصة، وقد توجهت – كما رأينا – ثلاثة اتجاهات، كما نعتقد، اتجاه في القديم يهم مساندة وولاء والتعاون مع السلاطين لمواجهة المخربين والفوضاويين.. بدافع العيش في حرية وأمن واستقرار.. واتجاه في عهد الاستعمار الذي سلب منهم بلادهم وملكهم، وكذلك أراضيهم التي تعتبر المصدر الأساسي والضروري لحياتهم ثم اتجاه ثالث تجسد بوضوح في مشاركتهم في الحياة العامة المغربية وفي المشاركة في المسيرة الخضراء المظفرة، وفي بناء طريق الوحدة..الخ.

ومن هنا تعتبر المقاومة الغرباوية في عمقها رد فعل هام وأساسي لكل محاولة تمس بالمصالح العليا للبلاد وذلك للحفاظ على الأمن والاستقرار –كما قلنا أكثر من مرة – والعمل على ضمان استمرار الحياة الطبيعية والآمنة التي تشرف عليها الدولة المغربية.

إن علاقة المقاومة الغرباوية/ القبائل، بسلطة الدولة وسياستها المخزنية ليست غريبة عن الدارسين والباحثين والمهتمين والمؤرخين.. الواعيين باعتبارها ناتجة عن التقاليد العريقة والمتينة التي ربطت بين السلاطين وهذه القبائل. إنها نتيجة مصالح وأبعاد وأهداف متنوعة ومتعددة.. متداخلة ومتفاعلة، يستفيد منها الجميع. حيث جاء في الجزء الثامن من "الاستقصا"[4] للناصري ص 47 و 48 : "ثم إن السلطان رحمه الله نهض من رباط الفتح حتى وافى مشرع مسيعيدة من وادي سبو، ثم انتقل منه إلى سوق الأربعاء من بلاد سفيان، ثم تقدم إلى قبائل الغرب وبني حسن أن يسيروا إلى العبيد ويعسكروا عليهم من جميع الجهات، فامتثلوا، ولما استداروا حولهم وأحاطوا بهم إحاطة بياض العين بسوادها، قدم السلطان ودعا رؤساء القبائل فحضروا عنده، فقال لهم : إني قد أعطيتكم هؤلاء العبيد بأولادهم وخيلهم وسلاحهم، وكل ما لهم، فاقتسموهم الآن وكل واحد منكم يأخذ عبدا وأمة وأولادهما، فالعبد يحرث والأمة تطحن، والولد يرعى الماشية، فخذوهم وتقلدوا سلاحهم واركبوا خيولهم، والبسوا كساهم بارك الله لكم فيهم، فأنتم عسكري وجندي دونهم، فما سمعت قبائل الغرب وبني حسن هذا الكلام من السلطان وثبوا على

---

[4] مرجع سابق   مصدر سابق

العبيد من غير أن تكون منهم وقفة واقتسموهم في أسرع من لَحْسِ الكلب أنفه وتوزعوهم شذر مذر، وصيروهم عبرة لمن اعتبر.

وقفل السلطان راجعا إلى رباط الفتح، ولما دخله نفى العبيد الذين بها إلى مراكش، فأنزلهم بها، بعد أن عزل عنهم قوادهم، وولى مكانهم غيرهم، واستمر عبيد طنجة والعرائش موزعين في القبائل أربع سنين، ثم عفا عنهم واستردهم من القبائل إلى الجندية، وأركبهم وكساهم وسلحهم، لكنه ميزهم وجعلهم قبائل في الخلط وطليق منهم من أنزلهم بقصر كتامة وسفيان، وبنو مالك أنزلهم بمسيعيدة، وبنو حسن أنزلهم بسيدي قاسم والحياينة، وأهل الجبل أنزلهم بتامدرت من أعمال فاس، وأقاموا هنالك عدة سنين يوجهون حصتهم في البعوث ويعسكرون مع السلطان متى احتاج إليهم، ثم جمعهم رحمه الله بعد ذلك ونقلهم إلى مراكش وأقبل عليهم بالعطاء إلى أن عادوا أحسن مما كانوا حالا، ثم بدا له فيهم فبعث (...)، وعبيد بني حسن إلى المهدية، وأبقى معه في مراكش عبيد سفيان وبني مالك والخلط وطليق..." لقد رأينا إلى أي حد أن الخطر المشكل من طرف العبيد لتقويض سلطة الدولة/المخزن، ومحاولة تفكيكها للهيمنة والسيطرة عليها، وذلك من خلال مجموعة من الضغوطات والتصرفات الفوضاوية.. أن تدخل قبائل الغرب وبني حسن قد لعب دورا مهما وأساسيا -كما قلنا- في تفكيكهم والحد من سلطتهم والقضاء على قوتهم ونفوذهم. وهذا لم يجعل السلطان سيدي محمد بن عبد الله أن يتخلى عن هذه القبائل بل جازاها على عملها وقربها إليه، وقامت بينه وبينها ثقة كبيرة هدفها مواجهة ومحاصرة وتقييد.. أعداء الدولة من العبيد آنذاك.

إن وحدة القوة الغرباوية المرتبطة بمقاومة قبائل الغرب وبني حسن ترجع إلى عوامل عدة متداخلة ومتفاعلة ومتشابكة منها ما هو عرقي وعصبي قبلي، ومنها ما هو سوسيوثقافي وديني...الخ. هذه العوامل وغيرها هي التي شكلت جوهر هدف هذه القبائل المترحلة والتي أصبحت مستقرة بفضل أراضي الجموع والأراضي الفردية والقرابة الدموية والأبوية والأخوية والعائلية والسكنية..الخ وهذا ما دفع مجموعة من السلاطين الاعتماد عليها كقبائل قوية وموحدة ومكتلة لرد كل خطر على البلاد وعلى الدولة. وقد أدى هذا الوضع الغرباوي إلى أنه إذا كانت هناك قبيلة ضعيفة تلتجىء إلى قبيلة أخرى قوية وترمي عليها "العار" وذلك بذبح ثور، مثلا، لحمايتها من هجوم عدوان قبيلة أخرى أقوى منها، فإن القبيلة القوية تحمي وتدافع وتحارب.. من أجل القبيلة الضعيفة التي احتمت بها..!؟!

وقد خلصنا إلى أن هذه الحماية كانت تتم بواسطة القرابة أو الصهارة أو العلاقة..الخ. كما عانت القبائل الغرباوية هي الأخرى من إشكالية السيبة مثلها في ذلك مثل مجموعة من القبائل المغربية الأخرى، نتيجة ضعف التسيير والمراقبة والضبط.. من طرف المخزن على المستوى السياسي العام، أو لانشغاله بالمواجهة الأوروبية التي أصبحت –آنذاك– تهدد وحدة المغرب، وكثرة الاضطرابات في الداخل نتيجة ضعف القواد لانشغالهم بأنفسهم ومصالحهم أكثر، وممارستهم النهب والظلم والاستغلال والعنف..الخ. هذه الممارسات اللاإنسانية واللاأخلاقية.. مست مجموعة كبيرة من المواطنين وفي مقدمتهم كثير من القبائل البدوية.. من طرف الاستعمار القديم والجديد.. الاستعمار بكل أنماطه وأنواعه..!؟

ومع هذه الأوضاع المتردية والمتأزمة، التي عرفها المغرب بما في ذلك قبائل الغرب وبني حسن، فإن قبائل الغرب لن ولم تتوقف عن مواجهة المفسدين والمستعمرين والمتسلطين.. وكذلك عن دعم سلطة المخزن وذلك بالاستجابة إلى أوامره ومطالبه من جهة وإلى كبار رؤساء القبائل.. من جهة ثانية.

تمركز الاستعمار على العموم والفرنسي على الخصوص في منطقة الغرب. واستعماره بكل الطرق والوسائل لأجود الأراضي الغرباوية جعله يقوي الحصار ويمارس العنف والإرهاب بكل أشكاله، وذلك للترعيب والترهيب.. ومع ذلك كانت هناك انتفاضات واحتجاجات ومواجهات.. تقع هنا وهناك كممارسة احتجاجية ورفضية للوجود الاستعماري الغاشم. وتدل كثير من الدلائل والحقائق على أن المقاومة الغرباوية – بجانب المقاومة الوطنية – بالرغم من دورها الفعال والنشيط في تفعيل وتنشيط وتحريك وظائفها وذلك من خلال القيام بمساعدة توزيع الأسلحة على الفدائيين المخلصين ومن خلال مشاركتها الفعلية كذلك، في مواجهة المستعمر، بالرغم من هذا وذاك فإنها هي الأخرى ظلت تعاني من مجموعة من المشاكل المتعددة مما قلص من دورها وفعاليتها وأنشطتها وقلل من مكانتها حتى الآن..!؟!

وفي الحقيقة تدل كل القرائن حتى الآن، على أن القبائل الغرباوية بما في ذلك الحسناوية، قد لزمت السكون والهدوء والطاعة والتبعية بالرغم من تحولها إلى الاستقرار وارتباطها بالأرض وتربية المواشي وتبني الفكر الطقوسي والسحري/الأسطوري أكثر فأكثر، كما أشرنا في الجزء الأول من "وحي التراث الغرباوي". وهذا لم يبعدها كذلك

على العيش في واقع متشعب ومتأزم، يعاني من شتى ظواهر التسلط والسيطرة والتهميش والتخلف..الخ.

ومن خلال ما تقدم وما بقي في حاجة إلى الكشف والتوضيح والتوسع. في مجال الدراسات والأبحاث المتعمقة والمتعلقة بالواقع الموضوعي الغرباوي العام وبموضوع المقاومة الغرباوية على الخصوص، بأن هذه القبائل المغربية الغرباوية متمركزة في الغالب بالقرب من سبو بهت وورغة.. والأراضي الصالحة للزراعة، وذلك للمساهمة في الاقتصاد المحلي والوطني بشكل أو بآخر، كما لعبت أدوارا في العمل على استقرار البلاد والدولة، كما قلنا أكثر من مرة..!؟! ومع ذلك، لقد ظلت هذه المنطقة تعاني من التهميش في كل المجالات –تقريبا – مما كان سببا رئيسيا في عدم مواكبتها الركب النهضوي الفعلي والحقيقي.. بالرغم من وجود معامل للصناعة الفلاحية وشركات متعددة ومتنوعة الاختصاصات وبالرغم من تطوير أساليب الري فإن الفلاحة ظلت تكتسي طابع التقليد الموروث والطبيعي البسيط ؟!

وإذا كانت أهمية/دور المقاومة الغرباوية تجعلنا ندرجها ضمن المقاومة الوطنية المتداخلة الأبعاد والمتعددة الأهداف فإن التعمق في معرفة إشكالية الواقع الموضوعي المعاش الغرباوي لا تخرج عن الإطار العام للوطن ودور المقاومة الوطنية في تقعيد وتتبيث الأسس لقيام مجتمع ديمقراطي وقوي.. ناهض وقائم على علاقات منظمة ومحترمة. هذه المبادئ وهذه النتائج والأهداف بدورها، ينبغي وضعها في إطارها التاريخي ضمن حركية التاريخ المغربي بمفهومه العام. وهكذا يصبح تحديد مفهوم المقاومة وأهميتها في منطقة الغرب –وفي المناطق المغربية الأخرى – رهينا

بالوضع العام للبلاد، اقتناعا منا بمدى التأثير الدياليكتيكي/ التفاعلي القائم بين الجزئي والكلي وبين الخاص والعام.. وكذلك بين الفرد وسلطة المجتمع القائمة والمتحكمة..!؟!

فالقبائل العربية المغربية – بما في ذلك الغرباوية والحسناوية – كما يوضح ابن خلدون ذلك في كتابه "العبر" وكثير من المؤرخين والباحثين والدارسين المهتمين.. "قد نقلهم الموحدون من تونس إلى المغرب (مثل بنو معقل وبنو هلال..) في آواسط القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، وأنزلوهم بالهوامش الصحراوية وأنزلوا القبائل الأخرى بالسهول الشمالية والغرباوية.." وقد سبق لنا أن تحدثنا عن علاقة سكان الصحراء بسكان منطقة الغرب على مستوى الظواهر والمظاهر.. الشعبية ، التراثية والطقوسية والفنية...الخ. في دراسة لنا خصصناها للمقاربة والمقارنة والتأكيد والتوضيح لكثير من القضايا والحقائق...!؟!

وعلى ضوء قراءتنا هذه، يمكن تفسير إشكالية التهميش التي عانت منه بعض الجهات والأقاليم والمدن والبوادي والقرى، في كثير من المجالات نتيجة العقلية المتحجرة والمتعصبة.. التي لم تستطع أن تتجاوز النزعة القبلية المؤدية بدورها إلى المصالح الخاصة وإلى النزاعات والصراعات المفتعلة هذا لا يعني أن قبائل الغرب وبني حسن لم تساهم هي الأخرى في الفساد و"السيبة"/الفوضى، في بعض الأحيان، بل على العكس من ذلك، فحتى في عهد سيدي محمد بن عبد الله، والذي تحدثنا فيه عن العلاقة المتينة بين هذه القبائل وهذا السلطان، قد حدثت بعض الاضطرابات كما جاء على لسان الناصري في جزئه الثامن، ص 16 على سبيل المثال لا الحصر حيث يقول : " ثم دخلت سنة خمس وسبعين ومائة

وألف فيها خرج السلطان سيدي محمد بن عبد الله رحمه الله من مراكش يريد بلاد الغرب وعرج في طريقه على جملة من القبائل الذين كانوا مشتغلين بالفساد فأوقع بهم وشرد بهم من خلفهم...".

ومع ذلك، فقد ظلت قبائل الغرب وبني حسن وفية لعلاقتها بدولة المخزن ومتمسكة بدعوة سلاطينها ومبايعتهم، ومنشغلة بما يجري داخل البلاد من مشاكل ومن تغيرات وتطورات.. سياسية وإدارية.. وهكذا نجد كذلك في نفس المصدر السابق للناصري (ج 8) ص 87 حول دولة أمير المؤمنين أبي الربيع المولى سليمان، حيث يقول : "فأقام المولى سليمان رحمه الله بفاس إلى أن كانت وفاة المولى يزيد في التاريخ المتقدم، فاتصل خبر موته بأهل فاس ومكناسة فقاموا على ساق واتفق العبيد والودايا والبربر وأهل فاس على بيعته، لما كان عليه من العلم والدين والفضل وسائر الأوصاف الحميدة، التي تفرد بها عن غيره. ولما قدم العبيد والبربر من مكناسة إلى فاس اجتمعوا بأعيان الودايا وأهل فاس ودخلوا ضريح المولى إدريس رضي الله عنه وبايعوا أمير المؤمنين المولى سليمان يوم الاثنين سابع عشر رجب سنة ست ومائتين وألف، ولما تمت بيعته انتقل إلى فاس الجديد فاستقر بدار الملك منها وقدمت عليه وفود القائل من العرب والبربر بهداياهم، ثم قدم عليه بعدهم قبائل بني حسن وأهل الغرب...".

ونجد كذلك في ص 160 و 161 من الاستقصا الجزء الثامن للناصري، السابق الذكر هذه الأقوال التي لا تخلو من دلالات متنوعة ومتعددة حول ما نحن بصدده سلبا وإيجابا لقبائل الغرب وبني حسن، حيث يقول الناصري في "وقعة زاوية الشرادي وما جرى فيها على السلطان المولى سليمان رحمه الله هؤلاء الشراردة أصلهم من عرب معقل من الصحراء،

وهم طوائف زرارة والشبانات، وهم الخلص منهم ويضاف لهم بعض أولاد دليم وتكنة وذو وبلال."

ويضيف في ص 161 : "(...). وكان السلطان رحمه الله كالمغلوب على أمره معهما فلم يزالوا به حتى بعث إلى قبائل الحوز يستنفرهم لغزو الشراردة فاجتمعوا عليه، وكان معه جيش الودايا وكبارهم مثل الطاهر بن مسعود الحساني، الحاج محمد بن الطاهر، وغيرهما، ومعه القائد محمد بن العامري في بني حسن وغيرهم من قبائل الغرب.".

وبالرغم من أننا لا نتوفر على وثائق غرباوية كثيرة تساعدنا أكثر في تحديد دور المقاومة الغرباوية في العمل على الاستقرار في الدفاع عن دولة المخزن كلما دعت الضرورة إلى ذلك، أي كلما طلب منهم السلطان ذلك. فإن القبائل الغرباوية والحسناوية ومنطقة الغرب برمتها ظلت حاضرة في كل الأحداث والمهمات والمشاكل.. لتي كانت تقع في المغرب طيلة مراحل التاريخ. ولعل ما يدعم رأينا هذا، هي العلاقة بين دولة المخزن والقبائل الغرباوية ونزول السلاطين إليها كلما اقتضت الضرورة ذلك...!؟!

وهكذا يتضح نجاح خطة تمتين العلاقة والروابط.. في مواجهة المفسدين والمتمردين الفوضاويين في ذلك الوقت. ولكن من سوء حظنا أننا لا نتوفر على الوثائق والمصادر التاريخية القديمة التي تساعدنا على التعمق في تفاصيل هذه العلاقة والروابط.. التي يظهر أنها قد لعبت دورا مهما في تاريخ المغرب...!؟! ومع ذلك، استندنا على بعض النصوص المكتوبة والواقع الموضوعي المعاش، وذلك بالبحث والأسئلة والتساؤل والرواية الشفوية..الخ.

مما ساعدنا على القرب النسبي، من ذلك الواقع التاريخي القديم الذي لا يخلو من تشابك وتداخل.. أحيانا ، ومن تنازع وتناقض واختلاف.. أحيانا أخرى!؟! إنها حقيقة التاريخ الإنساني!؟!

ومن جهة أخرى، حينما تحدثنا عن مرحلة سيدي محمد بن عبد الله وعن "المغرب الحديث" هذه المرحلة التي قيل عنها الشيء الكثير بصدد الحداثة والتحديث ، فإن هذه الإشكالية ظلت تعاني من التفعيل ومن التمزق بين التقليد والحداثة والتحديث ، باعتبار ان الدولة وإن دعت مثلا إلى "التحديث المادي" فإنها ظلت في عمقها وأساسها تقليدية ، وهذا مناهض للحداثة والتحديث وللإبداع العقلاني والعلمي والفلسفي بالأساس.. وهذا ما يؤكد هيمنة وسلطة السياسي والإيديولوجي على الثقافي والعلمي.. الخ

4 - الزوايا والمقاومة في منطقة الغرب:

لقد أشرنا إلى العلاقة الموجودة بين المخزن/ سلطة الدولة وسلطة قبائل الغرب في أهمية الاستقرار و"الإصلاح" و"التحديث" –خصوصا في القرن الثامن عشر مع سيدي محمد بن عبد الله وق 19م – فإن إشكالية فشل محاولات الإصلاح لا ترجع فقط إلى السلطة السياسية وحدها بل هناك سلط وعوامل وأسباب أخرى.. تداخلت وتفاعلت في إنجاح هذا الفشل. وهكذا فبجانب العوامل : السياسية والإجتماعية والإقتصادية.. هناك العوامل الفكرية والثقافية والدينية.. التي لا يمكن إغفالها وإبعادها عن هذه الإشكالية المتشابكة الأطراف فالعلماء والمتصوفة.. هم الآخرون كانوا يتمتعون بسلط متنوعة ومتعددة، مكنتهم من إقامة علاقة متداخلة ومتشابكة مع السلطة السياسية/ دولة المخزن آنذاك، ومن هنا فإن قراءتنا ستركز بالأساس على أهمية العلاقة إيجابا وسلبا، القائمة بين بعض الزوايا والمخزن في عملية المقاومة في منطقة الغرب !؟

يتبين لنا من خلال ما سبق ذكره في الجزء 8 من "الاستقصا" للناصري في 160 و 161، حول زاوية الشرادي وما وقع فيها ولها في عهد المولى سليمان أن العلاقة بين هذه الزاوية والمخزن لم تكن إيجابية على العكس من الزاوية التيجانية التي يقول عنها مصطفى مشيش العلمي في كتابه : القنيطرة ميلاد المدينة والحركة الوطنية 1913 – 1937 ص 98 : " الزاوية التيجانية في المدينة القديمة (زنقة المسجد) منها انطلقت المظاهرة

الوطنية للتنديد بالسياسة الاستعمارية، بعد صلاة العصر من يوم 27 أكتوبر 1937"[3]

وكما جاء كذلك في كتاب : معلمة الغرب. عبد العزيز بنعبد الله ص 160 "وقد بدأت المعركة الهادفة لإقامة أماكن للتعبد منذ عام 1915، حيث طالب تجار فاس النازحون إلى مدينة القنيطرة، ببناء مسجد من الأموال المحصلة من بيع أراضي المخزن. ولكن الاستعمار ماطل؛ وأخيرا اتجه "وفد عن السكان إلى القصر الملكي بالرباط، حيث قدم لصاحب الجلالة محمد بن يوسف عريضة (بتاريخ حجة الحرام 1352هـ/ 16 مارس 1934م)، راجين تدخل جلالته لإقامة المسجد وسط المدينة، مع تحملهم نفقات اقتناء الأرض وبناء المسجد، دون أية مساعدة من البلدية التي ظلت تعرقل هذا المشروع."[4]

في إطار الجو المتردي والفراغ الصوفي.. الذي عرفته مجموعة من الزوايا الصوفية في القرنين السابع والثامن عشر الميلاديين، وفي هذا الإطار الذي أصبحت تعاني فيه الزاوية التيجانية كذلك، بدأت "النخب" الصوفية في القرنيين التاسع عشر والعشرين.. تعرف نوعا من التحركات لتحقيق مجموعة من الأهداف والأبعاد.. ولإعادة الاعتبار في علاقتها مع السلطة القائمة بالدرجة الأولى وإن كانت التيجانية مثلا قد عرفت انتعاشا من خلال تحركاتها وأنشطتها الصوفية والتعبدية.. فإنها لم تجند الناس/ تابعيها من أجل حمل السلاح والدخول في غمار الحرب لمقاومة

---

[3] القنيطرة ميلاد المدينة والحركة الوطنية 1913 – 1937. الدكتور مصطفى مشيش العلمي منشورات مؤسسة سيدي مشيش العلمي 6 الطبعة 2 مطبعة البوكيلي

[4] معلمة الغرب. عبد العزيز بن عبد الله. مؤسسة سيدي مشيش العلمي 9 الطبعة الأولى 2000. البوكيلي للطباعة والنشر والتوزيع.

المستعمر – مثلها مثل مجموعة من الزوايا الأخرى – وإنما ظلت دعوتها في الغالب تدعو إلى التعبد وتحقيق أهداف التصوف المعروفة، ومن بينها العمل على التقرب إلى السلطة المتحكمة ما أمكن، ومن ثمة كانت العلاقة بين السلطة والزاوية التيجانية في كثير من ضواحي الغرب، علاقة متينة، عملت فيها التيجانية على محاولة جلب "العامة" من الناس لتنفيذ تعاليمها في إطار "التعبد" أكثر من تكوينهم على المقاومة المباشرة وعلى التطوير والتغيير.. على عكس ما كانت تدعو إليه الدرقاوية. حيث يقول عبد المجيد الصغير في كتابه "إشكالية إصلاح الفكر الصوفي في القرنين 19/18م. ص 38 :

"وهذا يتضمن أن الشيخ الدرقاوي كان على اطلاع على الحالة المتردية التي يوجد عليها صوفية عصره. وكان يعلم أنهم أصبحوا بعيدين عن التصوف أو عن علم الباطن فيقول : " فالذي أطلبه هو علم الباطن ليس هو عندهم (أي عند شيوخ صوفية عصره) والله أعلم : إذا لو كان عندهم لكان عند أصحابهم" الذين أصبحوا خالين من التصوف الحقيقي : ونظرة سريعة إلى "الاعتقاد" التيجانيين في شيخهم التيجاني المعاصر للدرقاوي تبين لنا مدى الانحراف الذي أصاب عقائد الأتباع في شيوخهم بل وعقائد الشيوخ في نفوسهم وكأنهم صورة للبهائية والبابية في عصرنا الحديث"[5]

ليس من السهل بمكان، الإجابة عن أهمية دور الزاوية التيجانية في مقاومة الاستعمار وكل أنواع التسلط المتسلطة على أبناء المغرب، ما دمنا لا نتوفر على وثائق مكتوبة ومضبوطة تساعدنا في توضيح هذه الإشكالية، وإن كانت في جوهرها لها موقف معاد من الاستعمار.. لكون

---

[5] إشكالية إصلاح الفكر الصوفي في القرنين 19/18م. عبد المجيد الصغيرز الطبعة الثانية 1415 – 1994. دار الآفاق الجديدة.

فروع هذه الزاوية المنتشرة في المدن والقرى والبوادي الغرباوية – بما في ذلك كثير من فروع الزاوية الدرقاوية – خرجت عن مبادئ وأهداف الشوخ الجوهرية والحقيقية واشتهرت خلال ممارساتها وأفعالها بما هو خرافي وأسطوري أكثر بما هو ديني وصوفي وعقلاني.. كما أنها لم تقم بصراحة بمواقف جهادية في مواجهة الاستعمار.. بل ظلت مقتصرة على التعبد وممارسة طقوسها الخاصة، وهادفة إلى تحقيق مصالحها الخاصة أكثر فأكثر. وهذا يظهر بوضوح أكثر عندما تناولنا إشكالية العلاقة القائمة بين الزاوية والفرنسيين، كما جاء في ص 175 و 176 من كتابنا "من وحي التراث الغرباوي" الجزء الأول "ومن خلال ما جاء واضحا في ص 80 من نفس المرجع لبوتبقالت، وذلك بالاعتماد على "الاتصال" والتعامل القائم بين "بجو" وشيخ الطريقة التجانية عين مهدي التيجاني، لا تضع مجالا للشك في أن الرسالة/ الكلام الموجه إلى هذا الشيخ التيجاني من طرف "بجو" لا يخلو من أهداف استعمارية واضحة المعالم والأغراض ومن ديماغوجية استغلالية وتوهمية.. ومن سياسة استعمارية تتهم كلا من قام ضدها بعدم الوعي والصلاحية..الخ. وهذا الكلام لا يخلو كذلك من قصدية ومن خلفية استعمارية.. يتجسد ذلك في مدى إدراك وفهم ومعرفة أهمية وزن الطريقة أو الزاوية.. في نفسية الأتباع والمريدين والخدام.. في ذلك الوقت وفي مدى إمكانية تشكيلها خطرا على المستعمر والوجود الاستعماري"[6] و"وهكذا وكما جاء في نفس المرجع ونفس الصفحة بالفرنسية.."ففي 1870 مقدم الطريقة التيجانية سيدي أحمد البشير تزوج بالفرنسية (أورلي بيكارد) مما متن العلاقة أكثر بين الطريقة التيجانية وفرنسا..."[6] و"كما

---

[6] من وحي التراث الغرباوي الجزء الأول. بوسلهام الكط. الطبعة الأولى غشت 1999م. مطبعة أمبريال – الرباط - .

أنه في سنة 1843 وتحت أوامر المارشال بجو، تكلف القنصل الفرنسي بمدينة طنجة بإقامة علاقة مع سيدي الحاج العربي من الزاوية الوزانية، وفي سنة 1883 الحاج عبد السلام بن الحاج العربي حصل على "الحماية" الفرنسية وتزوج بامرأة إنجليزية..." 6"

وعلى ذكر الزاوية الوزانية وعلاقة بعض مقدمها مع الاستعمار الفرنسي ومع انجلترا، من خلال علاقة الزواج وأشياء أخرى، فإن ما يهمنا أكثر هنا أي في هذا الموضوع هو مدى أهمية علاقة الزوايا المحلية الغرباوية بالمخزن؟ وما هي الخدمات التي قدمتها له من أجل الحفاظ على التوازن والاستقرار سيما أن قبائل الغرب كانت معروفة بمقاومتها وقوتها آنذاك ؟

نجد في "قليل من كثير عن تاريخ وزان" [7] ص 45 و 46 : "العلاقة بالسلطة المركزية.

كان للشرفاء الوزانيين تصورا واضحا لحدود مجالهم، وهو مجال روحي صرف، ولم تكن لهم طموحات سياسية خاصة وإن كان مركز وزان في متناول جيوش المخزن. ومنذ تأسيس زاويتهم حظيت باهتمام المولى إسماعيل لكثرة أتباع الشريف المؤسس وارتباط نسبه بالسلالة الإدريسية "وتأكيد كثير من القبائل الذين أيدوا رغبتهم في تسلم الزاوية مقاليد الحكم"..." و"بجانب دورها في مباركة السلطة السياسية بالبلاد، أوكل إليها المخزن مهمة مراقبة تحرك قبائل الريف الغربي (مصمودة وغزاوة ورهونة) التي كانت تطمح للنزول إلى منطقة الغرب حيث السهول الخصبة. ولما كانت محاصرتها بالقوة تتطلب الجيش

---

[7] مصدر سابق

وتجهيزه وتموينه فقد وكل نفوذ روحي للشريف ولقدوته على التأثير في هذه القبائل بإخضاعها بدل استعمال القوة، وبالمقابل ماذا حققت الزاوية من ولائها للسلطة المركزية ومن هذه الأدوار التي لعبتها؟ لقد استفادت من عدة امتيازات، على شكل إعفاءات وامتيازات جبائية وضرائب معززة بظهائر للتوقير والاحترام"[7]

قراءتنا المتأملة للنصوص السابقة المرتبطة بأهمية دور الزوايا تظهر كأنها وثائق مكتوبة بالنسبة لتاريخ الزوايا بالمغرب، فإن أهميتها تبدو واضحة الأبعاد والأهداف في تحديد الحياة العامة والخاصة بالنسبة لتابعي زاوية من زوايا الغرب، كما وضحت لنا مختلف العلاقات والأنشطة التي كانت تقوم بها سواء على مستوى التعبد أوعلى مستوى علاقتها مع سلطة المخزن.

وفي إطار العلاقة القائمة بين مقدمي الزوايا وسلطة المخزن والمتجسدة بوضوح في أهمية ظهائر التوقير والاحترام، وهي ظهائر سلطانية - كما رأينا - فالزاوية الوزانية مثلا تسلمت مثل هذه الظهائر السلطانية كي تستفيد منها عائلات الأشراف. ومن يدور في فلكهم من الخدم والأتباع.. وذلك بتحسين وضعيتهم الاجتماعية.. من طرف المسؤولين.. في مقابل الولاء والإخلاص والبيعة للسلطة السلطانية. وهكذا فإن أهمية الظهائر لا تقف عند استفادة الشرفاء ومن في كنفهم، ولا تكشف فقط عن عمق العلاقة والروابط بينهم وبين السلاطين بالزاوية الوزانية أو التيجانية.. بل هي كذلك توضح لنا أهمية اهتمام سلاطين الدولة بمنطقة

---

[7] الزاوية الدلائية ودورها الديني والعلمي والسياسي. محمد حجي. الطبعة الثانية. طبعة 1409 – 1988. مطبعة النجاح الجديدة. الدار البيضاء

الغرب، نظرا للدور الذي لعبته قبائل هذه المنطقة المغربية في تاريخ المغرب وهي تكافح وتقاوم وتعمل وتنتج..الخ.

نجد في "الزاوية الدلائية"[7] لمحمد حجي ص 154 و 155.

"د) علاقة الدلائيين بالمجاهد العياشي.

المجاهد العياشي هو محمد (بفتح الميم) بن أحمد المالكي الزياني (بفتح الزاي وتشديد الياء) العياشي السلاوي. أصله من قبيلة بني مالك بن زغبة من العرب الهلالية المستوطنة في بلاد الغرب، وفصيلته القربى بنو زيان القاطنون اليوم بأحد أولاد جلول بدائرتي القنيطرة وسوق أربعاء الغرب. كان العياشي من أخص تلاميذ الشيخ عبد الله بن حسون الذي أشار عليه بالجهاد في سبيل الله. بدأ يظهر على مسرح السياسة في أوائل العقد الثاني من القرن الحادي عشر للهجرة (أوائل القرن 17 للميلاد) كمجاهد متطوع في بلاد "دكالة يرابط فيها لقتال البرتغاليين في الجديدة. وبلغ خبر تضييقه على النصارى المحتلين وانتصاره على جيوشهم في وقائع حربية متعددة إلى بلاط السعديين بمراكش، فكافؤوه بعمالة مدينة آزمور. ليظل شوكة في جنب البرتغالين..." و"واتسع نطاق العمل أمامه فصار يتنقل في حركاته الجهادية بين المعمورة والعرائش وطنجة وسبتة ومليلية والجديدة ويقارع في حملات موفقة المحتلين الإسبانيين والبرتغاليين. وجابه العياشي في نفس الوقت صعوبات داخلية متعددة منها ما كان ناتجا عن التمرد المعتاد لبعض القبائل ونزوعهم إلى الإغارة والسلب والنهب وقطع السبل لإثارة الشغب والاضطراب انسياقا مع تيار الأحقاد والضغائن."[7]

---

[7] مصدر سابق

من خلال قراءتنا التحليلية المتعمقة لهذا النص الهام والدال والهادف يبدو ونحن نخلص إلى خلاصة نسبية لهذا الموضوع المتشعب والشائك أن تساؤلاتنا حول أهمية دور المقاومة الغرباوية في تاريخ المغرب للمحافظة على الأمن والاستقرار والنظام.. وللتحرر من الاستعمار، تساؤلات مشروعة، باعتبار أن هذه المقاومة كانت تشكل عنصرا أساسيا في حياة القبائل البدوية الغرباوية.. من هنا لا ينبغي النظر إلى هذه القبائل على أنها قبائل وجدت من أجل الحرب والجهاد.. فقط، بل ينبغي النظر إليها على أنها حركات تاريخية واجتماعية وثقافية وسياسية ودينية.. عانت من الكوارث الطبيعية ومن الأمراض والأوبئة والمظالم والحروب..الخ.

من هنا تصبح الدراسات التاريخية المعتمدة على التوثيق والشهادات والتدوين، وكذلك على الثقافة الشفاهية.. مفيدة للخروج بتصور عام وشامل، بإمكانه أن يساعدنا أكثر فأكثر على التعمق والتدقيق والتوضيح لمعالجة إشكالية من الإشكاليات المدروسة أو المبحوث فيها. وهكذا تصبح المقاومة الغرباوية عنصرا من العناصر التي تكون نظاما أو نسقا عاما لشيء من الأشياء..الخ.

إن المقاومة البدوية الغرباوية في إطار النشأة والتكوين والوجود، لا يمكن فصلها عن العناصر الأخرى في مجال البحث والدراسة والقراءة. وهكذا نخلص إلى القول بأن منطقة الغرب قد ساهمت هي الأخرى – في بناء الوحدة المغربية الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية..الخ. بالرغم من معاناتها من التهميش، وبالخصوص في مجال البحث والدراسة..!؟

إن الحديث عن حضور القبائل الغرباوية لا يمكن – أن نقصره على الماضي فحسب، بل لا زالت حاضرة في كل المجالات وعلى جميع المستويات المختلفة والمتعددة.. حتى في عصرنا المعاصر، ولا زالت تلعب أدوارا مختلفة ومتنوعة كجزء لا يتجزأ من الوحدة الوطنية المغربية سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وفكريا وثقافيا ودينيا..الخ. ومن هنا وجدت المقاومة الغرباوية سندها وحققت أهدافها وأبعادها في حضور هذه القبائل المستوطنة في منطقة الغرب.

ومن جهة أخرى، هذه المقاومة الغرباوية لم تكن مقاومة محلية مقتصرة فقط على هذه المنطقة، وإنما كانت مقاومة وطنية مغربية شاركت في التحرير من الاستعمار، وفي المحافظة على الأمن والنظام والاستقرار.. في كل أرجاء الوطن، كما ظهر ذلك من خلال مجموعة من النصوص الموثقة والمدونة وفي مقدمتها : نص المجاهد العياشي السابق الذكر.

ومن هنا فإن الأهمية التاريخية والسياسية والدينية والاجتماعية.. للمقاومة البدوية الغرباوية لا تكمن – كما قلنا – في الدور الذي لعبته في هذه المنطقة المغربية، بل في مدى انتشارها في كل أرجاء الوطن، بالرغم من أنها لم تنل – لحد الآن – حظها من البحث والدراسة والقراءة حتى في عصرنا الراهن...!؟!

ومن جهة أخرى، فإذا كانت القبائل البدوية الغرباوية – كما رأينا – قد قاومت في كل المجالات وفي كل المراحل التاريخية المغربية، ولعبت في ذلك، دورا مهما وأساسيا، فإن الزوايا – وخصوصا الزوايا الفرعية الغرباوية التي تحدثنا عنها في كتابنا "من وحي التراث الغرباوي

السابق الذكر – لم تلعب نفس الدور الذي لعبته المقاومة القبائلية التي حملت السلاح، بل لقد اقتصرت كثير من الزوايا الفرعية وحتى المركزية مثل الوزانية، على الدعوة التعبدية التي لم تسلم بدورها من السقوط في خضم التفكير السحري الأسطوري والخرافي، حيث جاء في كتابنا السابق الذكر "من وحي التراث الغرباوي" الجزء الأول ص 311 : وكذلك من تحقيق الأبعاد والأهداف الخاصة..

"وبما نحن بصدد أزمة الوعي الثقافي في الواقع الموضوعي الغرباوي لدى الفرق الطقوسية المحلية، كحمادشة وعيساوة وجيلالة وأولاد الرياحي.. يمكن القول بأن الثقافة التي تقدمها لنا هذه الفرق كلها –في الغالب– هي ثقافة مأزومة ومعطلة.. ثقافة متخلفة عن واقعها الموضوعي المتحرك والمعيش وعن ركبها الحضاري والتاريخي والفكري والثقافي.. إنها ثقافة من طراز وعي واحد.. إنها ثقافة الارتكان والتكاسل والاستسلام والخضوع.. لمنطق وعي وثقافة الحضور المستديم لما هو غائب وميت..!؟".

ولقد جاء في "الإشعاع الحضاري بإقليم سيدي قاسم[8] المملكة المغربية وزارة الداخلية. ص 39 : "مواسم أخرى :

إن الطابع الروحي والصوفي الذي طبع بعض الجهات من الإقليم خاصة مدينة وزان منذ أن استوطنها المولى عبد الله الشريف ثم أبناؤه من بعده جعل جل السكان حتى من غير الشرفاء ينصهرون في بوتقة الروحانيات والمواسم الدينية التي كان يرمي الشرفاء الوزانيون من ورائها تربية الروح بالنسبة للموريدين وقاطني هذه المدينة حتى تكون أقوالهم وأفعالهم مما يقربهم إلى الله.

ولذلك فإحياء لعادات السلف، فقد كان الخلف بهذه المدينة إلى عهد قريب يحيون موسما دينيا في كل سنة وموسم (دار الضمانة) ولعل الاستعمار الذي سعى جاهدا في القضاء عليه كان يخشى أن يتحول إلى ثورة ضد الاستعمار بما كان يستعيده زوار القبائل المجاورة للموسم من ذكريات الجهاد والمواقف البطولية التي وقفها سكان قبائل بني مستارة وغزاوة ضد الاستعمار الفرنسي حتى أن آخر معقل استسلم للاستعمار الفرنسي بقبيلة غزاوة حسب ما تثبته لوحة لا زالت مكتوبة هنا إلى اليوم يسمى (أسردون) تمت السيطرة عليه سنة 1927م."

وفي نفس المرجع نجد في ص 47 و 48 : " سيدي علي بن أحمد المترجم (...).

وكان المترجم له إذا سافر لملاقاة السلطان أو لزيارة بعض المزارات المشهورة خرج الناس للقائه ذكورا وإناثا على طول الطريق يمر منها إحتفاء به وابتهاجا برؤيته. وكان من عادته أن يزود المجاهدين وحماة الثغور بالخيل والسلاح والملابس وكل ما يحتاجون إليه وكانت له عناية تامة باقتناء السلاح والخيل والسروج والبارود والرصاص وغير ذلك مما تشتد الحاجة إليه في الحروب حتى تحصل عنده من ذلك ما لا يوجد مثله إلا عند الدول وكل ذلك من أجل الجهاد والمدافعة...".

كما نجد في كتاب "أحداث ورجالات حلالة"[9] ص 15

"شكلت عملية نسف خط السكة الحديدية ارتباكا لرئيس الجمهورية والحكومة الفرنسية، حيث نفذت العملية يوم 23 غشت 1953

---

[9] أحداث ورجالات حلالة. عبد الجليل البصيري. الطبعة الأولى 2003م مطبعة البوكيلي للطباعة والنشر والتوزيع – القنيطرة -

في الساعة التاسعة ليلا باعتبارها كانت أول عملية فدائية بالمغرب، وهذا ما أثار الرأي العام الدولي بما فيه الرأي العام الفرنسي والوطني.

حيث استيقظت القنيطرة صباح يوم 23 غشت 1953 على خبر نسف السكة الحديدية للقطار الرابط بين الدار البيضاء والجزائر الذي تناقلته الإذاعات المحلية والعالمية."[9]

لا شك أن المهتم بالمجال الغرباوي، يلاحظ غلبة النزعة الذاتية وعدم التعمق في التحليل والنقد والتفسير.. في كثير من القضايا الغرباوية ومن بينها وأهمها قضية المقاومة الغرباوية المغربية والأدوار التي لعبتها على المستوى المحلي والوطني والدولي.

ولا غرو، فقد ظل هذا الموضوع – هو الآخر حتى الآن، مهمشا من طرف المهتمين والباحثين والدارسين وحتى السياسيين، وأن ما يكتب عن هذه المنطقة – في الغالب – لا يخرج عن دائرة الرسميات والمناسبات.. بشكل لا يرقى إلى التعمق في الطرح والبحث والدراسة.. وقد ترتب عن ذلك أن الإنتاج الثقافي في هذه المنطقة الغرباوية بقي يعاني وما كتب لحد الآن، لم يستطع الإلمام بشكل تركيبي ومعمق في تناول القضايا والمشاكل.. المطروحة، قديما وحديثا. وهكذا، فإن استحضار القراءات والأبحاث والدراسات المعمقة والناضجة والعلمية.. لمن شأنه أن يزيل الغبار عن تراث هذه المنطقة وأن يرفع حصار التهميش عنها، وأن يوضح مجموعة من الحقائق المزيفة والمحرفة التي تخدم بعض الأبعاد والأغراض.. الخاصة.

وانطلاقا من هذه الملاحظات الواعية والهادفة.. الناقدة والمتسائلة حاولنا في هذه القراءة المتعلقة بأهمية المقاومة في منطقة الغرب التي لا زالت بدورها في حاجة إلى التوسيع والتعمق أكثر.. وفي القراءات الأخرى

المرتبطة بالمجال الغرباوي العام، أن نعري على بعض أو كثير من القضايا، وذلك بطرحها للقراءة والبحث والدراسة والتساؤل والنقد من جديد.. بهدف بناء مجتمع حداثي وديمقراطي وبناء ثقافة شعبية واعية وملتزمة.. نابعة من عمق الواقع الموضوعي المعاش ومن مجالاته المتعددة والمتنوعة.

وقد يلاحظ القارئ الناضج والواعي والمتعمق.. بأن منطقة الغرب – مثل المناطق المغربية الأخرى – قد عانت من ازدواجية وصراع المتناقضات فمن كفاح ومقاومة الشعب.. إلى تسلط وقمع واستغلال ومطاردة وخيانة.. مجموعة من العناصر الخائنة مثل كثير من القواد والشيوخ والمقدمين وذوي السلط المتعددة والمختلفة.. ومن المقاومة المسلحة إلى المقاومة التعبدية.. ومن الثقافة الواعية والمناضلة والهادفة إلى الثقافة الرجعية والانتهازية.. ومن التعاون مع السلطة السائدة في تحقيق الأمن والاستقرار..إلى إثارة الفوضى و"السيبة" والاعتداء على الآخرين..الخ. ومن مقاومة الظلم والفساد.. إلى مقاومة الثوار والمصلحين.

وقد استفدنا – قدر الإمكان – من بعض المصادر والمراجع والثقافة الشفوية الشعبية.. التي اهتمت بشكل أو بآخر بهذه المنطقة، وذلك من خلال ما توفر لدينا، سيما أن هذه المنطقة تعرف خصاصا كبيرا على مستوى البحث والدراسة والقراءة.. وعلى مستوى التوثيق والتدوين، على جميع المستويات : المرئية والمسموعة والمكتوبة.. الخ. ودعوتنا هذه، هي محاولة، من أجل الاستجابة للخوض في عمق هذه المنطقة المغربية، قراءة وبحثا ودراسة وتساؤلا ونقدا..!؟!

وقد جاء في «دفاتر وجهة نظر (4)» : المخزن في الثقافة السياسية المغربية لهند عروب. الطبعة الأولى 2004. مطبعة النجاح الجديدة –

البيضاء. ص 107 و 108، حول «السيبة» والمقاومة في المغرب ومواجهة الاستعمار لهما ما يلي :

« وبمجيئ الاستعمار، وبالرغم من قصور مدته (1912 – 1956)، إلا أنه أخذت تغيرات في العلاقات الرابطة بين السكان ومجالهم الترابي والسلطة المركزية. إذ اتسم الحضور الاستعماري بالإصرار القوي على السيطرة الكلية على المجالات الترابية وإخضاع الأفراد لمراقبة الإدارة المباشرة عن طريق أداء الضرائب والتعبئة للقيام بأعمال السخرة. وقد حاولت هذه السياسة وضع حد لتجزئة "الإيالة الشريفة" منهجة سياسة "التهدئة" التي استمرت من سنة 1912 إلى 1934 وفي ظلها يقول واتربوري : «أصبحت سلطة المخزن مجرد عنصر زخرفي لإدارة عصرية غير مغربية في مجملها، أما القبائل فلم تعد قادرة على التمرد والتحدي أو التملص من قبضة السلطة المركزية، كما أن رجال الزوايا والطرق قد تقلص دورهم كوسطاء في الصراعات المحلية عندما تحكمت الحماية في تنظيم الإدارة في المناطق التي كانت تعرف ببلاد السيبة والسيطرة عليها، إلا أن سكان الجبال أفشلوا لمدة تزيد عن العشرين سنة، خطط أقوى الجيوش في بوابة القرن العشرين، لذا حاولت السلطات الفرنسية النيل من شخصية عبد الكريم الخطابي عندما كانت تقدمه باستمرار على أساس أنه يمثل روح "السيبة" القديمة ».

وإذا كان مفهوم المقاومة كثير المعاني والدلالات وفق تعدد وتنوع المواضيع والمجالات.. فإنها دون شك، كما يرى الكثير من الباحثين والدارسين، تهدف في عمقها إلى الدفاع بمفهومه العام هو الآخر، كالدفاع عن الوطن والهوية وإثبات الذات واحترامها.. ومواجهة كل أنواع

التسلط والاستعمار والاستغلال إلخ.. والمقاومة الغرباوية لم تخرج هي الأخرى عن هذا النطاق. وهذا ما استطعنا استخلاصه من خلال مناقشتنا التحليلية والمتمحصة لدلالة ووظيفة مفهوم المقاومة في الثقافة المغربية على العموم والثقافة الغرباوية على الخصوص، حين وجدنا أنفسنا أمام دلالتين ووظيفتين متناقضتين دلالة/وظيفة سلبية تتجلى في الموقف المعارض والمناهض.. لها باعتبارها (فوضى) واللانظام والسيبة واللاأمن.. وإن كانت من أجل الوطن والمواطنين الحقيقيين.. ودلالة/وظيفة إيجابية تتجسد في الدفاع عن الأمة وثقافتها وحضارتها وهويتها.. وفي محاربة أعداء الوطن والإنسانية والاستعمار والفساد والتسلط والاستغلال..الخ.

5- علاقة حركة الجسد بالروح في الظاهرة العيساوية :

ننبه القارئ الكريم والمهتم.. بأننا قد أشرنا في كتابنا السابق الذكر (من وحي التراث الغرباوي الجزء الأول) بأن ظاهرة عيساوة تكتسي طابعا لا يخلو من العنف والسلوك اللاإنساني، سواء على المستوى المحلي أو على المستوى العام لهذه الظاهرة العيساوية –من غير نسيان الفرق الأخرى كحمادشة...– مما عرضها إلى انتقادات كثيرة في هذا الإطار الإشكالي المتبلور في فعل "الافتراس" مثلا، غير أننا في هذه القراءة، سوف لا نقف عند ظاهرة العنف/الافتراس.. أي عند الجانب السلبي لهذه الفرقة العيساوية، بل سنهتم كذلك بالجانب الإيجابي الذي برز بشكل واضح في أعمال وسلوك وأهداف... شيخ الطريقة العيساوية، سيدي محمد بن عيسى/الشيخ الكامل –الذي اهتممنا به كذلك في كتابنا السابق الذكر – وبالاطلاع على كتاباته وممارساته وممارسات كثير من أتباعه كذلك، نستطيع أن نتجاوز النظرة التبسيطية والقدحية والتجزيئية.. لأية ظاهرة من الظواهر التي تكون محطة اهتمامنا، وهكذا نتجنب قدر الإمكان، عملية القفز على مجموعة من الحقائق المتنوعة.. التي تعيشها فرقة من الفرق أو تعرفها ظاهرة من الظواهر..!؟!

وإذن، نحن أمام جانبين مختلفين إزاء التعامل مع ظاهرة عيساوة، الجانب الأول –كما أشرنا– وهو المتجسد في شخصية الهادي بنعيسى/الشيخ الكامل بوصفه إنسان متصوف ومتدين ومنظم ومؤسس للطريقة العيساوية، وهي الطريقة التي قامت على أساس تنظيم العلاقة بين الشيخ والأتباع المريدين والمخلصين.. استنادا على مجموعة من المسائل

قد حددها هذا الشيخ لأتباعه.. والمفروض هو إتباعها واحترامها والعمل على المحافظة عليها كما كانت عند الشيخ...!؟!

أما الجانب الثاني لظاهرة عيساوة، فيتلخص في كونها أنها قد حرفت فيها مجموعة من الأشياء، وخالفت منهج وسلوك وأقوال.. الشيخ، حين استندت على الحضرة بواسطة الغيطة والطبل أو الناي...إلخ. وعلى (الافتراس) مما جعلها لا تتلاءم مع طريقته. وهذا ما جعلنا نلاحظ هذا التناقض القائم بين طريقة الشيخ الكامل والتابعين له.. المستندين على الحيرة/الجذبة أو الحضرة وكذلك على فعل الافتراس وأكل الصبار /الشوك التيني أو التين المشوك...!؟!

وقد يبرز منذ الوهلة الأولى ونحن ندخل في عالم عيساوة، هنا في منطقة الغرب، وبالتحديد في حركاتهم الجسدية والروحية. مفهوم الحركة هذا موجود عند الفرقة العيساوية بشكل عام.. مما أثار اهتمامنا وانتباهنا، من أجل أن نرى الأهمية التي يكتسيها هذا المفهوم والأبعاد الإنسانية والطقوسية والدينية.. التي يتميز بها عند هذه الفرقة الشعبية البدوية الغرباوية كذلك.

إن الحركة الأولى التي يبدأ بها العيساوي نشاطه وسلوكه وممارسته.. هي حركة الاستعداد الباطني/النفسي.. التي تؤهله إلى ممارسة الحركة العضوية المادية/الظاهرة. ومن هنا تصبح الحركة الظاهرة لها دلالة باطنية ونفسية.. هذه الحركة العيساوية تختلف عن الحركة عند الإنسان العادي، لأن حركة العيساوي منبثقة من الظاهرة العيساوية التي تتخذ عند الشيخ الكامل طريقة الزهد في الحياة لكسب رضا الله . إنها الحركة التي تجعل من العيساوي الممارس أن يعيش في

عالم الحضرة والجذبة والنشوة الخاصة به. إلا أنه يجب الانتباه إلى الانحراف الذي نلمسه عند كثير من الفرق العيساوية حين نقارنها بطريقةالشيخ.. والتي تتجلى في الافتراس وفي الهجوم على الذين يلبسون اللباس الأسود.. هذه الحركات ليست ناتجة عن طريقة الشيخ، بقدر ما نجد لها أسبابا أخرى متعددة ومتنوعة ترتبط بحياة هؤلاء العيساويين...!؟!

أما ما نلاحظه في الحركة الظاهرة عند فرقة عيساوة، فتبدأ بالتجمع في الهواء الطلق أو تحت خيمة كبيرة.. الخ. وحين يجلسون إلى الأرض ويلتصقون بأماكنهم مشدودين إليها بأغلال من أجل إلا يهربوا.. يبدأ (الهلاّل) وهو الإنسان المحنك في مجال التجربة العيساوية.. بصوته القوي والحنون والمثير.. في التأثير على العواطف واللاشعور حين يجعل الناس من ممارسين وغيرهم يتكثفون حوله ليصغوا إلى ما يقوله من كلام وهو يردد : بابا سيدي.. الهادي بن عيسى.. وتارة أخرى، يذكر الله/ ربي. كما يذكر كذلك محاسن وفضائل ومكارم الأولياء الآخرين.. وفي مقدمتهم الشيخ الكامل.. وكذلك يذكر بعض الأفراد الخدام والمخلصين والمعروفين التابعين للطريقة العيساوية والذين ماتوا أو ما زالوا على قيد الحياة ؟ هذا الصوت الحنون الشجي والحزين.. ينفذ إلى الأعماق، محدثا بذلك إنجذابا وتعاطفا وتقربا.. وهشاشة وحبا.. في داخل أعماق المستمعين إليه. هكذا نلاحظ تحرك العيساويين وحتى كثير من الخدام والمتفرجين.. منهم من يبكي ويتألم، ومنهم من يصيح، ومنهم من يهرول ومنهم يُغْمى عليه ويصبح يعيش في عالم اللاشعور والغيبوبة..!؟!

وبعد هذه الحركة يبدأ العيساويون –مرة أخرى- وهم لا زالوا جالسين على الأرض والحصير.. يذكرون الله عدة مرات وهم يضربون

على صدورهم بقوة، وكأنهم يطلبون النجدة للخلاص من حياة الشعور.. الحياة المادية.. وتعويضها بحياة اللاشعور والرموز.. الخ. وفي سياق البحث عن الخلاص من الجلوس الذي شدهم بقوة الأرض.. يتحرك الجوق الموسيقي معلنا عن استعداد الجميع للوقوف من أجل الحضرة / الجذبة.. التي يتحرك فيها الجسد بكل أعضائه وبالخصوص الرأس عند النساء العيساويات اللائي يبقين واقفات في مكان واحد بالرغم من حركة أعضائهن -هذا لا يعني أن الحضرة لا تكون أبدا في حالة الجلوس- معتمدات في ذلك على تسريح الشعر وتركه يتلاعب في الفضاء. هذا الوضع يحكم على المرأة -في الغالب- بالمكوث أو البقاء في مكان واحد أثناء الحيرة. أما الرجال فمنهم من يتحير مع النساء داخل الحلقة التي تتكون من الغياطة والطبالة.. ومن العيساويين الذين يقومون بعملية التجريد أو ما يسمى في اللغة العيساوية العامية بـ «التّجْرادْ» وهي على شكل حركات تقوم بالأساس على تحريك كل أعضاء الجسد وبالخصوص الأرجل التي تعمل ما لديها من أجل الخلاص من الأرض، والارتماء في أحضان الفضاء أو العالم الآخر/المثالي... وهم يقفزون ويهتزون ويضربون بقوة بأرجلهم الأرض، ويصيحون مرددين : « وآه وآه، وآه.. والله، الله » و « وآه وآه.. وعياد عليه».

وهكذا يكونون في حالة الوجد والغيبوبة كما هو الشأن بالنسبة للمتصوفة الذين يحتقرون وينبذون هذا العالم المادي الخسيس الذي يعتريه فساد وزوال وظلم... الخ.

هذه السلوكات.. العيساوية لا تخلو من تعبير رمزي هادف إلى الخلاص من (آه) الآهات والآلام والمظالم.. التي يعاني منها العيساوي في

حياته.. وهكذا تصبح سعادته في هذه الحضرة/الجذبة هي محاولة التوجه إلى الله وكسب رضاه، وطلب المزيد من العون.. للخلاص.. وتحقيق النشوة الروحية. وهنا يصبح الرمز عنصرا متشعبا وصعب الفهم عند العامة من الناس أثناء الحضرة.. وهذا لا يعني كذلك أن السعي إلى العيش في عالم الرمز.. يعفي العيساوي من العيش في العالم المادي الموضوعي والواقعي.. وإنما بمجرد انتهاء عملية الحضرة.. يعود إلى ممارسة حياته العادية المادية والواقعية.. بطريقة عادية وطبيعية...!؟!

وإذن، إن حالة اللاشعور أو الرمز.. التي يعيشها العيساوي أثناء الحضرة هي حالة أو حركة حاملة لدلالات ومعاني متعددة ومتنوعة لمن يمارسها بالفعل. فالحركة/ الحضرة.. بالنسبة لمن يمارسها ليست مجرد هدف منفعي/برجماتي خاص به، بل إنها المجال الذي يحقق فيه العيساوي نفسه أمام الآخرين، قصد إثبات جدارة ذاته وامتحان قدرته وبراعته أثناء الحضرة، وبذلك ينال اهتمام واحترام الآخرين وفي مقدمتهم العيساويون..!؟!

إن الحركةالعيساوية تفرض على ممارسها بطريقة شعور أو اللاشعورية بأن يحس وينظر إلى سلوكه هذا على أنه تعبير عن انتمائه إلى الفرقة العيساوية وتأكيد على تبعيته للشيخ الكامل.. ولكن هذه الحركة تبقى حركة –كما قلنا– رمزية متضمنة لمجموعة من الدلالات والمعاني والرموز.. التي تحتاج إلى التفكيك والتوضيح أكثر فأكثر...!؟! وهكذا فإن حركات ونشاط وسلوكات.. العيساوي لا ينبغي النظر إليها من منظور واحد وهو المنظور المادي / الواقعي الذي يرتبط –في الغالب– بما هومصلحي.. بل هناك أبعاد أخرى، منها ما هو روحي وما هورمزي وما

هو ديني وصوفي..!؟! ولكن، ومع هذا التعدد والتنوع في الأبعاد والأهداف والغايات.. تجد هذه الظاهرة الطقوسية - بجانب الظواهر الطقوسية الأخرى- نفسها (الآن) عاجزة على أن تنتشروتتوسع.. أكثر مما هي عليه، بل في تدهور وتدني وتقليص.. باستمرار، ما جعلها لا تستطيع أن تمتد إلى أغلبية شرائح المجتمع البدوي الغرباوي، بل ظلت محصورة ضمن أوساط كبار السن من العيساويين والخدام والأتباع والمتعاطفين...!؟!

. وها نحن نوجد إزاء هذه الظاهرة العيساوية والقائمة بدورها على الحركة كمبدأ أساسي وجوهري لنشاطها، كما بدا لنا بوضوح على ضوء اهتمامنا بالجانبين الأساسيين البارزين في سلوك العيساوي الممارس للظاهرة العيساوية، ألا وهما : طريقة الشيخ الكامل/الهادي بن عيسى.. الصوفية، والطريقة الطقوسية الزائغة والمنحرفة -في الغالب- عن طريقة الشيخ الذي كانت حركته ذات بعد ديني محض وغاية صوفية بارزة.

وهكذا، رأينا، بأن هذه الإشكالية ترجع في عمقها إلى إشكالية الوعي والعقلية البدوية الغرباوية التي سيطرت فيها الأسطورة والخرافة والأمية.. أكثر من الوعي الناضج والعقلية المتفتحة والمنفتحة.. إنها العقلية التي سيطرت فيها البساطة الراجعة إلى العوامل الذاتية والموضوعية.. المتجسدة في النسق الاجتماعي البدوي الغرباوي. ولذلك فإننا إذا أردنا القيام بمحاولة ربط الفكر بالواقع الثقافي في المجتمع البدوي الغرباوي لا بد من مراعاة مجموعة من العوامل والشروط والأسباب.. الموجودة والمتجلية في هذا الفكر وفي هذا الواقع الموضوعي المعاش...!؟!

إن البحث في أهمية الحركة في الواقع العيساوي الغرباوي كمبدأ مهم وأساسي لقيام نشاط وسلوك.. هؤلاء العيساويين، يُعَدُّ، أمراً هاما في تقييم بعض المظاهر المعرفية من جهة ثانية.

ويبدو أن الدور آو الوظيفة التي لعبتها الحركة في عناصر التشكيل التراثي هنا، للتعبير عن الإنسان وعن الواقع النوضوعي المتحرك والمعيش.. قد سمحت لمجموعة من الفرق الشعبية أن تعبر عن نفسها ووضعيتها.. من خلال مشاهد وتصورات وطقوس.. متحركة لا تخلو من أهمية قصوى في حياة هذا الإنسان الغرباوي.

تقول الباحثة بنبراهيم نوال في موضوع «الأشكال المسرحية المغربية الأولى فرجة الأسود واللبوؤات نموذجا» «المناهل» [6] ص 327 عن فرقة عيساوة :

« ولهذا السبب يبدو زمن الفرجة صورة متحركة تصارع الموت وتفر من الزمن الواقعي المحدود لتتعلق بزمن إلهي غير منته. ولذلك نسمع الممثلين يرددون عبارات الارتقاء والسمو والغيبوبة والارتفاع ظنا منهم أنهم يعيشون أثناء تقديم المشهد التمثيلي زمنا أزليا، حيث يخرجون من الزمن المغلق ويلجون زمنا آخر لايعرف عنه شيء وربما هذا ماحفزهم إلى ربط زمن الفرجة الدرامي بحدث ديني هو المولد النبوي..» وتضيف قائلة في ص 329.. «ويعتمد التعبير الجسدي في هذه الفرجة بالدرحة الأولى على الحركة التي يراها بعض المستوجين اعتباطية وفظة، في حين يراها البعض الآخر غير واعية وتجريدية.لكن إذا تقصينا حركات هذه الفرجة، فإننا نجد الأمر يختلف تماما لأنها تخضع لقواعد ضمنية تعبر عن التواصل البدائي وإن كان تغيب فيه اللغة الشفوية، فهو يملي طريقة

خاصة تشبه وجود المريد، كما تخضع لرصيد الجماعة الرمزي الذي تغرف منه الحركات أسسها التعبيرية، حيث تفصح عن نص مفتوح يحفز على فهم الكون المضطرب.».

تسعفنا هذه الأقوال السابقة بصورة تقريبية لأهمية الحركة في الظاهرة العيساوية، وذلك عندما ينفرد« الهلال» أو «المنشد».. بذكر الله والهادي بن عيسى.. الخ. وهكذا ومن خلال قراءتنا المتأنية والمتعمقة للنصين السابقين الذكر، التي اعتمدنا عليها في استنتاج وتوضيح بعض المشاهد والصور الفرجوية، قد وجدنا مجموعة من المفاهيم والأفعال والدلالات.. التي لها علاقة بموضوعنا، هذا، والتي توجد عند كل الفرق التي سبق وأن تطرقنا إليها في كتابنا السابق الذكر (من وحي التراث الغرباوي).. مثل« الفرجة والحركة والارتقاء والسمووالغيبوبة والدرامي والديني.. وكذلك التعبير الجسدي والتجريدي والرمزي...الخ.».

ومن خلال هذه المسائل وغيرها، يتأكد لنا مرة أخرى بأن الحركة هي القاعدة الأساسية لكل الفرق الشعبية الغرباوية على مستوى السلوك المعيشي وكذلك على مستوى المخيال الإبداعي والرمزي.. الخ. إن الحركة قد ساهمت في تحريك الجسد والروح والآلة.. كما يتجلى ذلك في التراث الغرباوي..!؟!

إن انتهاج الفرق الشعبية الغرباوية، هنا، مبدأ الحركة والتزامهم بها كضرورة.. ومحاولة ابتعادهم في جل الأوقات عن السكون والجمود.. الجسدي بالدرجة الأولى، كان له ما يبرره في الواقع الموضوعي المعاش.. المادي والثقافي.. لا سيما أن الحركة الجوهرية والحقيقية قد استمدتها من طبيعة عملها المتبلورة في الفلاحة وفي تربية المواشي.. من هنا

تبدو هذه الحقائق وغيرها ذات علاقة أساسية بالشخصيةالذاتية وبالبيئة الموضوعية معا.. مما جعلنا نعتبر الحركة في التراث الغرباوي أساسية وضرورية قد عملت على تأصيل وتنويع الوعي بالعمل وترسيخ الوعي الديني والرمزي والأسطوري والخرافي والتراثي.. إلخ. حيث تضيف بنبراهيم نوال في نفس المصدر السابق الذكر، ص 330 : «وعلاوة على ذلك، فإننا لا ننسى أن حركات المريد تعكس فعلا مرئيا وحيا يقوم على قاعدة التظاهر *Faire semblant* أي أن الممثل يشخص دوره دون أن يلمس جسد زميله، إذ يتم تجسيد الصراع والضرب والصيد والتمزيق والقتل بحركات تصدر عن الأيدي والأرجل فقط فتستحضر الحكاية من البداية إلى النهاية (كالحركة التي تصدر عن اليد فتعبر عن لعب الأسود فيما بينها، أو تدل على لعب الأسود واللبؤات، كما تعني تمزيق الفريسة، أو تعرض عملية قتل الذئب).

وما يثير الانتباه أن التعبير الجسدي في هذه الفرجة يعتمد على تعبير الوجه الذي يعتبر تتمة طبيعية للحركة ويعكس شكلا فنيا حيا يستلزم الضبط والدقة »[6].

إن الاهتمام بأهمية الحركة ووظيفتها.. في الظاهرة العيساوية تحدد بشكل نسبي الفضاء أو المجال الذي تجرى فيه الحركات والأفعال والرموز.. العيساوية. فهناك من حيث المكان، الدائرة والتجمع البشري في الطبيعة التي يجذب ويتحرك.. فيها العيساوي.. وهذا ما يوحي بوجود حركية ونشاط إنساني يحاول التخلص من الطبيعة ومن أعبائها.. وذلك باللجوء إلى ما هو غيبي ورمزي وأسطوري وإلى ما هو ديني شعبي. والحركة هي رفض السكون والجمود، باعتبارها القاعدة المحورية في

هذه الحياة. والشخصية العيساوية، مثلا، تلخص لنا معنى الحركة وأهمية الحركة ودورها في ظاهرة العيساوية على جميع المستويات...!؟!

6- أهمية الحركة عند الحيوانات : البقر والغنم والخيول والحمير والبغال..إلخ.

ثمة حركات مختلفة ومتنوعة، كما هي معروفة عند الكثيرين من الناس. فالحركة / الحركات التي تحدثنا عنها لحد الآن، هي حركات إنسانية بالأساس، نابعة من وعي وإرادة.. الفعل الإنساني المتجسد في ممارساته المتعددة والمختلفة وهو يعيش في واقعه الموضوعي المتحرك. أما في هذه الدراسة سنحاول قدر الإمكان، الاهتمام بحركات كائنات حية تشارك الإنسان في مجموعة من الخصائص البيولوجية الحيوية، ومن بينها الحركة.. فالنباتات تتحرك والحيوانات هي الأخرى تتحرك.. وإن كان هناك اختلاف وتمييز في حركات الكائنات الحية...!؟!

إن الحديث عن المجتمع البدوي الغرباوي هو حديث عن وجود أرض فلاحية ووجود حيوانات مثل المعز والكلاب والقطط والطيور.. الخ. وكل هذه الحيوانات.. تتوفر هي الأخرى على حركات وإن كانت غير واعية وناضجة.. مثلما هو الأمر عند الإنسان. وهكذا فالكلاب، مثلا، تتحرك بعد التدريب على مطاردة العدو سواء كان إنسانا مثل اللص أو كان حيوانا مفترسا مثل الذئب أو الثعلب. فحركة الكلاب مرهونة بالحراسة والمحافظة على الأمن داخل الأسرة والبادية.. إنها الحركة التي تعمل على حراسة الأفراد ومصالحهم وأسرهم.. من كل خطر خارجي محتمل. أما حركة القطط، مثلا، وبعد تدريبها هي الأخرى وبالفطرة كذلك، على اصطياد الفئران، التي بإمكانها أن تشكل خطرا على ممتلكات الأسرة .. إنها الحركة الداخلية.. التي تعمل على الحراسة والمحافظة.. داخل البيوت..!؟!

وهكذا وإن كانت طبيعة الحركة عند الحيوانات التي سبق ذكرها، هنا، طبيعة فطرية وغريزية فيها، فهذا لا يعني أنها لا تكتسب حركات أخرى، مثل، صداقتها للإنسان وألفتها به وبأشياء أخرى.. إنها العلاقة المصلحية من الطرفين أي من الإنسان والحيوان. وما قلناه عن تلك الحياوانات يمكن قوله عن كثير من أنواع الطيور المتحركة هي الأخرى باستمرار في مجال المجتمع البدوي الغرباوي.. إنها علاقة الاستفادة منها : كالبيض واللحم وأكل الحشرات.. الخ. هذه الحركات وغيرها، كما سنرى، تشكل جزءا مهما وأساسيا من العمل الحركي الإنساني. هذه الكائنات الحية، جديرة بالاهتمام، في اعتقادنا، ولايمكن إقصاؤها أو إلغاؤها أو تغافلها.. أثناء الحديث عن الواقع الموضوعي البدوي.. لأنها تساعد الإنسان وتفيده.. كما يبدو ذلك من خلال أفعالها الحركية الكثيرة. وهذا ما جعلنا نهتم بها وبحركاتها، وننظر إليها على أنها كائنات حية مفيدة ومساعدة.. للإنسان. إنها إحدى العناصر الأساسية داخل النسيج العام للمجتمع البدوي الغرباوي. وهكذا فإن التذكير بأدوار هذه الحياوانات وغيرها، التي تتجلى فيها الحركات بوضوح، لها علاقةبالإنسان وبالواقع الاجتماعي والاقتصادي.. الخ. وهذا الإحساس والوعي بأهمية حركة الفعل الحيواني له ما يبرره على مستوى الواقع المعيش المتحرك.

وإذن، ليس من شك في أن الفعل الحركي الذي ما فتئت كثير من الحياوانات في البادية تقوم به، يتضمن في عمقه أهمية العلاقة الإيجابية والحركية الدياليكتيكية القائمة بين الإنسان والحيوان. هذا الإنسان الذي قام بعملية الدمج والترويض والتوليف، كما هو الأمر مثلا،

للبغال والخيول والحمير والكلاب... هذه العلاقة بين الإنسان والحيوان قد خفضت ولا شك، من حدة الصراع والخوف والتباعد والتنافر.. بينهما، وقدتجلى ذلك على الخصوص حين أصبحت هذه الحيوانات، مثلا، ضرورية في الحياةالبدوية ولا يمكن الاستغناء عنها إطلاقا في كل الأعمال البدوية والفلاحية. إنها العلاقة التي هيأت الانطلاقةالأساسية لعلاقات التعاون والتقارب في مجال الانتاج الفلاحي وفي المجال الإنساني والاجتماعي والاقتصادي.. الخ.

إن فعل الحركة الحيوانية، من حيث هو فعل قادر على تحمل الأثقال وعلى الصبرأكثر من الإنسان – في غياب الآلة - ، ومن حيث هوقدرة على العمل الشاق مثل جر المحراث أو العربة أو عملية النقل / حمل الانتاج والبضائع.. فقد حدد هذا الفعل الحركي علاقة دياليكتيكية بين الإنسان والحيوان وبين طبيعة ووظيفة كل واحد منهما وهو يمارس العمل في المجال الفلاحي وفي المجالات الأخرى.

الحركة الحيوانية وهي حركة تابعة لأهداف الإنسان، هي الأخرى شكل من أشكال الحركة/الحركات المتنوعة التي ساهمت في التحويل والتطوير والتغيير.. الذي حدث في المجتمع الإنساني على العموم والمجتمع البدوي الغرباوي على الخصوص. وهكذا ومن خلال تناولنا لبعض العلاقات الإنسانية والحيوانية في إبراز أهمية حركية الفعل، ركزنا على الجانب الفلاحي لهذه العلاقات، سواء فيما تعلق الأمر بحركة الإنسان أو حركة الحيوان.. وهذا يدعونا إلى إبراز بعض الأعمال الحركية التي تتجلى فيها العلاقة الفاعلة بين الطرفين، فما هي بعض الأعمال الحركية التي بإمكانها البرهنة والاستدلال.. على ما قلناه..!؟!

إن الجواب عن طبيعة هذه العلاقة وأهدافها، يستلزم قبل كل شيء، تقديم أمثلة توضيحية من عمق الواقع البدوي الموضوعي المعاش.. لبعض الحيوانات الأليفة عبر مجموعة من الأعمال التي تتجلى فيها الحركة بوضوح بين الإنسان والحيوان بشكل خاص ومتميز.. في مجال الفلاحة على الخصوص نظرا لطبيعة الواقع الموضوعي، ونظرا للعلاقات القائمة بينهما والتي تقدم لنا عناصر التعاون والمشاركة.. لتحويل وتطوير واستغلال.. الأرض، مثلا، في البادية.

إن الخيول والبغال والحمير مثلا.. المنظور إليها كحيوانات أليفة، عادية وطبيعية.. كانت تشكل في رأينا، أهم الركائز في الحياة البدوية في القديم، ومحاولة معرفة تاريخ هذه المنطقة الغرباوية القريب يؤكد أهمية حركة أعمال هذه الحيوانات وغيرها في حياة الإنسان البدوي وأهمية العلاقات والروابط المتينة القائمة بين الحيوان والإنسان والتي كانت تضفي على البادية المغربية بصفة عامة طابعا خاصا ومتميزا.. كانت الحيوانات السابقة الذكر تساعد الإنسان البدوي القديم بشكل كبير على عملية الحرث، مثلا، تجرالمحراث الخشبي أو الحديدي، وذلك بواسطة عمود المحراث الذي يربط بين حصانين أو بغلين أو حمارين أو ثورين.. الخ. فيشد الإنسان الفلاح / الحراث المحراث بيد والسوط بيد أخرى ليهش أو يضرب به الحياوانات، التي كانت تعرف باسم « الزوجة / الجوْجَة» أي المتكونة من حيوانين من الخيول أو البغال.. الخ. وهكذا تكون هذه الحيوانات خاضعة لسلطة الإنسان / الحراث الذي يحرث مساحات مهمة من الأرض بفضل مساعدة هذه الحيوانات. كما كانت تساعده ولازالت على حمل منتوجاته الفلاحية من حبوب وتبن وكلإ

وخضر وفواكه وكذلك في الحرث.. الخ. كما كانت تساعده كذلك على عملية دَرْس المحصولات -ولا زالت ولكنها قليلة - قبل وجود آلات الحصاد المتطورة. كما استعملها في الحفلات والأعراس والرياضة والحرب.. الخ. ومن هنا فإن العلاقات والروابط.. بين الإنسان والحيوان في الواقع البدوي كانت دائما محكومة بجدلية التفاعل الهادف والنشيط، والتعاون المشترك، وذلك من أجل سيرورة وصيرورة.. المجتمع البدوي ومحاولة الحفاظ عليه.. مما يجعلنا نقول إن الحديث عن الحيوانات وعن أهمية حركيتها ودورها.. في حياة المجتمع البدوي، سيظل كل ذلك، منعطفا هاما في ذاكرة الثقافة الشعبية البدوية على العموم، وفي ذاكرة التراث الشعبي الغرباوي على الخصوص، إذ كيف يعقل أن يقصى الحيوان من حياة البادية ومن ذاكرة تراثها وثقافتها بمجرد ظهور الآلات التقنية والتكنولوجية التي حلت محله في كثير من الأعمال التي يقوم بها في السابق...!؟!

لكن هذا لايجعلنا كذلك، لانعترف بالتقدم العلمي الذي هو حصيلة التقدم الفكري الإنساني والذي خطا خطوات مهمة إلى الأمام، وحرر الإنسان والحيوانات من كثير من الأعمال الشاقة والمرهقة..!؟!. هذا البعد العلمي قد وفر للإنسانية إمكانيات كثيرة متميزة للقيام بالأعمال في شروط مريحة وفي ظروف سهلة وسريعة.. لابد من الاعترافا بها واحترامها وتقديرها.. هي الأخرى.

وهكذا فإن حديثنا عن الروابط والعلاقات والحركات.. القائمة بين الحيوان والإنسان، هو حديث في عمق أهدافه يصبو إلى تحفيز الإنسان المغربي والغرباوي على الخصوص أن يعرف حقيقة واقعه..

كيف كانت وكيف أصبحت وما يمكن أن تصبح عليه..!؟! ولأن معرفة الحاضر بكل تشكيلاته وتشكلاته وتشعباته ومشاكله وحقائقه المتنوعة.. لايمكن أن يتم بعزل أو بتكران أوإقصاء.. ماضيه بكل بساطة..!؟! أليست معرفة التراث الإنساني ضرورية لايمكن الاستغناء عنها كليا مادام الإنسان حيا موجودا..!؟! أليس كل جديد.. هوحصيلة مجهودات قام بها الإنسان – ومن غير نسيان الحيوان كذلك- عبر المراحل التاريخية المختلفة والمتنوعة..!؟! ومن هنا تكون هذه المحاولة التي قمنا بها في مجال الاهتمام بالتراث الشعبي البدوي الغرباوي، هي مهمة تحسيس الإنسان المعاصر وبالخصوص الإنسان الغرباوي بأهمية الاعتراف بما قامت به العناصر المكونة لهذا المجتمع الغرباوي في القديم، وذلك من خلال إبراز الأعمال والمتاعب والمصاعب.. التي واجهت تلك العناصر، وهي تحاول الحفاظ على الإنسان والحيوان والنبات.. وعلى المجتمع، هنا في المجتمع البدوي الغرباوي...!؟!

وهكذا وإذا أخذنا الواقع المغربي على العموم والواقع البدوي على الخصوص كمعطى لإبراز إشكالية الهيمنة والتبعية.. وللدور المنوط به في وقت أصبحت الهيمنة الإمبريالية تشكل خطرا على كل دول «العالم الثالث» وذلك من خلال الأهداف الحقيقية التي يتضمنها مفهوم العولمة.. بحيث أصبحت الهوة تتسع وتكبر.. بين ما يسمى بالدول المتخلفة والدول المتقدمة. ومحاولة نقد وفضح زتبسيط وتقريب أخطار سياسة الهيمنة والتبعية وكل أشكال التسلط.. إلى الإنسان الشعبي في دول «العالم الثالث» يعتبر، في رأينا، منعطفا هاما في مجال الوعي العلمي بمخاطر هذه الإشكالية، التي ستأزم الإنسان المغلوب عن أمره أكثر فأكثر...!؟! ومن

هنا أهمية الوعي الناضج بهذه المخاطر التي أصبحت تهدد حياة «الضعفاء» من الناس في عصرنا المعاصر...!؟!

الفصل الثالث

الحركة في مجال الفلاحة الغرياوية

سنحاول في هذه الدراسة المقتضبة إبراز أهمية الحركة في المجال الفلاحي / الزراعي.. وتربية المواشي.. وذلك من أجل تحليل ومناقشة وتوضيح بعض القضايا التي هي في حاجة ماسة إلى الفهم والمعرفة.. في الواقع الغرباوي وفي تراثه وفي وعي ثقافته.

تعتمد الفلاحة البدوية الغرباوية على تحقيق أهدافها المتنوعة.. على حركة الحرث والزراعة والحصاد.. وكذلك السقي ومحاربة الأعشاب الطفيلية والجني.. هذه العناصر وغيرها في مجال الفلاحة تتضمن أعمالا وأفعالا.. حركية دينامية مادية ومعنوية.. وبذلك تكون الفلاحة قد لعبت دوراً هاما في الواقع الموضوعي الغرباوي، حيث عمل معظم سكان هذه المنطقة الغرباوية على تعلم واستيعاب الثقافة الغرباوية ليتسنى لهم معرفة مختلف عناصر هذه الحياة البدوية الغرباوية وثقافتها، مثل، الحرث والزراعة والسقي والجني وتربية المواشي.. الخ.

وهكذا تبلورت لدى الأغلبية من سكان هذه المنطقة معرفة فلاحية.. منبثقة من الثقافة الحية والمعيشية.. لمواجهة المشاكل الاجتماعية والاقتصادية وللمحافظة على استمرارية الحياة الغرباوية ودورها في التنمية المحلية والوطنية.. الخ.

وترجع قوة شخصية الإنسان الغرباوي ومدى صبره وديناميته وحركيته وأنشطته المتعددة.. إلى الوسط الذي نشأ فيه والذي يتسم بمحاولته تسخير الطبيعة لمصلحته.. ومن غير شك فقد اكتسب تربية قوية ومتحركة ومستمرة من الفلاحة.. التي تقوم على الحركة الدائمة.. مما يجعلنا لا نستغرب من الإنسان البدوي الغرباوي باعتباره متحركا وقويا وصبوراً متحملا.. من جهة، ومن جهة أخرى هادفا إلى تغيير الطبيعة

وتطويرها وتحويلها وتسخيرها، وذلك لخلق مجتمع قوي قائم على أسس أخلاقية ودينية وعملية متينة، تتجلى في التماسك والتعاون وفي الإيمان بالله وفي الحب المتفاني للأرض وللماشية...!؟!

ولأداء رسالته الإنسانية، وكذلك من أجل تحقيق أهدافه وطموحه وهو يعيش في واقع بدوي ذي طبيعة فلاحية، كان عليه أن يتحلى -كما قلنا- بالعمل الدؤوب وبالحركة الدائمة وبالصبر الشديد.. فقد وقف في وجه مخاطر الطبيعة التي شكلت عليه تهديدات مستمرة.. انطلاقا من محنته مع الفيضانات إلى الجفاف فالمشاكل الاجتماعية والاقتصادية والسياسية.. التي فرضتها عليه التحولات والتطورات والتغيرات المتبلورة في صعوبة العيش ومواجهة الحياة المعقدة، ومع ذلك، ظل صبورا ومتحملا.. لكل ما يفرض عليه وما يواجهه ...!؟!

إن الإنسان البدوي الغرباوي / الفلاح.. يقدم إلينا صورة صادقة عن الصراعات والمواجهات.. التي يعاني منها في الواقع المعيش، تلك الصراعات والمواجهات والتحملات التي تقربنا إلى فهم ومعرفة.. الحياة المعقدة والمتشعبة هناك. وهكذا يصبح الحديث عن التحولات الراهنة في الواقع البدوي الغرباوي المتحرك يطرح مجموعة من الأسئلة والتساؤلات حول الإنسان والمجال والاستقراروالجدوالكسل والاتكال والحركة والجمود النسبي. من هنا تصبح دراستنا لأهمية الحركة بالنسبة للواقع الموضوعي.. بما في ذلك الإنسان الغرباوي، من الضروري أن تنطلق من طبيعة الممارسة اليومية لهذا الإنسان أي من طبيعة أعماله، المختلفة الأشكال والمتعددة الأهداف والغايات.

ومن غير أن نجهد أنفسنا للبحث عن العناصر الأساسية التي تشكل طبيعة ممارسة / أعمال الإنسان البدوي` الغرياوي، نلاحظ أن هناك علاقة ديالكتيكية أساسية قائمة بين الواقع الموضوعي المتحرك وطبيعة الإنتاج المتنوع، ذلك أن كل عمل يقوم به الإنسان الغرباوي في عمق واقعه يكتسي طابعا فلاحيا.. كما يكتسي في نفس الوقت طابعا متميزا في تربية المواشي والدواجن.. باعتباره استجابة لمتطلبات ومعطيات هذا الواقع المعاش. وفي هذا المستوى فإن العمل البدوي الغرباوي يتخذ بالأساس طابعا حركيا ديناميكيا نشيطا، باعتباره يشكل مبدأ جوهريا لبلورة الانتاج وتطويره ما أمكن، وإن بشكل تقليدي أكثر منه عقلاني حداثي، بالرغم من اعتماده عل الآلات التكنولوجية المتطورة وعلى المواد والتجارب والخبرة.. العلمية. وبذلك كان هذا المستوى من العمل الإنساني البدوي الغرباوي من أهم الوسائل الديناميكية التي لعبت دوراً إيجابيا في تطوير الحياة الفلاحية البدوية وإن بشكل لا زال يعاني من التخلف والمشاكل والصعوبات والعوائق.. مما وقف حاجزا قصد عدم التمكن من الوصول إلى ما وصلت إليه المجتمعات المتقدمة في المجال الفلاحي والانتاجي والاقتصادي والاجتماعي..!؟!

إن أهمية الحركة في العمل البدوي الغرباوي رهينة بعنصرين أساسيين مرتبطين : أولهما الواقع الموضوعي المتحرك.. الذي تمارس فيه كل الأعمال المختلفة، وثانيهما التكوين الذاتي للإنسان البدوي. فعلى سبيل المثال فإن عملية الحرث والزرع والحصاد.. تقوم بها فئة متميزة ومحنكة.. اكتسبت تقنية هذه الأعمال من واقع الحياة البسيطة المعيشة ومن الحاجة / المنفعة المباشرة، وليس بواسطة نظريات عملية مقننة

ومدققة. هذه الفئة المتمرسة بواسطة مهارتها البسيطة المكتسبة من العمل والتجربة اليومية، تشكل القناة الاجتماعية التي تزود المجتمع البدوي بأطر المستقبل في كل المجالات المختلفة.

وهكذا فإن الاهتمام بالتطور التاريخي للأعمال النشيطة والمنتجة في الواقع الغرباوي تظهر أن الممارسة اليومية البسيطة قد نشأت وتطورت.. مع طبيعة الواقع الفلاحي من جهة، وطبيعة الحياة الإنسانية العامة ومجالها من جهة أخرى. فشق الأرض حركة،. كما أن التحكم في المحراث التقليدي وفي الماشية التي تجره.. والتحكم في الجرار الحديث.. يقتضي كل ذلك خبرة إنسانية مكتسبة بشكل من الأشكال.. ذلك أنه من الصعب أن يقوم إنسان عادي ليست له دراية وتجربة ومعرفة في مجال الحرث بهذا العمل الذي يتطلب حركة جسدية وحركة عقلية. كذلك عملية الزرع والتي تتطلب حركة الجسم بكل أعضائه وبالأساس حركة اليدين والتركيز والانتباه. كما أن الحركة، أيضا تعتبر القاعدة الأساسية لتحقيق عملية الحصاد.. هذه العملية المتبلورة في نشاط الجماعة والفرد.. المكتسبة بدورها من الممارسة العملية اليومية.. البسيطة والعادية. وأهم ما تتسم به عملية الحصاد هو أنها نشاط إنتاجي مادي حركي وحيوي.. وكذلك نشاط وعيي وتراثي.. تتداول فيه الأغاني الشعبية، وذكر الله والنبي في لحظات معينة، مثل ترديد الحصادة : «اللهم صل عليك أرسول الله» عدة مرات.

لا أحد يشك، اليوم، بأن كل شكل من الأشكال الثقافية التي عرفتها الإنسانية عبر الأزمنة والأمكنة المختلفة، لها منظوماتها المرجعية ووسائلها وطرقها الخاصة بها وهي تواجه حياتها. هذه الحقيقة

تنطبق على الثقافة البدوية الغرباوية المتميزة بالعمل الديناميكي المتميز والمنتج. ومن أجل ذلك، فمن أجل فهم ومعرفة طبيعة حركة العمل وطبيعة الوسائل والتقنيات والطرق المستخدمة في ذلك، علينا الرجوع إلى الاهتمام بهذا الواقع بحثا ودراسة وقراءة.. بطرق واعية ومتسائلة وناقدة.. ذلك أن الحياة لا تعرف منطق التوقف بقدر ما تقوم في جوهرها على منطق الحركة والتحول والتغير والتطور.. باستمرار..!؟!

ومن الجلي إذن، أن الأعمال التي يقوم بها الإنسان البدوي الغرباوي تظل قائمة على مبدأ الحركة والتطور.. كما نجد ذلك على سبيل المثال لا الحصر، في عمليات غرس الأشجار وجني محاصيلها وفي العلف والبحث عن الكلأ للماشية.. الخ. وهكذا تكون أهمية الحركة في مجال الفلاحة وفي مجال الحياة البدوية على العموم، سواء أكانت حرثا أو زراعة أو تربية أو جنيا أو سقيا.. الخ، إنما هي في الحقيقة خلاصة ونتيجة حيوية ودينامية الإنسان البدوي الذي تربطه علاقة أساسية وواعية مع الأرض وحبه الكبير للأرض التي يمارس فيها أعماله ويحقق فيها أهدافه ومقاصده.. ومن هنا تتوطد كذلك علاقته بالوسط الذي يمارس تأثيره على تلك الأعمال وغيرها بطريقة دياليكتيكية. ومن ثمة يكون نسق العلاقات التي تشكل فضاء المجال للواقع البدوي الغرباوي هي التي تساعدنا على تفسير وتوضيح وفهم ومعرفة.. هذا الواقع، وذلك من خلال التفاعل القائم بين الإنسان والمجال والعمل.. والذي يتجلى بصورة واضحة ودقيقة في مجالات الصراع من أجل تحويل الطبيعة وتسخيرها لمصلحة الإنسان بواسطة الحركة والعمل الهادف والواعي.

إن الفعل الفلاحي الحركي يشكل القاعدة الأساسية في الحياة البدوية الغرباوية كما يطرح كذلك، مجموعة من المشاكل والصعوبات النابعة من طبيعته وطبيعة الواقع البدوي الغرباوي، باعتباره مجالا واسعا يتضمن الأغلبية الساحقة من السكان الفاعلين فيه. وهذا ما جعلنا نركز اهتمامنا بالأساس على أهمية الحركة في المجال الفلاحي البدوي الغرباوي، القائمة بين مكونات هذا الواقع الموضوعي المتحرك بدون انقطاع..!؟!

أما المشاكل والصعوبات.. فقد تجلت في مدى مواجهة الإنسان الغرباوي للكوارث الطبيعية مثل الفيضان والجفاف.. وكل المشاكل الإنسانية والاجتماعية والاقتصادية.. المترتبة عنها، مثل الديون (القرض الفلاحي) واستغلال الانتاج الفلاحي من طرف الجمعيات والمعامل.. الخ. التي أصبحت تشكل عنصرا خطيرا في تضخيم وتعقيد الأزمة هنا، بصفة عامة.

وهكذا فإن حصيلة ما سبق – وغيره – تفسر الأسباب والعوامل الكامنة وراء الأزمة الفلاحية من جهة، وتعقيد الحياة في الواقع البدوي الغرباوي من جهة ثانية.. وهو ما أصبح يطرح بدوره مجموعة من الأسئلة والتساؤلات على السكان والمسؤولين.. من أجل إيجاد حل لهذه الأزمة العامة. وهكذا وبعد استعراضنا لبعض القضايا والمشاكل.. المرتبطة بالفلاحة في هذه الدراسة التي عملنا فيها، حسب قدرتنا في التحليل والمناقشة والتساؤل والنقد.. على تحليل ومناقشة أهمية الحركة كقاعدة أساسية في كل عمل بدوي غرباوي، ومدى انعكاسها على الواقع الموضوعي بصفة عامة والواقع الإنساني والاجتماعي بصفة خاصة. مما

يستدعينا كذلك إلى الاهتمام بالمجال الصناعي البدوي الغرباوي، وذلك بالاعتماد على بعض النماذج التي سنعمل من خلالها هي الأخرى، على إبراز أهمية الحركة في المجال الحيوي الهام.. في حياة الإنسان البدوي الغرباوي.

إن السؤال الجوهري يتلخص في : لماذا عرف العالم في هذا العصر، تقدما ملموسا في العلم والتقنية والتكنولوجيا.. مما كان له تأثير على المجتمعات التي لا زالت تعاني من التخلف، بل لقد أصبحت تعاني أكثر فأكثر، في مجالات أخرى، مثل الحروب والجوع والمرض والبطالة والأمية..!؟!

كان من المفروض أن يحرر هذا التقدم العلمي والتقني والتكنولوجي.. الإنسانية مما تعاني منه على جميع المستويات وفي مقدمتها الاستعمار والاستلاب والهيمنة والتسلط بكل أنواعه.. لكن ما يلاحظ هو شيوع ظواهر سياسية وثقافية واقتصادية.. مضادة للديمقراطيةالإنسانية والمجتمعية.. الفعلية وضد كل محاولة هادفة للتحرر من التبعية والهيمنة.. من قبضة الإمبريالية !؟!

هذا الطرح الإشكالي الواعي والهادف.. المتسائل والناقد.. يهدف إلى إحداث مقارنة بين ما كانت عليه العلاقات الإنسانية والاجتماعية.. بين الناس وما أصبحت عليه (الآن).. هذا لا يعني الدعوة إلى الرجوع للعيش بنفس الطرق القديمة.. بل إنه دعوة صريحة للإيمان بالعلم أكثر والتقدم والتطور.. في مصلحة الإنسانية جمعاء وبدون تمييز وعنصرية.. لتفادي الكوارث التي أصبحت تهدد الإنسان والإنسانية في كل لحظة..!؟!

أهمية الحركة في تصنيع الطين والنسيج :

عرفت الحياة البدوية الغرباوية في الماضي عدة إنتاجات وصناعات يدوية وفكرية متطورة حسب العقلية البدوية الغرباوية التي كانت سائدة، هذه الحركة الصناعية الإنتاجية للإنسان الغرباوي مست مختلف المجالات وجوانب الفعل الإنساني الغرباوي داخل واقعه الموضوعي المعيش. هذه الحياة الديناميكية / الحركية.. تبرز بوضوح أهمية حركية الإنسان الغرباوي، كذلك، في المجال الانتاجي / الصناعي للصانع والمنتج الغرباوي في ذلك الوقت... !؟!

ويمكن حصر هذه الظاهرة الإنتاجية والفنية.. في بعض الأهداف والأبعاد.. عاملين من خلالها إلى إبراز أهمية الحركة في الفعل الإنتاجي / الصناعي، وذلك من خلال مهارة الصانع الغرباوي.. برؤية مكملة لما تطرقنا إليه في المجال الفلاحي والمجالات التراثية الأخرى. هذه الظاهرة الدينامية والانتاجية.. قد همت الحياة البدوية الغرباوية المتميزة، بالأساس، كما كان لها تأثيرها الكبير على استمرارالحياة، هنا، ومواجهة الطبيعة، وذلك باستفادة الإنسان البدوي الغرباوي من هذا الإنتاج المحلي الهام، الذي بدأ بدوره يختفي شيئا فشيئا عن الحياة البدوية العامة، التي أصبحت تعيش إشكالية عويصة في هذا المجال الإنتاجي الصناعي الحيوي...!؟!

إن ما نقصده في هذه الدراسة بالمجال الصناعي الإنتاجي.. ليس المجال التقني والتكنولوجي بالمفهوم المعاصر، وإنما به هو العمل الإنساني الذي يبرز بشكل من الأشكال في الواقع البدوي الغرباوي القديم، من خلال التشكل الاجتماعي الغرباوي قبل دخول الاستعمار إلى المغرب وإلى

منطقة الغرب بصفة خاصة.. إنه يعني بكل بساطة الإنتاجات المتنوعة والمختلفة التي أنتجها الإنسان البدوي الغرباوي لمواجهة قساوة البرد، مثلا، فوجود مادة الصوف قد فتحت المجال أمام الصانع الغرباوي وبالأساس المرأة إلى إبراز إمكانياتها وتقنياتها ومهارتها وجودتها وصبرها.. وهي تغسل الصوف وتنقيه وتغزله وتصنعه.. ويتميز هذا العمل الحركي للمرأة –كما رأينا في الجزء الثالث من كتابنا هذا – في كونه يهدف إلى سد الحاجة الداخليةوحماية أفراد الأسرة والعائلة والدوار.. أكثر من التصدير إلى جهات أخرى.

إن العمل الصناعي / الإنتاجي سواء تعلق الأمر بالنسيج أكان صوفا أو دوما أو نباتات أخرى كـ «السمار» أو «القصب».. الخ. أو بالطين هو في عمقه عمل يقوم على الحركة المتنوعة، متخذا طابعا محليا واستهلاكيا.. ولكنه طابع مبدع ومحافظ.. في نفس الوقت. وهكذا يظهر ارتباط الانتاج بالمجتمع البدوي الغرباوي في مجال النسيج، في كونه العمل الهادف إلى المحافظة على استمرار الحياة البدوية وكذلك على تطويرها الذاتي، وقد اتخذ هذا الطابع وفق الضرورة الإنسانية والاجتماعية.. كما يتجلى في نسيج كل أنواع الألبسة والأغطية والأفرشة.. المذكورة في الجزء الثالث من كتابنا : من وحي التراث الغرباوي.

إن بنية النظام الصناعي / الإنتاجي، إضافة إلى أهمية الحركة القاعدة العامة للحياة البدوية الغرباوية، قد تشكلت من مجهود أعمال الإنسان البدوي الغرباوي وهو يسخر الطبيعة لمصلحته ويواجه مصاعب الحياة لاستمراره. ولكن المجتمع البدوي الغرباوي نظرا لثقل تأثير

المشاكل الداخلية والخارجية.. الذاتية والموضوعية، فقد أصبح يعاني من الاستغلال والهيمنة والتهميش والتقهقر.. كما بدا واضحا في مجال النسيج بمفهومه العام، إنه تأثير هيمنة النظام العالمي الجديد وانعدام القدرة على مواجهته بالإبداع والإنتاج والإختراع والعمل والتشجيع والدعم.. كما كان الأمر من قبل..!؟!

وإذن، فإن العمل الإنتاجي.. البدوي الغرباوي، قد شكل مكسبا أساسيا من المكاسب التي حققتها الأعمال والممارسات.. التي قام بها الإنسان البدوي وبالأساس المرأة الغرباوية بالرغم من المشاكل التي كانت —ولا زالت- تواجهها في هذا الواقع المعيش. وهكذا ومن أجل إبراز البعد الحقيقي الفعلي لما أنجزته المرأة في ميدان النسيج وميدان الطين، لابد من أن نتساءل عن موقع ووضعية هذه المرأة وعن طبيعة وحدود.. حركتها وهي تنتج وتبدع.. !؟!

الجواب النسبي والموضوعي في رأينا، عن هذه التساؤلات، بإمكانه، كما نرى، أن يحررنا من التصور القديم، السطحي والمتعصب والغير عادل.. للمرأة، هذا التصور.. الذي لا زال يعشعش في عقلية كثير من الناس. فعادة ما تفهم وتعرف المرأة على أنها ذاك الكائن الذي يجب أن يقتصر عمله على التربية والطبخ وتلبية مطالب الرجل وعدم الاهتمام. والقيام بالأعمال الخاصة بالرجل كالسياسة والرياضة والتسيير.. الخ. غير أن الفهم والمعرفة العلمية للمرأة وللوظائف الحقيقيةالتي تقوم بها لا يتأتى كل ذلك إلا بالنزول إلى الواقع الموضوعي والتأكدمما يجري فيه، وكيف تتحرك فيه المرأة !؟! وكيف تبدع وتنتج وتعمل..!؟!

هذا يعني أن أهمية حركةالمرأة/عملها وإنتاجها.. لايمكن معرفته والتحقق منه إلابالنظرة الشمولية المتحررة والمتفتحة وليس من خلال النظرة الضيقة والمتعصبة ذات البعد الواحد، وذلك بإبراز الحركةالنسائية بشكل شامل ومرتبط بالواقع الحي المعيش. وهذه بعض الأعمال التي يتميز بها العمل النسائي المتحرك.. ويظهر ذلك من خلال موقع أووضعية المرأة داخل البيت الذي يعتبر فضاؤه_في الغالب_ مغلوقا وضيقا..!؟!. فبالرغم من أن المرأة داخل البيت تعمل وتتحرك وتنتج .. فإنها توجد في وضعية شبه ثابتة.. فالقيام بالأعمال داخل المطبخ، مثلا، تجري في مكان محدد والذي يقتضي الوقوف أوالجلوس.. وتحريك اليدين أكثرمن الرجلين.. فهي تطبخ واقفة وتخبز أوتعجن وهي جالس.. وتكنس/تنكس وهي منحنية وتحلب وهي جالسة.. الخ. مثل هذه الأعمال النسائية داخل إطار ضيق الذي هو البيت.. يعيق من أهمية الحركة بمفهومها العام التي يتحرك فيها الجسم بكل أعضائه بطريقة متحررة من بعض القيود التي تقف حاجزا لبلورة وعيها العلمي الإنساني والإجتماعي. كما يبرز كذلك في عملية النسيج.. فالمرأة تغسل الصوف وهي واقفة أومنحنية.. في مكان معين، مقتصرة_ في الغالب_ على اليدين فقط في عملية الغسل هذه.. كما تنظف وتغزل.. الصوف وهي جالسة إلى الأرض. كما أنها لاتفصل بين الأعمال المنزلية الداخلية وبين الأعمال الإنتاجية الصناعية. وهكذا فبالإضافة إلى اهتمامها بالصوف الذي تصنع منه كثيرا من الأشياء الضرورية للحياة الإنسانية.. فإنها تقوم كذلك بإنتاج أدوات الطبخ الطينية الصالحة للأكل والشرب.. الخ. وكنتيجة لهذه الأعمال _وغيرها_ المتنوعة والمختلفة التي تقوم بها المرأة في القديم الغريب،

تدل على مدى أهمية وظيفتها ودورها في مجال الحياة البدوية الغرباوية.. وذلك من خلال منظور إنساني لايخلو بدوره من إيجابيات وسلبيات..منظور يبرز لناحركة المرأة المنتجة والصانعة والعاملة والمبدعة من جهة، ومن جهة أخرى يوضح لنا موقع تحركات/ حركات هذه المرأة العاملة، وهذا لايعني أن المرأة لاتعمل ولاتتحرك..خارج البيت بل بالعكس من ذلك، إنها تصاحب الرجل في كل الأعمال الخارجية..!؟!

ومن هنا لانبالغ إذا قلنا إن كثيرامن الدراسات والأبحاث.. في المغرب لم تبذل لحد الآن مجهوداكبيرا لمعرفة الأسباب الحقيقية لوضعية المرأة البدوية، ولما أنتجته من إنتاجات مهمةضرورية.. إنها تجربة إنسانية تستحق الاهتمام والتنويه والتقدير.. على المستوى الفعل وعلى مستوى التنظير. وهكذا وباسم الحداثة والعصرنة والعولمة.. التي مارست ضغوطها وبسطت نفوذها وهيمنتها وتسلطها على شعوب «العام الثالث» قد أعاق كل ذلك وشل من حركة الإنتاج التقليدي الذي أصبح يعاني من التهميش والمحاصرة والتغريب حين أصبح إنسان «العالم الثالث» ضحية التبعية والاستهلاك المجاني والمسموم...!؟!

وهذه النظرة تندرج في إطار الموقف المثالي الضيق والمتعصب..
- كما قد يعتقد- وإنما في إطار مفهوم الواقع الموضوعي الحركي لحركة العلم على المستوى الإنساني. إذ كيف يعقل، القضاء على عمل حركي إنتاجي ضروري ومفيد وإيجابي.. عمل ذاتي ومحلي.. من غير التفكير في تطويره وتنويعه وتجديده.. على حساب إنتاج إستهلاكي واستغلالي.. يشجع على التبعية ويناصر الهيمنة ويؤيد القمع والتسلط.. وذلك باسم الحداثة والعولمة..!؟!

وهكذا شكلت تجربة الأنسان الغرباوي القديم في مجال الأنتاج الصناعي اليدوي وفي مجالات أخرى، نمودج الوعي الناضج والهادف إلى مد المجتمع البدوي بالإمكانيات الضرورية للعيش والاستمرار في الحياة بالاعتماد على الذات أكثر من الاعتماد على الآخر..!؟! إنها محاولة واعية قدر الإمكان من أجل فرض الذات من خلال بعض الوسائل والأدوات والإمكانيات.. المتواضعة،مما ترتب عنها كذلك، إنتاج متواضع بدوره على مستوى الاكتفاء الذاتي!؟!

إن العمل الإنتاجي الحركي النسائي كان مصاحبا_كما قلنا_للعمل الدينامي الرجولي تقريبا، في كل المجالات بالرغم من اختلاف الفضاءات في كثير من الأحيان وتوافقها في بعض الأخر، كما هوالأمر بالنسبة للنسيج وصناعة الطين.. مثلا. وهكذا، وبالمثل، فإن عمل الرجل الغرباوي للحركة الإنتاجية الاستهلاكية.. كان يتم هوالآخر بطريقة واعية منبثقة عن الثقة في النفس لتحقيق مايحتاج إليه الفرد والجماعة داخل الأسرة أوالدوار أوالقرية..، لأنه كان يفرض نفسه كضرورة حيوية لمواجهة الأخطار الطبيعة وكثقافة لإثبات الذات وللمحافظةعلى الهوية.. وكحق من حقوق الإنسان البدوي من أجل الدفاع عن حريته وكرامته.

وإذا كانت المرأة البدوية الغرباوية قد قامت بأعمال متنوعة ومختلفة اتسمت بالحركة كمبدأ أساسي وجوهري داخل منظومة مرجعية خاصة جعلتها تتميز في حركاتها وفي إنتاجها.. فقد نجد كذلك الرجل البدوي الصانع.. موجودا في هذه المنظومة المرجعيةالمتعلقة بصناعة النسيج والطين.. وهذا ما يجعلنا نقول بأنه بالإضافة إلى الأعمال التي كان

يقوم بها خارج البيت.. فإنه لم يكن مجرد متفرج على ما تقوم بهالمرأة وحدها في مجال النسيج مثلا، بل إنه شاركها وعمل على بلورة هذا العمل الإنتاجي وأبدع فيه وطوره.. حين حوله من نسيج الصوف إلى نسيج القصب والدوم والسمار.. فصنع أدوات للعلف (العلافة) وأدوات لحمل البضائع (الشواري) الذي يحمل على ظهر الحمير والبغال والخيول.. كما صنع من القصب السلل / سلة.. وصنع من الدوم (الشريط) وهو نوع من الخيط النباتي استخدمه في البناء وفي الحرث وفي جر العربات.. كما استخدمه في ربط الحيوانات وفي نسج الحصير.. الخ. كما نسج القصب في سقوف البيوت وفي زرائب المنازل وفي محلات للحيوانت والطيور.. وقد تفنن في ذلك كثيرا...!؟! كما صنع من الطين الجرات والقدرات والأواني.. المختلفة والمتوعة.. للشرب والأكل..!؟!

وهكذا، كان الحديث عن حركة الواقع الموضوعي بمؤسساته وتصوراته وعاداته وتقاليده.. هي التي تفرض على الرجل معاملة زوجته بما يفرضه عليه واقعه حتى لا يفقد رجولته...!؟! كما اشتهرت المرأة البدويةالغرباوية كذلك بتهييئ أكلة "الرزيزة" وهي نوع من العجين الرقيق الملتوي مثل "رُزة" / قبعةالرجل الملتوية فوق رأسه، وتسمى كذلك بالشدادة والتي تستعمل كذلك من طرف المرأة. وقد كان يشترط في العروسة /الزوجة إتقان هذه الأكلة (الرزيزة) لكي يتفاخر ويتباهى زوجها بها في الأعياد والمناسبات والحفلات والولائم..!؟!

وبذلك، تكون الحياة البدوية الغرباوية هي حياة متميزة بتنوع الحركات واختلافها.. حسب اختلاف المجالات المتعددة والمواضيع الكثيرة المتنوعة.. وبطلها الإنسان البدوي الغرباوي.

حركة الطبيعة :

هل بإمكاننا أن نتحدث عن حركة الطبيعة وحركات الأجسام الطبيعية...!؟! هل تتم بنفس الكيفية التي تتم بها الأجسام الحية الأخرى التي تطرقنا إليها في السابق.. أم أن هناك اختلافا وتميزا.. !؟!

من المؤكد أن الطبيعة ذات حركة طبيعية تتلخص في التحولات والتغيرات والتطورات.. التي تعرفها باستمرار.. ولكن كيف يمكن توضيح ذلك من خلال ما تقدمه لنا الطبيعة من مناظر ومشاهد وتحولات وظواهر.. طبيعية وإنسانية وفكرية وعملية..!؟! هل يمكن الحديث كذلك عن الموسيقى الطبيعية والرقص الطبيعي واللغة الطبيعية.. الخ، والتي تبدو من خلالها.. أهمية الحركة الطبيعية..!؟!

في إطار هذا الطرح الإشكالي ومن خلاله نحاول أن نتلمس الطريق نحو محاولة فهم حركات الطبيعة أو مكوناتها، وذلك من خلال الواقع الموضوعي المادي البدوي الذي يحتل مكانة متميزة في هذا الطرح الإشكالي. إنني ما زلت أعود بذاكرتي الحية والمتحركة، وأنا طفل صغير، للتأثير الكبير الذي كان يحدثه في نفسي جمال الطبيعة الصافي وتحولاتها من خلال فصولها الأربعة..!؟! وأنا أتجول في حقولها الشاسعة وأنتعش من هوائها الصحي الطلق والصافي.. الذي كانت تتمتع به البادية قبل أن تتلوث..!؟! بالرغم من أن الحركات في الطبيعة للموجودات الطبيعية.. تفقد منطق الحركات الإنسانية الإرادية والواعية.. لأننا في حركة الطبيعة نتعامل مع حركة مدرَكة حسيا.. في مكان مادي ومن خلال صور ومشاهد.. متحركة باستمرار بشكل طبيعي وأخرى بشكل اصطناعي..!؟!

ما أجمل أن تتمتع بجمال تساقط المطر، وأن تجري بحثا عن مكان تحتمي فيه كي لا تزداد ثيابك تبللا.. ولا تتعرض لعقاب بسبب ذلك ؟

ما أجمل أن تشاهد منظرا فذًا جميلا تحت سفح جبل مكسو بالثلوج الناصعةالبياض والتي ستتحول في وقت آخر إلى مياه تنساب وتجري.. لتملأ الأنهار والبحار والسدود والبحيرات..!؟!

ما أجمل جمال المناظر والمشاهد والأشياء.. التي تجيئ مع حلول كل فصل من فصول السنة.. جمال النباتات والأزهار وأغاني الأشجار.. في فصل الربيع تحرك وجدان الإنسان.. وتنعش حياة الحيوان.. إنه الإحساس والشعور بالحياة الجميلة المتحركة باستمرار..!؟!

ما أجمل أن تتعلم لغة الطبيعة المتحركة.. حتى تتمكن من حركة الغناء مع أشجارها وطيورها وريحها ونسيمها وهوائها.. وحتى تتمكن من حركة الجري بحرية مطلقة في حقولها الشاسعة والتمتع بمناظر جبالها وأنهارها وغاباتها.. التي لا تعرف التوقف أبداً..!؟!

إلهي ما أعظمك.. سبحانك.. سبحانك.. ما أعظم شأنك.. وأنا أتمتع بمشاهدة دوران الشمس والقمر.. وحركات الكواكب.. في فضاء شاسع الأطراف..!؟! كم تمنيت أن أكون أحد الرواد.. رواد الفضاء لتتضح لي الرؤية أكثر.. !؟!

أنا الفلاح الذي أحوِّل الأرض بعد الحرث والزرع.. إلى بساط أخضر جميل.. ترتاح العين لرؤيته وتهدأ آلام الجسد العليل الحزين..!؟! علاقتي بالطبيعة علاقة حركة وتحول مستمرة.. !؟!

إن السؤال الواعي والناضج لحركة الطبيعة، لايطرح كإشكال للفهم والمعرفة والاهتمام.. بالنسبة للإنسان العامي، وهذا راجع إلى رؤيته البسيطة إلى الطبيعة وإلى الأشياء والتي يعتقد -من خلال فهمه البسيط- بأنها ساكنة لا تتحرك.. على عكس ما نجده عند العارف والعالم.. الذي يهتم بحركتها وبحركة أجسامها.. هادفا من وراء ذلك فهمها ومعرفتها وتسخيرها لمصلحة الإنسانية.

وتتجلى هذه الحركة – كما قلنا- من خلال أعمال الفلاح التي لا تخلو بدورها من الحركة، فنجده بالرغم من عدم اهتمامه بمفهوم الحركة العلمية.. يساهم مساهمة فعالة وحركية، وهو يعمل في واقعه البدوي لتحويل وتطوير.. الطبيعة لمصلحته كإنسان.. باعتبار هذه الأعمال الحركية في الطبيعة، هي أعمال نابعة من عمقه ومن واقع تربيته وممارسته ورؤيته الوجودية واليومية.. مما جعلنا نرى بأن العلاقة بين الفلاح وأعماله الحركية وحركته الدؤوبة لاستغلال الطبيعة وتسخيرها وتحويلها.. ليست علاقة تناقض بقدر ما هي علاقة تفاعل وبناء. أما الحركة في الطبيعة -كما قلنا- فتبدو من خلال التحولات الطارئة والحاصلة في الفصول الأربعة، مثلا، وكذلك في تعاقب الليل والنهار.. حين يتحول العالم المادي الموضوعي من حالة نور وضياء.. إلى حالة ظلام دامس...!؟! أو إلى حالة ليالي مقمرة.. حينما يتحول هذا المادي من البرودة القاسية إلى الحرارة القائضة.. وحينها تتحول الجداول إلى أنهار.. والأشجار إلى أخشاب أو أوراق..!؟!

وكان الإنسان ولا زال يشكل المحور الأساسي في الكثير من هذه التحولات الطبيعية المتحركة.. هذا الإنسان تعامل مع الطبيعة

المتحركة بطريقة شبه آلية أي بطريقة فطرية وغريزية.. لكنها لا تخلو من أهداف واعية..!؟!

وبالرغم من أن الطبيعة تحتوي على حركة ذاتية وأخرى موضوعية واصطناعية.. فإن عقل الإنسان البدوي الغرباوي.. لا زال يتعامل معها ومع ظواهرها ومع ما يحدث فيها.. تعاملا صدفويا أو أسطوريا وطقوسيا أو دينيا.. في غالب الأحيان.. مما يوضح عدم تمكنه من فهمها ومعرفتها.. المعرفة العلمية والعقلية المتفتحة والمنفتحة.. بل الغريب والعجيب من ذلك، هو أنه لا زال يعتبر نفسه الوحيد الذي يفهم ويعرف.. كيف يفلحها وكيف يزرعها وكيف يحدد فصولها ويوضحها..!؟!

وهكذا وبسبب هذا الارتباط المتين.. القائم بين الإنسان البدوي والطبيعة.. فإن حركاته وتحركاته.. هي حصيلة ما يمكن أن يحدث في الطبيعة التي تغذى في تكوينه من مكوّناتها ومن كل ما يمكن أن يوجد فيها.. بطريقة دياليكتيكية واعية وغير واعية.. ظاهرة وباطنة.. حركية وميكانيكية..!؟!

ومن هذه العلائق والروابط بين الإنسان البدوي والطبيعة.. تتجلى للواعي الشغوف بها على جميع المجالات والمستويات.. أهمية الحركة القائمة بينهما والتي تعتبر كذلك امتدادا لذاكرة مشتركة ومترسخة في ذاكرة هذا الإنسان العاشق الولهان للطبيعة ولكل ما يجري فيها. هذه الأشياء وغيرها تساعدنا ونحن نبحث في الواقع الموضوعي البدوي عن سر هذه العلاقات والروابط.. على إدراك ومعرفة ما هو أعمق وأبعد.. من المظاهر والمشاهد والصور.. التي يمكن أن ينظر إليها ببساطة وبعفوية واعتباطية.. وذلك باختراق الإطار النظري العادي الذي تعوّده الإنسان

العادي/العامي -أو بادئ الرأي.. في نظرته إلى الطبيعة وعلاقته بها.. وهذا بإمكانه أن يمدنا بوعي عميق ومعمق وناضج.. ونحن نخوض في محاولة البحث عن أسرار الطبيعة وعلاقة الإنسان بها.. لمعرفتهما المعرفة النسبية والهادفة إلى تنشيط النتائج العلمية التي ساهم بها الإنسان عبر مسيرته الطويلة ليفك ويفسر ويوضح.. مجموعة من الألغاز التي كانت تحير الإنسان منذ القديم...!؟

وإذن.. للعلاقات الترابطية القائمة بين الإنسان البدوي/الفلاح والطبيعة أهمية كبيرة لمعرفة المكانة الضرورية التي تحتلها الحركة/الحركات في هذه الحياة المشتركة والتي تتجلى من خلال مجموعة من الحقائق والصور والمشاهد.. في الواقع البدوي المعيش، والتي يمكن أن نلتمسها بشكل واضح بسيط ونحن نعيش في أحضان الطبيعة ونتمتع بصورها الواضحة والجميلة..!؟

ونرى في خلاصة هذا البحث المتواضع، الذي يشكل محورا من المحاور التي تشكل منها بحثنا العام للتراث البدوي الغرباوي والذي ركزنا فيه بالأساس على مشرع بلقصيري وضواحيه.. هادفين من ذلك تجاوز مجموعة من العقبات التي اعترضتنا ونحن نخوض في تراث ظل مغمورا ومهمشا زدحا من الزمن لا يستهان به. وكان سندنا القوي في ذلك، الواقع الموضوعي المعيش والمتحرك.. الواقع الذي يقدم إلينا حياة الناس العامة وهم يعيشون فيه وينظرون إليه ويفكرون وينتجون ويعملون فيه.. وهذا قربنا -نسبيا- من حقيقة مجموعة من الأنشطة والتحركات والأعمال التي كانوا يقومون بها والتي لها دلالاتها المختلفة والمتنوعة.

وهكذا، عملنا قدر الإمكان، على إبراز مجموعة من القضايا والإشكاليات المتعلقة بهذا الواقع البدوي الغرباوي وبتراثه.. هادفين من وراء ذلك نفض الغبار عنه، من جهة، ومن جهة أخرى، فتح الباب بهدف تطوير التواصل بين الإنسان ومجاله وتراثه.. لقراءة وتحليل ومناقشة ومساءلة ونقد.. مجموعة من القضايا والأشياء.. القائمة في حياة الناس وفي واقعهم الموضوعي المتحرك المعيش.. وذلك، كذلك، بهدف محاولة القيام بدراسة عضوية ومترابطة الأبعاد والأهداف والجوانب.. من أجل التقرب إلى فهم ومعرفة هذا الواقع الموضوعي العام.. بهدف التحفيز على الاهتمام به أكثر فأكثر، من طرف المهتمين والباحثين والدارسين...!؟!

إن الاهتمام بالعلاقة الدياليكتيكية والعضوية.. القائمة بين الجسد والحركة، يبدو بوضوح في ارتباط الجسد بالحركة بمفهومها العام، في كل مراحل الحياة وفي كل شيء يقوم به الإنسان منذ الولادة إلى الموت.. في هذا الواقع الموضوعي المتحرك باستمرار...!؟!

وهكذا اعتمدنا منذ البداية على محاولة توثيق ما بإمكاننا توثيقه في هذا الجزء وفي الأجزاء الأخرى «من وحي التراث الغرباوي». ومن غير شك، فقد لاحظ معنا القارئ المهتم.. هذا المجهود المتواضع ونحن نبحث هنا وهناك، وكيف حاولنا مواجهة وتخطي مجموعة من المشاكل والصعوبات والعوائق.. التي اعترضت سبيلنا في مجال البحث والدراسة من طرف الدارسين والباحثين المهتمين للتعمق والتوسع والتدقق والتضبط.. أكثر فأكثر، بواسطة الطرق العلمية المتعددة والمختلفة.. لمحاولة التقرب إلى هذا الإنسان الغرباوي وإلى مجاله وإلى ثقافته -كما قلنا- عبر المراحل التي قطعها وهو يعيش ويواجه مشاكل الحياة ويتحدى الطبيعة

بوسائله البسيطة.. محوّلا ومطوّرا ومغيّرا.. ما بإمكانه تحويله وتطويره وتغييره في مجال الطبيعة التي تجود عليه تارة وتقسو عليه أخرى..!؟!

وإذا كنا مجبرين -في الغالب- في دراستنا للتراث الغرباوي على القراءة والتفسير والتحليل والوصف والتصوير، أكثر، فهذا لم يمنعنا -كما قلنا- من التساؤل الهادف ومن النقد البناء.. كما أننا في الواقع، لم نفكر في الوقوف عند التفسير وحده للحفاظ على ما كان عليه الواقع البدوي الغرباوي، بل كان ولازال وسيبقى همنا الجوهري والأساسي.. هو محاولة التجاوز والضبط والتحكم في الأسباب والعوامل الأساسية التي أدت إلى وجود واقع على هذا الشكل وآخر على شكل مغاير..هادفين من ذلك، التقرب من الظواهر المدروسة ومحاولة معرفتها ومعرفة وفهم العلاقات القائمة بينها. وهذا يدعونا بدوره إلى منطق الحركة والتطور والتحول والتغير على جميع المستويات وفي جميع المجالات التي يرتبط بها الإنسان..!؟!

الفصل الرابع

إشكالية الرياضة في الواقع الغرباوي..

مشرع ابن القصيري –كنموذج-

مقدمة عامة :

نجد في «عالم المعرفة»[7] العدد 216 تحت عنوان الرياضة والمجتمع. تأليف: د. أمين أنور الخولي. رجب 1417هـ ديسمبر/كانون أول 1996م. —الكويت- ص 7 : « المقدمة :

تعد الرياضة أحد الأنشطة الإنسانية المهمة، فلا يكاد يخلو مجتمع من المجتمعات الإنسانية من شكل من أشكال الرياضة، بغض النظر عن درجة تقدم أو تخلف هذا المجتمع، ولقد عرفها الإنسان عبر عصوره وحضاراته المختلفة، وإن تفاوتت توجهات كل حضارة بشأنها، فبعض الحضارات اهتمت بالرياضة لاعتبارات عسكرية سواء كانت دفاعية أو توسعية، والبعض الآخر مارس الرياضة لشغل أوقات الفراغ، وكشكل من أشكال الترويح، بينما وظفت الرياضة في حضارات أخرى كطريقة تربوية، حيث فطن المفكرون التربيون القدماء إلى إطار القيم الذي تحفل به الرياضة وقدرتها الكبيرة على التنشئة والتطبيع وبناء الشخصية الاجتماعية المتوازنة، ناهيك عن الآثار الصحية التي ارتبطت منذ القدم بممارسة الرياضة وتدريباتها البدنية، وهو المفهوم الذي أكدته نتائج البحوث العلمية حول الآثار الوظيفية والصحية على المستوى البيولوجي للإنسان.» ويضيف صاحب هذا الكتاب حول «الرياضة والمجتمع» قائلا في ص 11، كذلك.« ولأنه لا يخامرنا شك في التأثيرات المتبادلة بين الرياضة ومختلف القوى الاجتماعية فإنه من الواجب على المنوط بهم قيادة الرياضة والتربية البدنية في العالم العربي أن يتفهموا الأبعاد الاجتماعية —الثقافية للرياضة ويدركوا أدوارها وتأثيراتها الحيوية، كما أن عليهم أن يجتهدوا في وضع معايير جديدة بالطريقة التي

يمكن أن تقابل احتياجات الناس المعاصرة والمستقبلية، وذلك من خلال تدعيم نظام التربية البدنية والرياضة باعتباره نسقا اجتماعيا ثقافيا مهما.»

على ضوء ما تقدّم يمكن القول بأن الرياضة بما تحتوي من أهداف وأبعاد ومميزات وخصائص متنوعة لها أهمية كبيرة في الحياة العامة، كما تلعب الدور الفعال في خدمة المجتمعات الإنسانية بوجه خاص والصحة الإنسانية بوجه عام.. وهذا يتجلى من خلال ممارستها من طرف الإنسان في مجالات كثيرة في كل العصور.

والرياضة كما جاءت في الأقوال السابقة، هي نشاط إنساني مهم وأساسي.. قد مارسها الإنسان منذ القديم، وبذلك فهي حاضرة على الدوام في كل مجتمع من المجتمعات الإنسانية، كيفما كانت وضعية هذا المجتمع على جميع المستويات..!؟!

من هنا تظهر الأهمية التي تكتسيها الرياضة في حياة المجتمعات وحياة الناس وكذلك الوعي بهذه الأهمية من طرف المسؤولين عنها... كما أصبحنا نجد مجموعة من الدول تخصص ميزانيات مهمة لتشجيع الرياضة والرياضيين، كما يبدو ذلك واضحا في مجال التجهيزات الرياضية وتنظيم ملتقيات متعددة ومتنوعة.. محلية وعالمية.. نظرا لأنها هي الأخرى كغيرها من الأنشطة الإنسانية عرضة للتغيير وللتطور في موادها وألعابها ومضامينها وأهدافها ودلالاتها.. المختلفة حيث توجد علاقة جدلية بين النشاط المجتمعي والنشاط الإنساني.

والمتأمل في واقع المجتمعات المسماة بالمتخلفة يلاحظ أن إشكالية هذه الظاهرة الإنسانية الحيوية.. لا تخرج عن إشكالية الأزمة العامة التي تعاني منها هذه المجتمعات. وهكذا وإذا كانت هناك نتائج

إيجابية تحقق في هذه المجتمعات من طرف بعض الطاقات، فالفضل يرجع بالأساس إلى عزيمة ومجهودات هؤلاء الأفراد الممارسين...!؟!

إن الرياضة على العموم، في المغرب مثلا، تواجهها إشكالية الاهتمام والتجهيز، كما يبدو واضحا في الواقع الموضوعي الرياضي على العموم وفي المدرسة على الخصوص. وهكذا تحولت الرياضة في نظر الغير الواعين بأهميتها في كثيرمن المجالس الحضرية والقروية إلى مجرد لعبة من بين اللعب التي لا تحظى باهتمام في القانون المالي وفي البرامج والمشاريع لهذه المجالس، كما عجزت الدولة وذلك بفقدان جزء كبير من دورها في تشجيع الرياضة ونشرها في كل أرجاء الوطن.. وهذه السياسة تؤدي في نهاية المطاف إلى التقليص من دور الرياضة في تحقيق الأهداف الخاصة والعامة وإلى عدم القدرة على المساهمة في بلورة وتطوير وتغيير وتحويل.. الواقع المجتمعي والإنساني، إلى ما هو إيجابي أكثر فأكثر...!؟!

وهنا تجدرالإشارة إلى دور المجتمع والدولة من جهة ودور المدرسة والأسرة من جهة ثانية. فبالنسبة للدور الأول نلاحظ أن الرياضة باعتبارها ظاهرة اجتماعية ومجتمعية تتطلب تدخل المجتمع والدولة باعتبارهما مسؤولين على نشر وتشجيع.. هذه الظاهرة بين أفراد المجتمع.. في كل مدينة وقرية وبادية..الخ. وذلك بإنشاء الملاعب وتوفير التجهيزات ومنح المساعدات ونشرالوعي..الخ.

أما الجانب أو الدور الثاني والمتعلق بالأسرة والمدرسة، فإن نظرة الأسرة والمدرسة بحاجة ماسة إلى تجديد وتغيير.. تتجاوز فيها كل ما هو تقليدي سلبي للرياضة وذلك بمحاولة إبعاده من كل ما بإمكانه أن يشكل خطرا على نمو شخصيته النمو السليم..!؟!.. من هنا نتساءل، هل

استطاعت الأسرة المغربية وكذلك المدرسة أن تصلا إلى إدراك هذا الوعي بأهمية الرياضة..!؟!

وهل فعلا تقومان بدورهما أحسن قيام بإعطاء الرياضة ما تستحقه من اهتمام...!؟!

إن الناظر المتعمق إلى الواقع الأسري المغربي في عموميته، لا يجد أدنى صعوبة في الحكم على أن أغلبية الأسر المغربية هي في حاجة ماسة بدورها إلى وعي رياضي بإمكانه تغيير وتطوير.. حياتها التي تعاني من مجموعة من المشاكل المتداخلة والمتشعبة. وهكذا يمكن القول بأن هناك هوة عميقة بين الأسرة المغربية والرياضة حتى في عصرنا المعاصر...!؟!

أما بالنسبة للمدرسة، فبدون شك إن موضوع التربية البدنية يحتل موقعا هاما في مجال التعليم الأساسي في المدرسة المغربية، في هذه السنوات الأخيرة على الخصوص، هذا بالإضافة إلى المكانة الأساسية التي تحتلها الرياضة بصفة عامة في الحياة الإنسانية.. ومع هذا كله، فإن الوعي بأهمية التربية البدنية، مثلا في التعليم الأساسي، لم تتأسس بعد على أسس علمية وطرق علمية واعية بأهداف ومشاكل.. هذه التربية البدنية والفكرية والثقافية والأخلاقية.. إلخ.

وبعبارة أخرى، إن التربية البدنية أو ما يطلق عليها في الغالب في المصطلح العام العامي بالرياضة لدى الأغلبية من الناس، الغير المتخصصة في هذا الميدان الذي يجسد في واقعنا التربوي والتعليمي ، في التعليم الأساسي -كما قلنا- وضعية جديدة، حين أصبحت الرياضة كمادة أساسية من بين المواد الأساسية الأخرى في الحياة العامة. وهذا شيء

إيجابي في حقيقة الأمر، نظرا لما تكتسيه الرياضة والتربية البدنية من أهمية في حياة الإنسان على العموم والتلميذ على الخصوص، حين تصبح تشكل لديه متعة حقيقية وشعورا بالنشاط والحيوية.

وإذن، هل المعلمون، ولا سيما في التعليم الأساسي الابتدائي.. هم على وعي تام بهذه الأهمية وكذلك بالطرق العلمية والنفسية والفيزيولوجية وبعلم نفس الطفل المراهق.. في المدرسة المغربية الابتدائية التي يغيب فيها المتخصصون في هذه المادة..!؟!

.. ومن غير أن ننقص من أهمية المعلمة/ المرأة في التعليم الأساسي فلا بد من الإشارة إلى أنها تواجه مشاكل ولا سيما في الوقت الذي أسندت لها التربية البدنية –الرياضة- كمادة في التعليم الأساسي الأولي بالخصوص...!؟!

.. وبما أن السن والجنس والوقت والصحة.. الخ، كما يقال، كل هذه العناصر بجانب العناصر الأخرى، تلعب دورا هاما في تحقيق أهداف التربية البدنية، فإننا نلاحظ أن نسبة مهمة (الآن) من رجال التعليم قد تقدمت في السن ولم تعد قادرة على ممارسة الرياضة بالشكل المطلوب في التعليم الأساسي-الأولي.. فلماذا لم يتم التفكير في تعيين أطر مختصة ومهيأة في مجال التربية البدنية – الرياضة – في التعليم الأساسي الأولي، كما هو الأمر في المستويات التعليمية الأخرى...!؟!

نجد في كتاب « التربية العامة » ص592 و 593 : « وآخيرا وخاصة ينبغي أن تكون هذه الطرائق ملائمة أيضا للاهتمامات النفسية للأطفال والمراهقين. والمأخذ الأكبر الذي يمكن أن يؤخذ على عدد كبير من التمرينات الجسدية التي تبنى بناء نظريا على أساس علم

التشريح والفيزيولوجيا أنها لا تأسر اهتمام الطفل لأنها لا تنبثق عن ميوله وأذواقه انبثاقا طبيعيا. إذ علينا ألا ننسى أبدا أن الطفل الذي يتحرك ويتدرب تدربا جسديا لا يفعل ذلك بجسده فقط وإنما يفعله بكيانه كله.»[7]

ويضيف قائلا في نفس المرجع السابق ص 593 و 594 : « والتجربة العقلية المنظمة ينبغي أن تكون هنا أيضا تربية مفصلة على قد الشخص، وأفضلها تلك التي تعيّر بمهارة أدوات الرياضة وتحليل الحركات وإعادة تركيبها، حسب الأعمار والحالات »[8]

إن إدراج التربية البدنية كمادة أساسية في التعليم الأساسي بدون الاعتماد على رؤية موضوعية إلى الواقع التعليمي وعلى نظرة علمية محكمة ومنطقية.. قد أدى إلى إغفال جانب هام لتحقيق أهداف التربية البدنية ألا وهو الجانب المادي للتجهيز.. بحيث لا توجد مستودعات الملابس في المدارس الابتدائية، التي أصبحت تحتوي أغلبها على اختلاط الجنسين: البنات والأولاد.. وكذلك افتقارها إلى ملاعب صالحة لممارسة الرياضة بالإضافة إلى عدم توفر كثير من المدارس ولا سيما في القرى والبوادي والدواوير على أبسط التجهيزات والوسائل الضرورية للتدريس وللرياضة..!؟!

إن المسؤولين عن التعليم الأساسي لا يتجاهلون هذه الحقائق الواضحة في الواقع التربوي التعليمي ولا سيما في الابتدائي الذي نتحدث عنه هنا، فقط، بل يعملون على تغييبها وتأزيمها، وذلك من خلال عدم مواجهتها بطرق واقعية وعلمية ومنطقية..!؟!

إن إشكالية الرياضة في التعليم الأساسي الابتدائي بالأساس وبناء على ما تطرقنا إليه بكل اختصار، أصبح يشكل آحد العوائق أمام تحقيق الأهداف الجوهرية التي يصبو إليها التعليم الأساسي الحقيقي والفعلي وهذا ما يجعلنا نتحدث عن «فشل» أو أزمة التعليم الأساسي في المدرسة المغربية وعن عجزه عن فهم واستيعاب الواقع الحقيقي والفعلي للمجتمع المغربي بصفة عامة وواقع التلميذ والمعلم بصفة خاصة، إذ كيف يعقل مثلا، آن المعلم والتلاميذ، حينما يقومون بالرياضة وفي غياب المستودعات.. سيبقون بنفس اللباس الذي تبلل بالعرق...!؟! ألا يمكن القول في هذه الحالة بأن الرياضة تصبح تشكل خطرا على جسم الإنسان بدل العمل على سلامته وصحته؟!

والحديث عن إشكالية الرياضة في التعليم الأساسي في الطور الأول / الابتدائي يقودنا مباشرة إلى الحديث عن الرياضة في الطور الثاني/الإعدادي والثانوي..حيث نجد. هناك مشاكل أخرى متنوعة وكثيرة، تقف بدورها في عدم تحقيق أهداف التربية البدنية، منها ماهو مادي والذي يتعلق بالتجهيزات بالدرجة الأولى وبالوسائل...الخ. ومنها ماهو نظري والذي يعود إلى عدم تزويد الطلبة أو التلاميذ بالدروس النظرية في مادة التربية البدنية داخل القسم كما هو الشأن بالنسبة للمواد الأخرى – وإن آصبحت هناك مجالات للقيام بما هو نظري – حتى تحقق أهدافها أثناء التطبيق أو الممارسة في الميدان، وحتى يتمكن التلميذ من إدراك آهمية الرياضة والتربية البدنية والعقلية على المستويين النظري والتطبيقي.. وهذا ما يغيب في غالب الأحيان في واقعنا التعليمي والتربوي...!؟!

ولإعطاء الرياضة على العموم والتربية البدنية على الخصوص حقها المشروع في التعليم الأساسي، وأهمية مكانتها في المدرسة والأسرة والمجتمع.. وفي الحياة العامة، لايمكن إغفال واقعها الحقيقي والفعلي، باعتبارها عنصرا من أهم العناصر التي تكون العملية التعليمية في عصرنا المعاصر.. وبالتالي فهي لا تتوقف على الحركات فحسب، بل كذلك على تنمية الفكر وعلى سلامة العقل وصحته.. ومن هنا لابد من إعادة النظر إلى واقع هذه المادة الأساسية، وذلك لتأسيسها على أسس عقلية ومنطقية وعملية وموضوعية.. واقعية وفعلية.. لتسهم في بناء مجتمع سليم وقوي.. مجتمع واع ومسؤول عن وظيفته الإنسانية والاجتماعية.. الثقافية والحضارية.. الفكرية والتاريخية.. الخ.

وبعد هذه المقدمة المختزلة والمقتضبة.. ماذا يمكننا أن نقول عن واقع إشكالية الرياضة في منطقة الغرب وعلى الخصوص في مشرع ابن القصيري الذي اتخذناه نموذجا لتوضيح بعض القضايا والمشاكل.. المرتبطة بهذا الموضوع..!؟! كيف الواقع الرياضي..!؟! وما آل إليه الآن..!؟! هل هناك تقدم وتطور.. أم هناك تراجع وتقهقر..!؟! ما هي بعض الأسباب والعوامل.. المؤدية إلى ذلك..!؟!

لقد استخلصنا من خلال اهتمامنا ودراستنا وبحثنا.. للثقافة البدوية الشعبية الغرباوية على العموم ومشرع ابن القصيري وضواحيه على الخصوص، في مسيرتها التاريخية المتشعبة.. وذلك في غياب شبه مطلق للوثائق والمصادر.. وفي حضور التهميش والتغييب واللامبالاة لهذه الثقافة البدوية الغرباوية.. التي يحكمها التعامل اللحظي والارتجال.. في أغلب الأوقات، سواء تعلق الأمر بالنسبة للظواهر التي تحدثنا عنها أو عن

الرياضة التي هي موضوع بحثنا هذا، الرياضة التي تحتل فيها كرة القدم- رغم المشاكل التي تعاني منها- المكانة الأساسية.. كرة القدم التي تعيش بدورها إشكالية أزمة الرياضة، مثلا، في إقليم سيدي قاسم بأسره، حيث لا نجد إلا بعض الفرق الوحيدة، التي تصعد وتنزل من قسم إلى قسم، مثل الاتحاد الرياضي القاسمي، ونادي عمل بلقصيري.. من غير نسيان الفريق الوزاني لمدينة وزان ثم تأسيس فريق حديث في دار الكداري.. أما ما عدا هذه الفرق فتظل فرق الأحياء والدواوير.. هي التي تملأ الفراغ المهول الذي تعاني منه الرياضة على العموم وكرة القدم على الخصوص في هذا الإقليم المهمش والمظلوم.. على جميع المستويات وفي المقدمة مستوى كرة القدم، والذي يستفيد من إمكانياته التدعيمية فرق اتحاد سيدي قاسم وحده في غالب الأحيان إن لم نقل في كل الأحيان..!؟!

هذه الإشكالية العويصة والمعقدة تقربنا، نسبيا، إلى تفسير واقع الرياضة في هذا الإقليم بطريقة واضحة تتجلى من خلالها أزمة العلاقة بين المسؤولين والواقع الرياضي.

وعلى هذا الأساس الإشكالي يتكشف الحديث عن الواقع الموضوعي الرياضي وما يعاني منه من تهميش وإهمال مما يكرس الحيف المنهج والتسلط السافر وما إلى ذلك من مظاهر الهيمنة والاستغلال..!؟!

وما قراءتنا البسيطة والمتواضعة هذه إلا محاولة من بين المحاولات التي تمثل الواجهة النقدية والفاضحة.. لما يجري في هذا الواقع المأساوي الغرباوي.. ذلك أن الاهتمام بالواقع والانطلاق منه -كما قلنا أكثر من مرة- هو الأداة الأساسية للتعبير عن هذا الواقع المشكل والمأزوم.. لأن الواقع في غياب المصادر والوثائق.. وتغييبها من طرف

المسؤولين عن الرياضة في هذا الإقليم الغرباوي.- بل وفي جهة الغرب برمتها- يبقى هو المصدر المعبر عن هذا المجتمع الغرباوي وعن مدى معاناة سكانه من سياسة النزوات والنزعات وكل أنواع التسلط.

ونعود لنوضح نوعا ما هذه الإشكالية في مدينة مشرع ابن القصيري وضواحيها مركزين بحثنا أساسا على الجوانب المتعلقة بموضوع الرياضة الذي هو موضوع بحثنا وقراءتنا.. في هذه المحاولة المتواضعة.. والذي تحتل فيه كرة القدم -لغياب مجموعة من أنواع الرياضة الأخرى- الحيز الأكبر، نظرا لاعتبارات متعددة، كما سنرى..!؟!

وعلى هذا الأساس نعرف ونفهم لماذا هناك أزمة رياضية في هذا الاقليم الغرباوي..!؟! ولماذا يقع التركيز -في الغالب- على كرة القدم مع تهميش وإهمال الجوانب الرياضية الأخرى بالرغم من المجهودات التي يبذلها بعض الأفراد والجمعيات.. والتي حققت نتائج محلية ووطنية وعالمية..!؟! ولماذا الاقتصار على بعض الملاعب، لكرة القدم مثلا، والتي أنشئت منذ عهد الاستعمار وإهمال وضياع مجموعة من الملاعب لجوانب رياضية أخرى عرفتها مدينة مشرع ابن القصيري على سبيل المثال..!؟!

لقد جاء في جريدة (الاتحاد الاشتراكي) السبت 25 يوليوز 1998م. عدد : 5461 حول : « مراحل ومحطات لفريق شباب أولمبيك وزان.

أول فريق تأسس بمدينة وزان كان يحمل إسم "لايسي" ويرجع الفضل في تأسيسه لصابو وهو فرنسي الأصل كان يقيم بوزان وكان ذلك سنة 1946م... وبعده سنة 1947م أسس فرانسوا كونطي وهوفرنسي أيضا، فريق شباب أولمبيك وزان الذي كان يضم في صفوفه مجموعة من

اللاعبين المتميزين. الدرشول.. المديني.. بن عبد القادر بوشتى.. الأخوين مقيت محمد وعبد الله والريفي..

وفي سنة 1950م شارك الفريق في بطولة القسم الشرفي.. وتمكن في ظرف وجيز من التأهيل لمباريات السد من أجل الصعود إلى القسم الثاني (...)

وفي سنة 1959م مثل فريق شباب أولمبيك وزان المغرب في منافسات بطولة كأس إفريقيا حيث انتصر في أول مبارة له على نادي صلب القبة الجزائري بهدف لصفر وانتصرفي الثانية أيضا على جمعية وهران بهدفين لواحد وانهزم في آخر لقاء أمام يوسفية بلعباس بأربعة أهداف لاثنين... »

هذا ويمكن لنا بقدر من التجاوز آن ندخل في هذا الإطار الإشكالي الرياضي بعض الفرق الكروية الأخرى القليلة –كما قلنا– مثل فريق نادي عمل بلقصيري الذي تأسس سنة 1947م بدوره من طرف مجموعة من الفرنسيين الذين كانوا يقيمون في هذه المنطقة الغرباوية بالإضافة إلى مجموعة من المغاربة الذين لعبوا ضمن الفريق آنذاك.

وهكذا، وبنظرة سريعة إلى الواقع الرياضي في هذا الإقليم الغرباوي يمكن القول بأنه عرف تقهقرا وتراجعا وتعقدا.. لما كان عليه حتى في مرحلة الاستعمار.. والدليل على ذلك لم تنشأ فرق رياضية وعلى رأسها كرة القدم في هذا الإقليم باستثناء فريق شاب في دار الكداري وبعض المحاولات التي باءت بالفشل حتى الآن.. مثلما هو الأمر، مثلا، في حد كورت والخنيشات وعين الدفالي وعين الدريج وسوق الجمعة

الحوافات وجرف الملح..الخ. وما قيل عن إقليم سيدي قاسم، يقال كذلك عن جهة الغرب.

وهكذا نخلص إلى أن المسؤولين في هذا الإقليم الغرباوي المهمش والمظلوم ..يتحملون مسؤولية أزمة الرياضة وما يترتب عنها من مشاكل ومن هنا كذلك تغيب مسالة الوعي الناضج بأهمية الرياضة في الحياة الإنسانية إنها مفارقة خطيرة ...لأن تكوين شخصية الأجيال التكوين الصحيح لا يتأتى إلا بفضل تأسيس القواعد الصلبة والمبادئ الهادفة....والرياضة تعتبر إحدى العناصر الأساسية المؤدية إلى ذلك...وهذا الوضع المتردي يؤكد كذلك الاهتمام بالمصلحة الخاصة لبعض الأفراد والفئات على حساب المصلحة العامة.

ولقدجاء في جريدة المنظمةالعدد 318 الثلاثاء 14 صفر 1419 هـ الموافق 9 يونيو 1998 م:"الرياحي كتيب بطل لرياضة بناء الجسم منسي في مشرع بلقصيري. وهو ابن المدينة.

تختزن مشرع بلقصيري، هذه المدينة المنسية على ضفاف نهر سبو من الطاقات الفكرية والرياضية ما يستوجب الالتفات والتشجيع ...السيد الرياحي كتيب من مواليد 1964 ببلقصيري والذي بدأ مشواره الرياضي بممارسة الكراطي شوطوكان منذ 1982. ثم طوره بالاهتمام برياضة بناء الجسم، حيث ساهم في تمثيل مدينته ووطنه في عدة ملتقيات نذكر منها مشاركته في بطولة المغرب التي أقيمت بالقنيطرة في 6 يوليوز 1997م والتي حصل فيها على المرتبة الأولى وهو بذلك بطل للمغرب في وزنه. كما كانت مشاركته في نهائيات عيد العرش في شهر مارس 1998م وحصل على المرتبة الأولى، كما كانت مشاركته في الألعاب

المتوسطية التي أقيمت في الإسماعيلية بمصر أيام 17 و18 أبريل 1998م جد مشرفة لمشرع بلقصيري وللوطن بأكمله، حيث حصل على المرتبة الثانية في وزن أقل من 75 كلغ في ظل الجامعة الملكية لبناء الجسم.».

كما جاء كذلك في جريدة (الاتحاد الاشتراكي)[11] الأحد 14 ذو الحجة الموافق 12 آبريل 1998. العدد : 5357 في مقال لأحمد صبري تحت عنوان : « الكرة في بلقصيري مثلها في سان دوني..

دخلت مدينة مشرع بلقصيري لأساهم في ندوة نظمتها جمعية شباب ديور اجداد للثقافة تحت عنوان " واقع وآفاق كرة القدم الوطنية " استوقفتني "مباراة" في كرة القدم " يتشانق" فيها حشد من أولادنا بالمدينة قاسمهم المشترك جلدة لا لون لها ومتماهية مع الأرض الموحلة والمشققة بفعل الجرارات الفلاحية حيث تبدت أخاديد غائرة لا ترحم الأرجل و الجسد كله إذا ما ارتمى فيها ويصبح كذلك ردائف من الأوساخ والقاذورات والأزبال التي تشكل مرتعا للكلاب الضالة والقطط.

أولاد مدينة فلاحية يسمعون في التلفزة والإذاعة أنباء عن نخبهم الوطنية التي تنعم في النعيم وترتاد أرقى المستويات لكنهم يعيشون واقعا كارثيا لا أثر فيه للمفاهيم التربوية والصحية والبيئوية والتكوينية.».

كما جاء كذلك في جريدة (المنظمة) [12]الأحد والإثنين 10/9 ذو القعدة 1418هـ الموافق لـ 9/8 مارس 1998م. « وقف المكتب المسير لنادي عمل بلقصيري فرع كرة القدم وقفة إحتجاجية صحبة لاعبي الفريق آمام مقر بلدية بلقصيري يوم الجمعة 20 فبراير على الساعة الثالثة بعد الزوال.

وتاتي هذه الوقفة الاحتجاجية كرد فعل للمكتب المسير لما آل إليه الوضع المادي المأساوي للنادي. (...) كانت لنا جلسة مع رئيس النادي

السيد بوسلهامي سليمان الذي أكد لنا المساعي التي قام بها المكتب المسير للإخبار بالوضعية من أجل العمل على تداركها قبل فوات الأوان. لكن لم تتجم عن المساعي أية حلول عملية جذرية (...). فرغم الاتصالات والمراسلات الإخبارية لكل من عامل الإقليم وباشا المدينة ورئيس المجلس الإقليمي ورئيس المجلس البلدي ثم النواب البرلمانيون والمجلس الاستشاري.. ما زال الفريق ينذر بالاعتذار عن إجراء مقابلة 22 مارس 1998م التي ستنقله إلى ملعب نهضة بركان، ويقرر بعدم قدرته على اكتمال موسمه الرياضي الذي يحتل خلاله مرتبة متقدمة (الثالثة) إذا لم يقم المسؤولون بالمدينة بإيجاد حلول نهائية لوضعيته المادية.».

وإذن من هو فريق مشرع ابن القصيري (نادي عمل بلقصيري) ؟ وماهي وضعيته داخل الرياضة المحلية والوطنية.. !؟! وما هي إشكالية الرياضة بصفة عامة في واقع هذه المدينة المهمشة/ مشرع ابن القصيري...!؟!

ما هي الأشياء التي نستفيدها من اهتمامنا بموضوع الرياضة لهذه المدينة..!؟! من بين الأشياء التي نستفيدها هنا من هذه الاهتمامات والدراسات.. هو أن ما كان موجودا من ملاعب وأنواع رياضية.. في هذه المدينة يشكل عنصرا من عناصر ذاكرتها الثقافية والإنسانية والاجتماعية والتاريخية.. الخ. وبفضله نتقرب إلى فهم ومعرفة ما قدمه الإنسان الغرباوي في هذا المجال الرياضي في القديم بالمقارنة مع ما يقدمه الآن...!؟!

كما يساعدنا هذا الاهتمام بتوثيق وتأريخ ما قدمته هذه المدينة من إنجازات وإبداعات وإنتاجات.. وهذا بدوره يشجع الأجيال المقبلة على محاكاة السلف في مجال تنشيط عقله والعمل على تجاوزه وتحديه في

مجال الإبداع والتجديد والتطوير.. وفي الوقت ذاته تتفاعل الأنشطة القديمة والحديثة وتتمى الأعمال والعطاءات والإنتاجات والإبداعات..

وهكذا تكون قراءتنا للواقع الموضوعي مفيدة جدا في مجال معرفة الرياضة مثلا وما كانت عليه... وكيف يمكنها أن تكون الآن..!؟!

فما أجمل أن نسافر إلى واقع مشرع ابن القصيري القديم للتمتع بالمشاهد الرياضية وباللقطات المثيرة المستنبطة من الملاعب المتنوعة والمختلفة.. التي لم يعد لها أثر الآن.. إنها رحلة الحنين والذكريات التي ترمينا ونحن أطفال صغار في حضن البراءة والسعادة المفعمة بالحب والاخلاص للرياضة والرياضيين.

لقد احتضنت مدينة مشرع ابن القصيري مجموعة من الملاعب وفي مقدمتها ملعب كرة القدم الذي شيد في عهد الاستعمار وكان موجودا بالضبط في المكان الذي يوجد فيه الآن قصر البلدية لمدينة مشرع ابن القصيري قرب مدرسة سبو والسوق الداخلي المغطى، ثم تحول هذا الملعب البلدي لكرة القدم بجانب نهر سبو، قرب ضريح الولي الصالح سيدي محمد الدريويش -ولا زال قائما حتى الآن- ؟

كما احتضنت هذه المدينة المهمشة في مرحلة الاستعمار وفي أوائل الاستقلال مختلف الرياضات وكانت بذلك محطة أنظار المهتمين بالرياضة حيث احتضنت سباق السيارات وسباق الدراجات النارية والهوائية.. فنالت المدينة بذلك شهرة محلية ووطنية وعالمية – لمشاركة مجموعة من الأبطال العالميين – هذه الأنشطة الرياضية المتنوعة كانت تصادف الأسبوع الثقافي والفلاحي.. بالمدينة، والذي كان يعرف بـ

« La Fête des Oranges » من غير نسيان الأنشطة الأخرى مثل كرة القدم والكرة الحديدية ومسابقات أخرى كالعدو وتسلق الأعمدة المطلية بالصابون..الخ.

كما أن وجود الأمريكيين بضواحي مدينة مشرع ابن القصيري وبالضبط في " القاعدة الجوية الأمريكية " التي لا تبعد عن المدينة إلا بـ 5 كلم تقريبا قرب دوار البعابشة الرمل.. دفعهم إلى ممارسة الرياضة المفضلة لديهم (Hockey) وكذلك عملوا على تشييد ملعب لكرة المضرب بالقاعدة الجوية المذكورة ولا زال قائما حتى الآن يعاني من ضربات الزمن واللامبالاة والتهميش !؟! كما كان هناك ملعب للخيل بكل مواصفاته سنة 1954/53 على ضفة سبو اليمنى وسط الأشجار مقابل السجن المدني وفي محله الآن La Ferraille .. وبجانب هذه الأنشطة والملاعب كان يوجد كذلك في داخل المدينة ملعب لكرة المضرب بالقرب من المكتب الوطني للكهرباء –حاليا- . وليس ببعيد عن هذا المكان وبالضبط داخل البنايات المستعملة لرجال السلطة حتى الآن في مقابل المحكمة وبقرب نهر سبو.. كان يوجد مسبح يستعمل للمسابقات والأنشطة الداخلية في نطاق الأسبوع الثقافي السياحي والفلاحي المذكور آنفا.. لمدينة مشرع ابن القصيري. كما شجع سبو الإنسان الغرباوي على السباحة وممارستها وإتقانها.

كما كان يوجد في داخل الملعب البلدي حاليا، ملعب لكرة السلة وملعب لكرة الطائرة.. ولا زالت آثارهما موجودة حتى الآن كذلك. وهما يعانيان بدورهما من الإهمال والتهميش والإقبار.. مثل سابقيهم. هذا وتجدر الإشارة إلى أنه كذلك، كان في عهد الاستعمار وحتى عهد

الاستقلال ملعب الأنشطة الرياضية منظم أحسن تنظيم، وكان مستعملا للعدو الريفي والوثب الطولي وتسلق الحبل والقفز العالي والقفز العريض ورمي الكرة الحديدية (الجلّة).. الخ. هذا الملعب الموجود بجانب مدرسة البنات المعروفة الآن بمدرسة غزوة تبوك، وكذلك بجانب دار الشباب حاليا، وهو ما كان ولا زال يعرف بالملعب المدرسي (*Terain Scolaire*) وقد أحيط الآن بسور عال ولا يفتح بابه إلا في المناسبات.. وقد ضاعت كل التجهيزات التي كانت فيه.. وأصبحت تمارس فيه كرة السلة والمباريات الكروية الصغيرة...!؟!

تلك هي الألعاب والملاعب والأنشطة الرياضية المتنوعة والمتعددة التي كانت موجودة في مدينة مشرع ابن القصيري والتي مورست بشكل فعال وتركت آثارها القوية في نفسية كل من مارسها أو عاشها.. إنها مرحلة، فعلا حافلة بالمشاهد والصور والذكريات الجميلة.. هذه المرحلة ما هي إلا جزء من ثقافة هذه المدينة المعطاءة. وما هذه الأشياء وغيرها إلا دليل واضح على قدرة هذه المدينة وأبنائها المخلصين، إذا ما توفرت الشروط والنيات الحسنة.. على العمل من أجل البناء والتشييد والعطاء أكثر من السابق..!؟!

فمدينة مشرع ابن القصيري، وكما حاولنا أن نبينها من خلال بعض المصادر المتوفرة لدينا.. كانت مدينة رياضية لا شك في ذلك، ونشيطة ومنتجة ومبدعة.. في كل المجالات.. ولكنها عرفت تقهقرا وتراجعا خطيرا –كما قلنا– لعدة أسباب حاولنا أن نذكر البعض منها. وهكذا لم يبق –تقريبا– من هذه الرياضات والملاعب.. إلا ملعب كرة القدم، المتجسد في فرقة نادي عمل بلقصيري لكرة القدم، من غير نسيان

بعض الفروع المنبثقة عن هذا النادي، والتي تعتمد على إمكانياتها الخاصة في غالب الأحيان إن لم نقل في كل الأحيان... ومن بين هذه الفروع نجد :

- فرع كرة القدم
- فرع كرة السلة
- فرع الكرة الحديدية

وقد أضيف فرع : الفنون الحربية الذي تأسس في موسم 1991 / 1992م.

وإذن ما هي فرقة نادي عمل بلقصيري لكرة القدم !؟! وما هي التحولات التي عرفتها هذه الفرقة لكرة القدم حتى الآن...!؟!

لقد تأسس نادي عمل بلقصيري لكرة القدم في عهد الاستعمار على يد مجموعة من الفرنسيين وكان من بينهم بعض المغاربة، وذلك سنة 1947م .

وهكذا وفي عهد الاستقلال وبالضبط في 1960م كان هناك 3 أقسام :

1- القسم الأول
2- القسم الثاني
3- القسم الثالث

أما بالنسبة لنادي عمل بلقصيري لكرة القدم وذلك في سنة 67 / 1968م فقد صعد إلى القسم (2) الثاني، بعدما كان في القسم الثالث -كما قال لنا البوسلهامي سليمان- وبقي حتى الموسم 1984/ 1985، حيث صعد في نهاية هذا الموسم إلى القسم الوطني الأول، ولعب فيه موسمين، يعني 1985 حتى 1987م.

وبعد التقسيم الجديد للفرق الوطنية :

- القسم الوطني الأول
- القسم الوطني الثاني حرف" أ" و حرف" ب "
- القسم الوطني الثالث
- القسم الوطني الرابع

كانت وضعية فريق نادي عمل بلقصيري لكرة القدم هي النزول سنة 87 / 1988م إلى القسم الوطني الثاني حرف "أ" . ثم بعد ذلك أي في موسم 88 / 1989م نزل ولعب بالقسم الوطني الثاني حرف "ب".

وفي سنة 1995/1994م صعد إلى القسم الثاني مرة أخرى حرف "أ". وفي آخر هذا الموسم تم تقسيم جديد على الصعيد الوطني، حيث أصبح الفريق يوجد ضمن القسم الوطني الأول هواة حتى الآن (1998) وذلك منذ سنة 1996/95م. وهذا التقسيم الوطني الجديد جاء على شكل مجموعتين:

أ- المجموعة الوطنية والتي يوجد فيها القسم الوطني الأول والقسم الوطني الثاني.

ب -مجموعة الهواة / القسم الوطني الأول وضمنه 3 مجموعات . ثم القسم الوطني الثاني وفيه 4 مجموعات.

عن الرياضة في مشرع بلقصيري

فريق كرة القدم نموذجا

«خمسون سنة من الممارسة وما زال الفريق في مرحلة التأسيس ».

مرت على تأسيس فريق عمل بلقصيري لكرة القدم نصف قرن من الزمن، ولا يجادل إثنان بأن الفريق ما زال في مرحلة التأسيس بحيث لم يعرف أي تطور أو تراكم منذ تأسيسه إلى يومنا هذا. ويمكن الجزم بأن الفريق لم يستفد من تجاربه السابقة ولا من تجارب الفرق الأخرى الجهوية أو الوطنية. ولتأكيد هذا الطرح سنحاول تشخيص وقراءة واقع هذا الفريق.

1) على مستوى التجهيزات والبنيات التحتية :

يتوفر الفريق على ملعب بلدي مساحته الإجمالية حوالي هكتارين غير معشوشب وذي أرضية طينية كما تحيط به مدرجات وجها لوجه يصل طول كل واحد منها حوالي 60 مترا، ساهمت في بنائهاالمجالس البلدية السابقة إلا أن هذه المدرجات رغم حداثة بنائها فقد تآكلت وتخربت لانعدام الصيانة والمحافظة، إضافة إلى أن بناءها كان مغشوشا ولم يحظ بالعناية اللازمة والمراقبة المسؤولة.

أما المستودعات فيرجع تاريخ بنائها إلى عهد الاستعمار أيام كان عددالسكان لا يتجاوز المئات من السكان.

وهكذا، فبحكم الزمن وتطور اللعبة أصبحت هذه المستودعات متجاوزةنظرا لضيقها (4x4 أمتار) وقدمها وانعدام الإنارة بها وأصبحت الآن لا تصلح حتى لتربية الدواجن.

الأماكن الخاصة باللاعبين الاحتياطيين يمكن اعتبارها غير موجودة نظرا لعدم توفرها على أبسط الشروط الضرورية للراحة والوقاية من حرارة الشمس أو من المطر، أما الأماكن الخاصة بمندوب المقابلة ومراسلي الجرائد فمنعدمة بالمرة. ومن جهة أخرى فالجمهور الرياضي يجد صعوبة في البحث عن الماء للشرب أو النظافة وكذلك صعوبة في الحصول على مكان مريح ليتابع أطوار المقابلة في أحسن الظروف.. مما أدى إلى نفور كثير من المتفرجين، من المحبين والمتعاطفين..الخ، بحيث لا نجد داخل الملعب ولو صنبورا أو نافورة ماء، وكأننا في صحراء قاحلة. هذا دون الحديث عن عدم وجود مرحاض أو مراحيض خاصة بالجمهور الرياضي الذي يلجأ إلى الخلاء في ظل هذه الأزمة.

كما نسجل غياب مقر خاص بالنادي يليق بمقامه يعبر عن ذاكرته وتاريخه وإنجازاته بحيث في بعض الأحيان يستقبل الفريق المحلي ضيوفه إما بقاعة البلدية أو بأحد مقاهي المدينة. نسجل كذلك غياب وسيلة نقل خاصة بالفريق تخفف عنه عبء المسافات وتوفر عنه مصاريف كراء الحافلة أوسيارات الأجرة الكبيرة للتنقل إلى المدن البعيدة ، غياب وسيلة للتواصل والتفاعل بين جميع الأطراف المكونة للفريق من لاعبين، مسيرين، جمهور، صحافة...

غياب الأدوات الضرورية التي تساعد المدرب أو مساعد المدرب على تهييئ اللاعبين سواء على المستوى البدني أو التقني –التاكتيكي كالكرات الطبية، الحبال، الحواجز، مرامي متحركة، فيديو، تلفزة.. الخ.

على مستوى التسيير :

المشاكل التي تم بسطها أعلاه لها علاقة وطيدة بالتسيير والتسيير في فريق عمل بلقصيري هو الطامة الكبرى لأنه يشكل ارتجالا وفوضى على جميع الأصعدة (البرمجة، التخطيط، الهيكلة، التواصل..). فطيلةنصف قرن من الزمن لم يعرف التسيير أي تطور أو تراكم، فالجموع العامة دائما تمر في غياب مشاريع رياضية، تربوية، اجتماعية تضم استراتيجية وأهداف قابلة للتحقيق سواء على المدى القريب أو المتوسط آو البعيد. وهذه المشاريع يمكن الاعتماد عليها كمقياس لاختيار الرئيس أو المكتب ومحاسبته على ما التزم بتحقيقه في ألجمع العام المقبل.

مشكل آخر يدخل في إطار التسيير هو مشكل الأرشيف والمحافظة، فطيلة خمسين سنة من الممارسة لم يستطع الفريق أن ينظم ويجمع أرشيفه ووثائقه، لأن المسؤولين الذين تعاقبوا على تسيير الفريق لم يعطوا أهمية لهذه النقطة نظرا لعدة اعتبارات منها قصر النظر، التواكل.. حيث يبقى همهم الوحيد هو إتمام الموسم الذين هم بصدده.

أما الجانب التنظيمي فحدث ولا حرج، فلا يمكن الحديث عن التنظيم في غياب قوانين واضحة تحدد الحقوق والواجبات بين جميع الأطراف في غياب هيكلة إدارية وفي غياب لجن وظيفية تساعد المكتب في مهامه. ومشكل التنظيم له علاقة بالعقلية وجهل المسؤولين الذين تعاقبوا على التسيير بأن تسيير فريق أو نادي يتطلب من عضو المكتب تحمل المسؤولية عن قناعة وحرية وتطوع ويتطلب من العضو كذلك الإيمان بالعمل الجماعي وآن يكون ملما ومتكونا في التخطيط والبرمجة والكتابة المالية..

سعيد ظفر الله

لقد كان الهدف من هذا التقديم المقتضب حول الرياضة في مشرع ابن القصيري وضواحيه.. هو محاولة تقريب القارئ المعاصر من بعض الرياضات التي كانت موجودة، هنا، في الأمس القريب، وإن كنا لم نتطرق إلى بعض أنواع الرياضة البدوية البسيطة، التي كانت موجودة قبل دخول الاستعمار في منطقة الغرب بصفة عامة، ومشرع ابن القصيري بصفة خاصة. وهكذا فإن النظر في جذور ومصادر ومنابع.. الرياضة في هذه المنطقة الغرباوية، التي لا تزال أصداؤها وترديد بعض أسمائها حتى اليوم من طرف الذين يعرفونها أو الذين مارسوها.. في ظروف تختلف كل الاختلاف عن ظروف وقتنا الحاضر..؟!

وهكذا، رأينا، من واجبنا ونحن نتحدث عن إشكالية وأهمية الثقافة البدوية الغرباوية في نموذج مشرع ابن القصيري، محاولين «توثيق» أو «تأريخ» هذا التراث قدر الإمكان، بما في ذلك الرياضة خوفا عليها هي الأخرى من الضياع والإتلاف.. الذي تعرضت له بالفعل حيث لم تعد حاضرة الآن، إلا في وعي/ذاكرة بعض الأفراد الذين عايشوها أو مارسوها.. ومن هنا نتساءل كذلك، هل يمكن لهذه المحاولة أن تكون ذات جدوى وأهمية من طرف الأجيال التي لم تعايشها ولم تمارسها...؟! أليس من حق الرياضة القديمة أن تجد مكانا لها في الذاكرة الشعبية وفي الوعي الشعبي وفي الشعور الجمعي.. حينما نعود إلى تاريخ هذه المنطقة الغرباوية..؟!

وهل يعقل أن تكون هناك رياضة شعبية حديثة بدون وجود سابق لرياضة قديمة.. ساهمت بشكل أو بآخر في نشأتها وتطورها..؟!

إن المتتبع المهتم والواعي بهذه الإشكالية، يجد نفسه مضطرا من أجل أن يطرح مجموعة من الأسئلة والتساؤلات : ما الفائدة من إعادة قراءة التراث والاهتمام به.. مع أنه مضى مع مضي زمانه..!؟ لماذا يعمل المهتمون به والدارسون له.. على دراسته ومعرفته والوعي به.. في حين عصرهم يتطلب منهم إنتاج أو إبداع تراث جديد.. يسير وفق متطلبات العصروالحضارة.. القائمتين..!؟! ماذا يمكننا أن نستفيد من التراث البدوي الغرباوي على العموم ومن بعض الألعاب التي كانت في القديم بصفة خاصة، مثلا !؟!

إن الاهتمام بالتراث الشعبي وبمعرفته المعرفة الدقيقة ومحاولة استعادته أو استحضاره بشكل أوبآخر في وعي الحاضرين والذين لم يعايشوه.. بإيجابياته وسلبياته، لا نهدف من ورائه -كما قلنا أكثر من مرة- أن نعود بالحياة وبعجلة التاريخ إلى الوراء ، بقدر ما نرى فيه الجهد الذي بذله الإنسان في مرحلة من المراحل لإعطاء الحياة الإنسانية والاجتماعية والثقافية والتاريخية.. معنى، وكيف واجه الحياة !؟! وما هي الوسائل التي واجه بها الحياة المليئة بالمحن والأزمات.. من غير نسيان، كذلك، الأفراح والمسرات..!؟!

إن ما نهدف إليه في الحقيقة من هذا كله هو أننا نعي مدى الوعي بإشكالية ضياع وإتلاف ونسيان.. ما أنتجه هذا الإنسان الغرباوي في الماضي ولم يعمل على توثيقه وتدوينه وتأريخه.. بواسطة الكتابة أو التسجيل.. الخ. وهكذا فضياعه بضياع الذين يعرفونه ويحكون عنه.. هوضياع في الحقيقة لذاكرة شعبية مهمة في مرحلة من مراحل هذه المنطقة الغرباوية المهمشة.. هوضياع لذات تجهل مصادر وجذور.. هويتها،

وكأنها وجدت اعتباطا ؟ من أجل ذلك، وكما نرى، أن المهمة المنتظرة من الإنسان الغرباوي على الخصوص والإنسان المغربي الغيور والشغوف والمهموم.. على العموم، هو الاهتمام بهذا التراث الغرباوي الذي تعرض للتهميش والإتلاف والضياع.. الخ. وهكذا، فعلى سبيل المثال لا الحصر، فإن الاهتمام بموضوع بعض الألعاب الشعبية الغرباوية القديمة، مثلا، يقتضي منا تحديد معاني أسماء هذه الألعاب، ووظائفها وآهدافها، وذلك بمحاولة معرفة كيف ظهرت !؟! ولماذا !؟! وكيف مورست !؟! وماذا حققت !؟!

إن جل الألعاب التي ظهرت ، هنا، في منطقة الغرب، وفي مشرع ابن القصيري وضواحيه على الخصوص، ظلت ذات طابع بدوي بسيط وعادي وطبيعي.. كما ارتبطت ارتباطا عضويا وضروريا برؤية وحياة هذا الإنسان البدوي الغرباوي العادي في حياته إنها محاولة من محاولات التنفيس عن نفسه من أعباء الحياة والعمل.. وذلك بخلق هذه الألعاب للترفيه واللعب مع أفراد الجماعةالتي ينتمي إليها أو غيرها.. وهذا يدل على أن أغلبية الألعاب الغرباوية، هنا، كانت ألعابا جماعية بالدرجة الأولى، وهذا في رأينا قد رفضته ضرورة طبيعة الحياة الإنسانية على العموم. فكثير من الألعاب البدوية الغرباوية، هنا، تؤكد من خلال أنظمتها وأنساقها وقواعدها.. أنها كانت مرتبطة بالواقع الحي المعيش، ولم تخل أبدا من المشاركة الجماعية الفعالة، وأنها لم تنفصل عن هذا الواقع، وذلك من خلال أساليبها -كما قلنا- فكانت بذلك تعكس حياة الناس وتوعيهم بحقيقتهم وبحقائق واقعهم.. مما ترتب عن ذلك مجموعة من الأشياء والحقائق المتجسدة في كثير من القيم الأخلاقية والجمالية ومن

المعايير المعرفية والعملية والإبداعية والفكرية.. الخ. وهكذا ولو تمعن القارئ الواعي والشغوف بحب المعرفة والبحث.. في الأمثال والحكم الشعبية البدوية الغرباوية وفي أنواع الرياضة/اللعب التي أنتجها وآبدعها الإنسان الغرباوي في هذا الواقع الموضوعي المتحرك.. لتمكن من معرفة أن مجموعة من الحقائق الكامنة فيها هي تعبير صادق على أنها صيغت في أنساق فكرية متعددة ومتنوعة نابعة من التجربة الإنسانية لواقع هذا الإنسان البدوي الغرباوي القديم وهو يعيش بطريقته الخاصة في واقعه المعيش.

وإذن، ماذا يمكننا أن نستخلص من خلال اهتمامنا قراءة وتحليلا ومناقشة.. لبعض الألعاب البدوية الغرباوية التي كانت سائدة ومنتشرة، هنا، ثم تعرضت أغلبها إلى الضياع والإتلاف والتهميش بالرغم من أن كثيرا من أنواع الرياضة الحديثة والمعاصرة.. قد استفادت منها وعملت على تطويرها وتجديدها.. !؟! ما هي الأهداف والغايات التي نصبو من خلالها بواسطة القراءة الكاشفة والتحليلية والتساؤلية والنقدية.. !؟! وهل بإمكاننا الحديث عنها في غياب التوثيق والتدوين والتأريخ.. والاعتماد على أقوال الناس الذين مارسوها أو عايشوها.. !؟! ماذا يمكننا أن نستخلص من الرؤى والمواقف المختلفة أو المتقاربة وهي تحكي وتؤول.. لنا مضامين وأهداف وغايات.. هذه الألعاب !؟! ألا يمكن للعنصر الذاتي والموضوعي في تفاعلهما وتداخلهما أن يفيدا.. الباحثين والدارسين والمهتمين لهذا التراث الشعبي الغرباوي.. !؟! ما هي بعض أنواع هذه الألعاب الشعبية الجماعية الغرباوية!؟! وما هي غاياتها وأهدافها !؟!

أين تتجسد أوجه «التقارب» والاستفادة.. من الألعاب القديمة في الألعاب الحديثة والمعاصرة..!؟! هل هناك دلائل وبراهين.. عقلية ومنطقية وعلمية موضوعية.. توضح لنا منطق الأثر والتأثير في التراث الإنساني عموما وفي التراث الغرباوي خصوصا..!؟!

إننا ندرك أتم الإدراك والوعي بأن المجال لا يسمح لنا بالخوض بتوسع وتعمق في هذه الإشكالية المرتبطة بالرياضة في هذه المدينة المهمشة.. ولهذا سنقتصر على تقديم بعض الألعاب الغرباوية الشعبية.. بالاعتماد على تقديم وصف شديد الإيجاز عن هذا الموضوع الهام في حياة الإنسان، وهذا بدوره سيساعدنا على تسليط الضوء علىالبعض من هذه الألعاب الشعبية البدوية الغرباوية والأهداف والغايات التي أنشئت من أجلها من غير نسيان بعض التأثيرات التي مارستها على الرياضة الحديثة والمعاصرة، ومع مراعاة المصاعب والمحاذير.. التي أشرنا إليها في الجزء الأول من كتابنا : "من وحي التراث الغرباوي"، كعدم توفر المصادر والوثائق والتدوين والتأريخ.. لهذا التراث الغرباوي على العموم والرياضة على الخصوص، الأمر الذي جعلنا -مرة أخرى- أمام صعوبات في استنكاه حقيقة كثير من الأشياء المرتبطة بهذا الموضوع وبالمسؤولين عنه وبلاعبيه..الخ.

وكيفما حاولنا أن نستقرئ الواقع الرياضي لهذه المدينة/مشرع ابن القصيري، وتفسيره، فإن محاولتنا هذه، كذلك، ستبقى هي الأخرى محاولة مفتوحة على محاولات وتفسيرات وقراءات وأبحاث ودراسة أخرى بإمكانها أن تستفيد وأن تفيد أكثر على مستوى المصادر والمناهج.. الخ.

إن رجوعنا إلى الواقع البدوي الغرباوي، هنا، وإلى الناس الذين عايشوا ومارسوا هذه الرياضة التي حفظتها الذاكرة الشعبية، كما نعرفها وكما قدمها بعض الأصدقاء والمهتمين والعارفين.. بها. وهكذا يبين لنا الواقع الغرباوي بأن ممارسة رياضة كرة القدم مثلا لا ترتبط بالاستعمار فقط كما كان يعتقد وإنما كانت معروفة وتمارس، هنا، وإن بشكل بسيط على مستوى اللعب وعلى مستوى التنظيم.. كانت اللعبة تتكون من فريقين من الذكور.. الأرجل حافية واللباس تقليدي.. الكرة مصنوعة من لباس الثوب القديم أو لباس الصوف الممزق وتحكم بخيط متين حتى تحافظ على شكلها الكروي .. واللعب قد يتجاوز الساعة أو الساعتين أو الثلاث.. وإن دل هذا على شيء إنما يدل على أن هذه اللعبة كانت تقوم على القوة وعلى النفس الطويل وعلى الصبر على الجري لتحقيق الهدف وذلك بالوصول بالكرة إلى الخط المرسوم والمحدد قبل بداية المباراة من طرف الفريقين .. وهذا يؤكد لنا مدىالمساهمة في الثقافة الإنسانية من طرف الإنسان المبدع والخلاق بشتى الطرق والوسائل.. وإن اختلفت الأنظمة والطرق والوسائل.. من عصر إلى عصر..!؟!

كما يجدر بنا ونحن نخوض في موضوع بعض الألعاب الشعبية الغرباوية المحلية أن نشير إلى لعبة «التعابيز» وهي ما تعرف الآن بلعبة «المصارعة الحرة» أوألعاب أخرى تشبهها .. إنها اللعبة التي تفرض وجود فردين لاعبين متقاربين -نسبيا- في السن وفي سلامة الجسم وقوته وفي التجربة والممارسة لهذه اللعبة.. كما تدور داخل دائرة المتفرجين.. بعد أن تحدد لها دائرة اللعبة يشترط رفع الخصم إلى أعلى وإسقاطه على الأرض داخل الدائرة.. أمام المتفرجين الذين يكونون حكاما في نفس الوقت.هذه

اللعبة الجماعية والشعبية لا تقتصر على الأفراد المحليين فقط، بقدر ما تكون على شكل جهوي أي بإمكانها أن تقوم كبطولة.. بين أفراد دوار ودوار آخر، أو بين قبائل أو جهات.. لمعرفة البطل الأول.. كما يمكن للبطل المحنك والمعروف.. وهويتباهى أمام المتفرجين أن يتنازل ببعض الأشياء لخصمه.. مثل تركه بدون استعمال اليدين معه أو اللعب معه بجانب واحد فقط .. !؟!

من خلال ما تقدم ذكره حول بعض الألعاب البدوية الشعبية الغرباوية ألا يحق لنا أن ننصف هذه الألعاب ورد الاعتبار إليها ولو بذكرها وتدوينها وتسجيلها لكي تبقى عبرة للأجيال الحاضرة والمقبلة.. .في مجال الإبداع والتجديد والتطوير والبناء .. الخ. !؟!

من غير شك، إن مجموعة من الألعاب البدوية الغرباوية الشعبية والمرتبطة بهذا الواقع الغرباوي الموضوعي قد تأسست كحقيقة وجودية إنسانية واجتماعية وثقافية.. بفضل هذا الإنسان الغرباوي الذي أعطاها طابعا خصوصيا وطابعا إنسانيا عاما.. مما يؤكد منطق المشاركة والتعاون في بناء الحضارة والثقافة.. الإنسانيتين، كما تتجسدان في علاقات التأثر والتأثير المتبادلة بين الناس والمجتمعات.. عبرالسيرورة التاريخية.

إن هدفنا الجوهري من هذا البحث المتواضع، هو العمل على محاولة توثيق وتأريخ.. الثقافة البدوية الغرباوية، هنا في مشرع ابن القصيري وضواحيه.. وذلك من أجل إنقاذها من التهميش والإتلاف والضياع.. حتى لا تفقد «هويتها» وحضورها الإنساني وخصوصيتها.. وهذا لن يجعلنا نغفل الاهتمام في مجال البحث عن علاقات الأثر والتأثير –كما

أشرنا- مستدين في ذلك على بعض الحقائق والشواهد.. المرتبطة بموضوعنا، سواء تعلق الأمر، مثلا، بالأمثال الشعبية أو بالأساطير والخرافات أو بالألعاب.. وهذا يقتضي منا في الحقيقة التريث في القراءة العميقة والمعمقة.. قبل إصدار الأحكام.. على مسألة من المسائل. وحتى لا نسقط في فخ التأويلات الذاتية.. لأن هدفنا الأساسي -كما قلنا- هو محاولة إثبات أصالة وحقيقة وأهمية.. الثقافة البدوية الشعبية الغرباوية التي اعترضتها وواجهتها مجموعة من العوائق والصعوبات والمشاكل..الخ.

وهكذا، وانطلاقنا مما قلناه، نجد مثلا أن لعبة السباق بواسطة الجري على الأرجل أو بواسطة الحمير أو الخيول.. قد عرفت في المجتمع الغرباوي وإن بشكل بسيط.. قبل أن تتطور هذه الألعاب إلى ما تطورت إليه في العصر الحديث وفي عصرنا المعاصر..!؟! وهذا يثبت في رأينا عملية الأثر والتأثير التي تحدثنا عنها في كثير من مجالات الحياة الإنسانية.

كما نجد لعبة أخرى، في الواقع البدوي الغرباوي، وهي منبثقة من ثقافته.. إنها لعبة «الطراح» أوالحبل، وهي لعبة تجري بين فرقتين فرقة من الإناث وفرقة من الذكور.. وتمسك كل فرقة من الفرقتين برأس الحبل.. وتشرع عملية الجر.. والمنتصر هو الذي يستطيع جرّ الفرقة الأخرى.. وفي الغالب ما كان الانتصار حليفا للإناث أكثر من الذكور.. باعتبارهن أكثر صبرا ووزنا.. من الذكور..!؟!

مهما يكن الأمر، فإن هذه الألعاب الشعبية التي كانت سائدة وممارسة من طرف السكان في الواقع البدوي الغرباوي، هنا، يمكن أن يكون لها دور أساسي في حياة هذا المجتمع وكذلك في حياة المجتمع

الإنساني، وهذا ما جعلنا نهتم بها كظاهرة شعبية وكهدف إنساني واجتماعي وثقافي.. لا زالت البعض منها حية وموجودة وممارسة.. حتى الآن..!؟! كما يظهر على سبيل المثال لا الحصر، كذلك، في لعبة«غُمَّيْض البيض» وهي لعبة جماعية تتكون من عدة أفراد إما من الذكور أو من الإناث أو منهما معا، حيث يتم تعيين الشخص الذي سيتولى إغماض عينيه للبحث عن الأفراد الذين اختبأوا في أماكن مختلفة.. هذا الشخص الذي أغمض عينيه يقوم بهذا الدور إما بإرادته وإما بواسطة القرعة الجماعية. وتكون هذه اللعبة في الغالب في الليل، ولا زالت تمارس حتى الآن من طرف الأطفال.

قد يبدو هذا الكلام متشعبا وصعبا على الفهم البسيط، لكنه في رأينا ضروري لإعطاء هذه المنطقة المغربية الغرباوية حقها في مجال التراث والفكر والإبداع والتوثيق والتأريخ -كما قلنا أكثر من مرة- كما أنه يوضح حضور مجموعة من الظواهر والمظاهر.. التي أبدعها هذا الإنسان الغرباوي وتميز بها...!؟!

إن الظاهرة التي تستوقفنا كذلك، هنا، ونحن نتحدث عن بعض الألعاب البدوية الغرباوية الشعبية، هي التي ترتبط بالسباحة، التي اتخذت طابعا فعليا، وذلك بفضل وجود مجموعة من الأودية أو الأنهار في منطقة الغرب، مثل : سبو وبهت.. التي شكلت الحياة الأساسية لسكان الغرب، وإن كانت قد شكلت عليهم خطرا في القديم القريب، كما تجلى ذلك في الفياضانات المهولة التي عرفتها المنطقة.. ومن جهة أخرى فقد تميزت منطقة الغرب بوجود مجموعة من الشواطئ مثل شاطئ مولاي بوسلهام وشاطئ المهدية وشواطئ أخرى.. وقد لعبت هذه الأنهار

والشواطئ.. دوراً مهما وأساسيا في تكوين سباحين ممتازين.. يتقنون فن العوم سواء كان في البحر أو في النهر.. وهكذا فإن واقع المجتمع الغرباوي قد منحه إمكانية وجود ظاهرة السباحة والتفنن فيها.. وقد كانت تجري مسابقات بين الصغار إناثا وذكورا وبين الكبار من الشباب والرجال.. الذين يتقنون هذه الرياضة وقد كانت تخصص لها جوائز وإن كانت بسيطة..!؟!

ما يمكن استخلاصه هو أن هناك وعيا قويا لممارسة هذه الظاهرة / السباحة من طرف سكان الغرب وبالخصوص الموجودين قرب الأنهار أو الشواطئ، بالرغم من أن النظرة الفاحصة (الآن) للواقع البدوي الغرباوي لا تدع مجالا للشك، في أن كثيرا من السكان الغرباويين يعانون من حرمانهم من ممارسة رياضة السباحة، لأن هذه الظاهزة أو الرياضة تنحبس في الغالب داخل أماكن/مجالات محددة، تخضع في وجودها لمنطق القرب من الأنهار أو البحر.. لا لوجود المسابح التي تشجع كثيرا على ممارسة هذه الرياضة الجميلة والهامة.

إن وجود هذه الألعاب وغيرها في منطقة الغرب، ليس إلا نتيجة لحركية هذا الواقع الموضوعي. إنها تؤكد أكثر من غيرها، على حضور وعي قوي وفعال وهادف إلى إعادة الاعتبار إلى هذا الواقع الغرباوي المهمش.واقع بإمكانه أن يعطي وينتج ويبدع أكثر.. لو توفرت له مجموعة من الإمكانيات المساعدة على تحقيق مجموعة من الأهداف والأغراض والأبعاد.. ذات الارتباط بالجماعة في عمق جوهرها.. كما يبدو كذلك. في لعبة «عويد/عود النجوم» وهي لعبة تتكون من فريقين إما من الذكور وحدهم أو من الإناث وحدهن، وإما من الذكور والإناث معا. العملية

تقتضي وجود فرد غير مشارك في اللعبة، يقوم برمي العود المختار من طرف أفراد الفريقين، ويقوم كذلك بدور الحكم في نفس الوقت. وحين يرمي العود ينطلق أفراد الفريقين متفرقين من أجل العثور عن العود. ومن يتمكن من العثور عليه يخفيه داخل ثيابه ولا يعترف لأحد من الفريقين حتى يصل إلى النقطة المحددة مسبقا ويسلمه إلى الحكم الذي يعلن انتصار الفريق الذي ينتمي إليه الفرد الذي تمكن من الحصول على العود. وتتم هذه اللعبة –في الغالب– في الليل حيث يكون ضوء القمر منتشرا ومضيئا والنجوم ساطعة، ولذلك سميت اللعبة بـ «عويد النجوم»، هذه اللعبة التي تساعد الأفراد الممارسين لها على تكوين شخصيتهم وذلك بهدف زرع حب البحث والمعرفة وقيم الصدق والأمانة والتعاون الجماعي المشترك.. في نفوسهم.

وبجانب هذه الألعاب في الواقع الغرباوي، هنا، نجد كذلك لعبة متميزة وذات أهمية لا في الماضي فقط، ولكن كذلك في الحاضر، كما يبدو تأثيرها في كثير من الألعاب الحديثة والمعاصرة، مثل كرة المضرب ولعبة(البيزبول) . إنها اللعبة المعروفة باسم : «شيرًا» وتتكون هي الأخرى من فريقين من الأفراد الذين يتوفرون على مجموعة من العصي لضرب (العظم). وهكذا فالفرقة الأولى تتولى حراسة (المقام)/نقطة الانطلاق وذلك في شخص أحد أفرادها. أما الفرقة الثانية فتتولى في شخص أحد أفرادها ، كذلك، ضرب (العظم) بعد رميه في الهواء من طرف الفريق الحارس.. فإذا أخفق الفريق المكلف بالضرب في إصابة الهدف / ضرب العظم وإبعاده ما أمكن عن (المقام).. فإن الفريق الثاني يكون هو

المنتصر. أما إذا ما تمكن الفريق المكلف بضرب (العظْم) بالعصا.. فإن أفراد الفريقين يجرون وراء (العظم) من أجل الإتيان به إلى (المقام)...!؟!

إن العلاقة بين هذه الألعاب وغيرها، كما رأينا في الواقع الغرباوي هنا، وممارسيها، هي علاقة واعية وهادفة، نجد في ممارستها البساطة والروح الجماعية والواقعية الموضوعية والتجربة الصادقة..الخ. وهذا يدعونا في الحقيقة إلى ربط هذه الألعاب بالواقع الموضوعي المعاش.

إن توضيح هذه الألعاب في هذا الواقع الغرباوي، قد وضعنا أمام مظاهر وظواهر ومشاهد.. ذات أهداف وضوابط.. بسيطة في عمقها.. وذات علاقات موضوعية وواقعية ومعيشية.. مما فرض علينا الاهتمام بها والتركيز عليها وعلى غيرها في واقع كثر فيه التهميش والانبهار بما أنتجه الآخر الذي لا تهمه سوى المصلحة الخاصة.. وهذا لا يعني أننا نرفض الآخر الذي يحترم الإنسان والقيم الإنسانية ومنطق المشاركة والتعاون في كل المجالات الإنسانية والاجتماعية والثقافية والحضارية..الخ. إننا نعني برفض الآخر، الذي يرفضنا كبشر ويفرض علينا التبعية العمياء والاستغلال الفاحش.. ويشل بكل الوسائل من قدرة الإنسان المفكر والمبدع والعامل والمجدد والمتعاون.. !؟!

لسنا في حاجة إلى توضيح أهمية الرياضة في تحريك الجسم/الأجسام.. فمن المؤكد أن الرياضة موضوع/ظاهرة تسعى إلى تحريك الجسم –كما قلنا- عبر مجموعة من التقنيات والوسائل والطرق.. وهو ما يشكل وعيا معمقا وقبليا بوظيفة الرياضة وأهدافها وغاياتها.. في الحياة الإنسانية وإن كان ذلك مرتبطا بالقيام بالتمارين الرياضية والحركات المختلفة والمتنوعة والهادفة.. وهكذا وجدنا أنه لا يمكن

الحديث عن الحركة بدون الحديث عن الرياضة والعكس صحيح.. مما دفعنا إلى تخصيص الفصل الرابع لإشكالية الرياضة الغرياوية وأهميتها في مجال الحركة بمفهومها العام، ومن هنا نكون قد ربطنا ربطا دياليكتيكيا وواعيا.. الحركة بالرياضة.. جاعلين من هذه العلاقة المهمة والأساسية.. خلاصة تساؤلية لموضوعنا هذا فاتحين الباب أمام المتخصصين.. للمزيد والتعمق والتوسع.. في هذا الموضوع الجوهري المرتبط بأهمية الحركة في الواقع البدوي الغرباوي.. ومن غير شك، فإن للرياضة والرياضيين المختصين والمهتمين.. الكثير في هذا المجال الخصب والمتحرك..!؟! لكن كيف النهوض بالرياضة الغرباوية في غياب البنية التحتية مثل الملاعب والقاعات والمركبات والتجهيزات والأطر..!؟ كيف نفسر هذا الإهمال وعدم الاهتمام.. بهذا المجال المهم والحيوي من.طرف المسؤولين !؟!

اكتشافات أثرية عظمية وحجرية في منطقة الغرب ترجع لعهود متعددة ومختلفة وقديمة؟!

ربما يكون من المناسب وكذلك من المنطقي والعقلي والواقعي في هذه القراءة التراثية المتواضعة، قبل أن نبدأ رحلتنا الأنثروبولوجية والتاريخية.. لمنطقة الغرب الشاسعة الأطراف الغنية الموارد والتراث والثقافات.. البسيطة الحياة والمهمشة الاهتمامات.. أن نطرح بعض التساؤلات والأسئلة حول أهمية التراث الغرباوي الغارق في القدم والمتجسد بالأساس فيما هو مادي مثل المآثر العمرانية والاكتشافات الأثرية الحجرية والعظمية.. وسنركز هنا بالدرجة الأولى على بعض الاكتشافات الحجرية والعظمية القديمة جدا في التاريخ الإنساني، في كل من : عين الدفالي ومشرع ابن القصيري وباقي الأماكن الأخرى. نظرا لللأهمية الكبيرة التي يكتسيها المأثور التراثي المادي، من غير نسيان التراث الفكري والرمزي، وذلك بواسطة عنصري المادة والموقع. الصامدين آمام شراسة الطبيعة وغطرسة الإنسان. والأهمية الخاصة بالمكان/الموضع/الموقع أو الكم/الآثار المادية، ما بإمكانها أن تعطي لهذا التراث المادي المنسي والمهمش، قيمته الحضارية والثقافية والتاريخية والتراثية.. مثلما هو الأمر على سبيل المثال لا الحصر بالنسبة للتراث العمراني، الذي يتم تحديده ومعرفته بواسطة الموضع والكمية والمكان والزمان.

وبهذا يكون الاكتشاف الحديث/الراهن للتراث الحجري والعظمي الغرباوي، عملية مهمة في إثراء الثقافةالإنسانية والمغربية والغرباوية الحديثة والمعاصرة، بالمأثور القديم المهم والمثير في الواقع البدوي

الغرباوي وتراثه. وقد أدت هذه الاكتشافات الحديثة، في رأينا، إلى تغيير وتفنيد.. النظرة إلى ما كان شائعا وسائدا ومنتشرا في الواقع الغرباوي المعاش وفي ثقافته، باعتبار أن الغرب كان (خاليا) ومتكونا من مجموعة من البرك المائية، فقط، التي تعقد الاستقرار والإقامة والعيش فيه..!؟! غافلة (النظرة) بذلك ما يحتوي عليه المغرب والغرب من خيرات متنوعة ومتعددة ومن مآثر مختلفة وكثيرة ترجع إلى حقب تاريخية إنسانية وإلى حضارات وثقافات متعددة ومتنوعة.. ومن هنا تطرح أسئلة أخرى حول إشكالية المعمار.. بالنسبة للقبائل المستوطنة في منطقة الغرب.. أليست هناك أسباب وعوامل.. حالت دون تحقيق ذلك، كما هو الأمر مثلا بالنسبة للرومان الذين استوطنوا في منطقة الغرب وتركوا فيها آثارا متنوعة !؟

وهكذا يكون الحديث (الآن) عن هذا التعدد والتنوع.. الحضاري والثقافي والتراثي الغرباوي، محفزا ودافعا.. لإقامة مجموعة من الأبحاث والدراسات والنظريات.. العلمية، التي ستنمي المعرفة العلمية والوعي والتي ستضفي الجديد للمسيرة العلمية ومعارفها ومناهجها وأبحاثها ودراساتها، وهذا سيؤثر بشكل أو بآخر، كذلك على الحياة الإنسانية وفهمها لطبيعة حقيقة الواقع الغرباوي الذي يعاني من التخلف في كثير من المجالات.

ومن هنا تكون أهدافنا الأساسية والجوهرية في هذه القراءة العمل على البحث والدراسة والتوثيق للتراث الغرباوي ونشره قصد المعرفة والاطلاع من طرف العامة والخاصة، كما التزمنا بذلك.

إن اكتشاف بعض الآثار القديمة جدا، في منطقة الغرب، والمتجسدة -كما قلنا- في وجود بعض العظام (مقبرة) والأحجار المخدومة من طرف الإنسان القديم، والتي كان يستخدمها لصيد الحياوانات وأشياء أخرى، مثل السكاكين.. ترجع إلى العصرالحجري البرونزي في مشرع ابن القصيري بالضبط بدوار البعابشة الرمل الذي يبعد عن المشرع بثلاثة كلم تقريبا، وكذلك وجود مقبرة. وإلى الحضارة الآشولية بعين الدفالي، ومآثر أخرى ترجع إلى ما بعد التاريخ كالحضارة الرومانية مثلا (باناصا) والحضارة العربية الإسلامية (البصرة) الموجودة بضواحي سيدي عمر الحاضي ما بين سوق الأربعاء الغرب ومدينة وزان.

هذا إن دل على شيء، إنما يدل على أن مناطق المغرب ومنطقة الغرب على الخصوص، هي مناطق غنية بأراضيها وآثارها ومآثرها وثقافاتها وتراثها المتنوع والمتعدد، ولكن الشيء الذي يسترعي الانتباه ويثير الاندهاش والاستغراب، هو أن هناك تهميشا وإهمالا على مستوى البنيات التحتية..!؟! وهكذا يكون أهم شيء ينبغي التركيز عليه في آية دراسة أو بحث لأي موضوع من المواضيع في مجال التراث أو غيره، هو ما يتعلق بالظاهرة المدروسة (الحادثة) بمعنى الشيء الذي حدث أو يحدث في موقع معين لحظة معينة. ومن هنا أهمية العلاقة الدياليكتيكية القائمة بين عدة عناصر المكونة لهذا الشيء أو ذاك في إطار مفهومي الزمان والمكان. وهذه العملية تقربنا وتساعدنا على استيعاب وفهم ومعرفة.. ما نحن بصدده، وهذا يؤدي بنا من جهة أخرى إلى عملية الضبط والتقنين والتوضيح والتحكم.. وكذلك إلى التطوير والتجديد والإبداع.. الخ.

ومن غير شك، فإن الدراسات العلمية الحديثة والمعاصرة الدقيقة التي أجريت على هذه الآثار التراثية الغرباوية وغيرها، قد دلت وأكدت على مكانة المغرب على العموم ومنطقة الغرب على الخصوص، في التراث الإنساني بالرغم من تهميش هذه المنطقة الغرباوية، مثلا، على مستوى البحث والدراسة والتوثيق والصيانة والترميم..الخ كما أظهرت قيمة الغرب وأهميته في التاريخ الإنساني والمغربي. بالإضافةإلى ذلك، توضح هذه الاكتشافات العلمية على أن الاهتمام بتراث هذه المنطقة والمناطق الأخرى المغربية يؤدي إلى تغيير في العقلية وفي الواقع المعاش، نظرا لما يلعبه العمل أو الإبداع الإنساني المتنوع في بناء الحضارات والثقافات.. في كل زمان وفي كل مكان.

كما يمكن أن نستخلص من أهمية هذه الاكتشافات وغيرها بأن نجاحها قد أسهم في فهم ومعرفة.. واقع منطقة الغرب الغنية بثرواتها ومآثرها وطاقاتها.. على أساس أن يهتم بها وبسكانها الذين لعبوا ولازالوا يلعبون أدوارا مهمة وأساسية في حياة المجتمع المغربي خصوصا وفي الحياة البشرية عموما. فكلما ازداد الاهتمام بالإنسان ازدادت أعماله وإبداعاته وإنتاجاته.. الخ. ولعل ما يثير الانتباه كذلك، في هذه المنطقة المغربية الغرباوية هو وجود كثير من الوديان أو الأنهار وفي مقدمتها نهر سبو الذي يصب في المحيط الأطلسي، مما سهل تنقلات الإنسان والحضارات والثقافات المختلفة والمتنوعة، عبر المراحل التاريخية منذ مرحلة/مراحل ما قبل التاريخ.. إلى الآن !؟!. ومن هنا أهمية الاهتمام بنهر سبو مكمن الأسرار والحقائق الكثيرة، والأنهار الأخرى، في عمليات البحث والدراسة والمعرفة والاكتشاف والتنقيب.. الخ.وهكذا كذلك ينبغي أن تتجاوز

وتتحرر اهتماماتنا وبحوثنا ودراستنا.. ما هو وصفي وشكلي وظرفي ومناسباتي ورسمي وأن تتحلى بالمناهج العلمية.. حتى يتم رصد الظواهر المدروسة رصدا علميا. كما يجب أن نتخلص ونحارب التلوث الفكري لمحاربة التلوث البيئي الذي أصبح يهدد الكائنات الحية والكائنات الجامدة بما في ذلك التراث !؟

ROYAUME DE MAROC
MINISTERE DE LA CULTURE
SECRETARIAT GENERAL
INSTITUT NATIONAL DES SCIENCES DE L'ARCHEOLOGIE ET DU PATRIMOINE

Rabat le

A
Monsieur le Président de l'Association
Aïn Dfali pour le Développement
Sidi Kacem

Objet / Rapport d'expertise
Réf./ Notre lettre n° 319 du 22 février 2006

Monsieur;

Suite votre lettre citée en référence nous avons le plaisir de vous adresse ci-joint le rapport de la mission d'expertise [illegible]

Veuillez agréer, Monsieur le Directeur, l'expression de nos salutations distinguées.

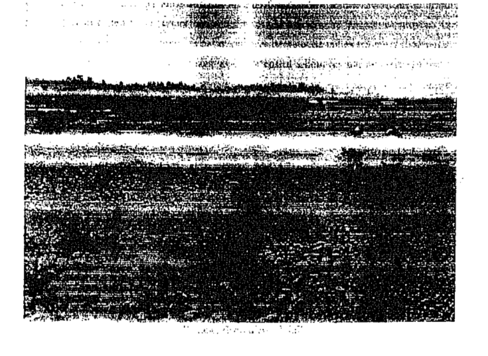
P.J. : 1

[illegible]

ROYAUME DU MAROC
MINISTERE DE LA CULTURE
INSTITUT NATIONAL DES SCIENCES DE L'ARCHEOLOGIE
ET DU PATRIMOINE

RAPPORT DE MISSION D'EXPERTISE

PRESENTE PAR
A. MIKDAD & F. AMANI

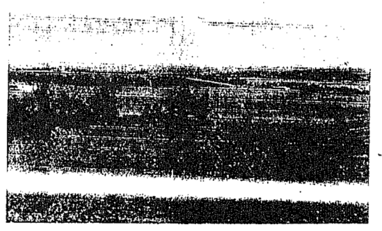


Rabat 28 février 2006

Suite à une lettre par télécopie adressée, le 16 mai 2005 par Monsieur Mohamed Habhab, enseignant au lycée Ibn Zohr à Ouezzane, à l'Institut National des Sciences de l'Archéologie et du Patrimoine au sujet de la découverte dans la commune d'Aïn Dfali (province de Sidi Kacem) de plusieurs sites archéologiques étalés sur plus de 600 hectares, une mission d'expertise a été effectuée le 25 mai 2005, sur le lieu dit de la découverte par Monsieur Abdeslam MIKDAD, chef du département de préhistoire à l'INSAP et Monsieur Fethi AMANI enseignant-chercheur au même institut.

Ladite opération d'expertise a permis d'obtenir les résultats suivants :

- Le site d'Aïn Dfali est un vaste gisement préhistorique qui daterait de l'Acheuléen ;
- Il est situé dans la zone externe du Prérif marquée par des sédiments d'origine dunaires formés au cours du pliocène et du quaternaire ancien et moyen. Ces formations qui sont dominées par des nappes de galet de tailles variables reposent sur des dépôts Miocènes. Elles sont assez fortement sillonnées par des cours d'eau de l'oued Sebou.
- Le site d'Aïn Dfali se compose de site de consommation et de plusieurs ateliers de production ;



Vue générale du site de Aïn Dfali

- Le site de consommation est situé sur la bordure gauche de la route nationale 13 qui mène de Karia-Ba-Mohamed vers Ouezzane à 3 km environ au nord-ouest d'Aïn

Dfali. C'est à cette endroit où on trouve une forte concentration d'outils lithique composés de bifaces, d'hachereaux, de pics, de grands éclats...etc acheuléens ;

Une partie du site a été endommagée par l'installation d'une carrière d'extraction de gravier qui a servi à la consolidation de la route nationale ;

L'examen des coupes qui résultent de cette exploitation nous a permis de constater que le matériel archéologique se trouve enfouis sous une couche de sédiment jaune argileux à une profondeur approximative de 0,60 à 0,70 m ;

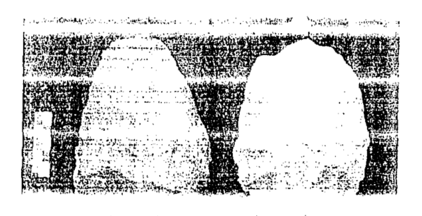
La prospection des environs immédiats du site de consommation a révélé l'existence de plusieurs ateliers de taille ;

L'abondance de la matière première (le quartzite) et l'existence d'une source d'eau artésienne pérenne ainsi qu'un lac fossile situés à proximité du gisement d'Aïn Dfali constituent des conditions de vie propices à l'installation des hommes préhistoriques dans la région ;

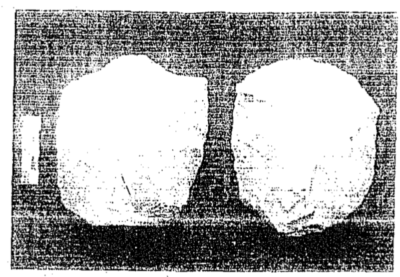
[illegible]

critères morpho-typologiques situe l'âge du site de Aïn Dfali entre l'Acheuléen moyen

[illegible]



Aïn Dfali. Bifaces cordiforme et amygdaloïde



Aïn Dfali, Hachereaux acheuléens

- Depuis la découverte du site Monsieur Mohamed Habhab a procédé au ramassage systématique d'un grand nombre d'outils lithiques qu'il garde dans sa demeure

- En 2006, le site d'Aïn Dfali fera l'objet de fouilles programmées qui s'inscriront dans [illegible] l'Archéologie et du [illegible] à l'Université [illegible] Rome La Sapienza et l'Université Fédérico II de Naples

<u>المصادر :</u>

1- لسان العرب لابن المنظور. الجزء الثاني

2- الموسوعةالفلسفية: م. روزنتال. وب. يودين. ترجمةسميركوم. دار الطليعة بيروت. الطبعة الأولى 1974م.

3- موسوعة لالاند الفلسفية. تعريب : خليل أحمد خليل. منشورات عويدات. بيروت –باريس الطبعة الأولى 1996م. ج.الثاني

4- معجم لاروس. تأليف الدكتور خليل الجر. مكتبة لاروس. 1987م.

5- بوسلهام الكط: من وحي التراث الغرباوي. الجزء الأول الطبعة الأولى غشت 1999م. مطبعة أبريال – الرباط.

6- المناهل. عدد : 56 مطبعة دار المناهل –الرباط-

7- عالم المعرفة . العدد 216. الرياضة والمجتمع .تأليف د. أمين آنورالخولي. رجب 1417هـ/ديسمبر/كانون أول 1996م. –الكويت-

8- أوبيرارونيه (التربية العامة) ترجمة. الدكتور عبد الله عبد الدائم. دار العلم للملايين. الطبعة السادسة: تشرين الثاني (نوفمبر) 1983م.

9- جريدة الاتحاد الاشتراكي السبت 25 يوليوز 1998م. العدد 5461.

10- جريدة المنظمة. الثلاثاء 14صفر 1419هـ/الموافق 9يونيو1998م.العدد : 318.

11- جريدة الاتحاد الاشتراكي. الآحد 9 ذو الحجة 1418هـ/الوافق 12 آبريل 1998م. العدد : 5357

12 –جريدة المنظمة الأحد والإثنين 10/9 ذو القعدة 1418هـ/الموافق 8/9مارس 1998م.

فهرس الموضوعات للجزء الثالث والرابع

الجزء الثالث :

الجزء الرابع :



بوسلهام الكط

وهكذا يكون الحديث (الآن) عن هذا التعدد والتنوع.. الحضاري والثقافي في التراث الغرباوي، محفزا ودافعا.. لإقامة مجموعة من الأبحاث والدراسات والنظريات.. العلمية، التي ستنتمي المعرفة العلمية والوعي والتي ستضفي الجديد للمسيرة العلمية ومعارفها ومناهجها وأبحاثها ودراساتها، وهذا سيؤثر بشكل أو بآخر، كذلك على الحياة الإنسانية وفهمها لطبيعة حقيقة الواقع الغرباوي الذي يعاني من التخلف في كثير من المجالات.

ومن هنا تكون أهدافنا الأساسية والجوهرية في هذه القراءة العمل على البحث والدراسة والتوثيق للتراث الغرباوي ونشره قصد المعرفة والاطلاع من طرف العامة والخاصة، كما التزمنا بذلك.

ذلك، لأن الإنسان هو الكائن الأكثر وعيا ومعقولية وحركية وتطورا في هذا الواقع الموضوعي المتحرك. وهو الذي يعي بعمق حقيقة الأشياء المتغيرة والمتطورة والمتحولة والمتحركة.. لأنه الكائن الذي يتأمل ويتساءل.. عن حركية الأشياء وثباتها وتغيرها وتحولها.. كما يساهم بحيويته وعمله وحركيته في تغيير وتحويل وتسخير.. الطبيعة والأشياء.. لصالحه ومصلحته.. وهذا ما لمسناه، في دراستنا للوا... ولتراثه، كما سنرى كذلك في الجزء الرابع.

أما اهتمامنا في الجزء الثالث من وحي التراث ... في الأساس حول إشكالية الحالة الاقتصادية والاجتم... مفهوم الاقتصاد مركب من مجموعة من العناصر وا... مثل الفلاحة والصناعة والتجارة.. ومن الإنسان ور... والعمل والوعي.. الخ. فإنه يخضع مثله مثل باقي الأ... والتغيير.. مما يضفي عليه صبغة مهمة وأساسية ع... نظرا للدور الذي يلعبه في حياة كل المجتمعات على... وهكذا، فإن الحديث، مثلا عن الفنون الصناعية الت... منطقة الغرب، هو حديث عن الأعمال اليدوية التي قام بها الإنسان الغرباوي تبعا لإمكانيات الواقع واحتياجاته وذلك لتغطية وتلبية رغبات وحاجات أفراد هذا الواقع الموضوعي المعاش.

المؤلف

Bibliotheca Alexandrina
0687333

الثمن :40 درهما